إنعام ديوب
حب
أونلاين
رواية
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
t.me/twinkling4

إنعام ديوب

حب

أونلاين

رواية

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو 2021 م - 1442 هـ

ردمك 9786140266919

الدار العربية للعلوم ناشرون

إهـــداء

لعله الإهداء الأغرب في تاريخ الكتابة..

إذ لطالما حلمت بإهداء لا يمر على مشاعري مرور الكرام...

إهداء يأتي في زمن مناسب ومكان أنسب..

فلن تطال الغرابة سقف الكون - عندما أهدي هذا الكتاب المتشبع بتفاصيل الذكريات إلى نفسي المتشبعة بذات التفاصيل عبر عقود من الزمن..

أهديها وأبوح لها بحب تأخر نصف عمر.. حب وصل لاهثا متقطع الأنفاس ولن تجتمع هذه الأنفاس ثانية إلا على عتبة غفرانها!!!!

نعم.... نفسك تستحق منك كل هذا الحب!

إنعام

كلمة شكر

شـــــكـــرا .. 2020

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَــاد، الإلكترونية. ©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب.

t.me/twinkling4

في لحظة نقاء كامل للمشاعر واستحضار لكل أشكال الجمال العاطفي والإنساني، جلست على مقعدي الهادئ عند شاطئ بحر، هدأت أمواجه واستكانت تعبيرا عن رغبتها الساخنة في سماع آخر مقطوعة من سمفونية حب، اعتدت أن أعزفها كلما فاضت بي مشاعر الحب والعشق العالقة في كل ركن من كياني، وغرقت منافذ تفكيري في هذا الفيضان السخي.

أتساءل كيف لساعتين بمئة وعشرين حدثا من الزمن أن تستحضرا تفاصيل قصة تبلغ من العمر عشر سنوات على التقويم الافتراضي، وكيف لبحر هادئ هائج راقص أن يستوعب أحداث قصة فيها من الحب، والعتب، والصبر، والشغف ما يدفع أمواجه في كل مرة لممارسة كل التقلبات المزاجية التي تشبه تقلبات مزاج امرأة شارفت على الأربعين من عمرها، ولم تشارف على بداية، وكيف لامرأة قاربت الأربعين حبا، ولم تغرق في بحر الخطيئة ألفا وستين كتابا؟!

الفصل الأول

إنه عصر يوم الخميس قرابة الساعة الرابعة والنصف، عندما هبطت الطائرة ووطئت قدماي أرض الكويت للمرة الأولى.

أمسكت أمي بيدي وكأنني طفلة في الرابعة. أمسكت يدي وكأنها تخشى عليّ من شيء ما. تخشى عليّ من خطوات تقربني من بلد جديد وعالم مختلف. تضع يدها حول كتفي، وتنظر إليّ بشفتين مبتسمتين وعينين قلقتين. أفهم أمي وأفهم ما خلف نظراتها. أشعر بها وأشعر بأفكارها. أثق بها كثيرا وأثق بعقلها أكثر. لعلها كانت تبلغ من الذكاء حدّا يستبق عشرات السنين القادمة...

للمرة الثانية، أشعر وكأنني في الرابعة. لم أستطع التحكم في نظراتي البريئة التي تُعاين الناس والمكان والتفاصيل. إلى حدّ ما، هناك شيء مختلف، شيء لم أعتده من قبل، شيء لا يشبه عالمي، ومكان لا يشبه أمكنتي، وفي الوقت نفسه، أحسست أن الناس يبادلوننا النظرات نفسها، وكأننا نحن الغرباء الوحيدون في المطار!

من دون إرادة مني، شهقت شهقة عميقة، وكأن نفسي كان محبوسا لساعات. تنفست بعمق شديد، وللمرة الأولى دخل هواء الكويت إلى قلبي.

وصلنا مكتب ختم الجوازات، وانتظرنا دورنا إلى أن جاء صوت عنصر الأمن: "مواطنو دول مجلس التعاون الخليجي لو سمحتوا تعالوا يمين".

كانوا لطفاء جدا. رحّبوا بنا أجمل ترحيب، وحمدوا الله على وصولنا بالسلامة، وتابع الموظف كلامه وهو يقلب صفحات الجواز: "نعمة، من أين أنت قادمة؟".

"كندا"، وكانت الكلمة الأولى التي أنطقها في هذا البلد.

- الحمدلله عالسلامة. نورت الديرة. قالها الموظف وهو يختم الجواز، وينقل نظره بين وجهي وصورة الجواز إلى أن سمع صوت أمي تنادي:

- بسرعة، نعمة.

توجهنا لاستلام الحقائب، وسمعتُ أمي من خلال الموبايل تكلم أبي الذي كان ينتظر وصولنا على أحرّ من الجمر.

خرجنا من البوابة الرئيسة، وتركنا خلفنا مئات القادمين من دول وجنسيات مختلفة، ولكل واحد منهم قصة بانتظاره تختلف باختلاف سبب قدومه إلى هذا البلد.

لست الوحيدة المكبلة بغربتها، الغارقة في أفكارها، المبعثرة بنظراتها. فضحتني التفاتاتي وفضحتني براءتي. التفاتات في كل الاتجاهات، وكل التفاتة تنبئ بحياة جديدة وبداية

متأخرة سأبدؤها وكأنني ولدت من جديد، وعجبي هل تولد فتاة شابة بعمر السابعة والعشرين.

خرجت كلمتا السابعة والعشرين بصوت خافت!

كان صوت أمي كمن أيقظني من غيبوبة: "نعم، إنها الخامسة وسبع وعشرون دقيقة، لقد تأخرنا قليلا في استلام الحقائب يا حبيبتي".

كثيرون هم الأشخاص الذين ينتظرون أحبتهم أو ضيوفهم. عيونهم شاخصة فرحة مترقبة. تستطيع أن ترى على وجوههم مقدار فرحهم وشوقهم، فرح يستطيع إسعاد كل النساء البائسات في العالم فيما لو وزع بالعدل.

على الرغم من انتظارهم وشوقهم، لم يغب عنهم أن ينظروا إليّ وإلى أمي بشكل خاص وإعجاب واضح، فقد كنت أنا وأمي جميلتين أنيقتين هادئتين، نبحث بعيون نجلة عن شخص أكد لنا حضوره لاستقبالنا، وتأكدنا بدورنا من وصوله.

من خلف باقة ورود حمراء مزينة بأغصان الجوزافيل، تفوق جمال ابتسامته على ورود العالم. رأيته بعد أن استطاعت أمي أن تشم عطرا اعتاد أن يأسرها لسنوات طويلة خلف قضبان قلب محبّ، فترفع يدها ملوحة بشوق جارف لمله حياء الجمال والأنوثة، فأسرعنا للقائه

واحتضانه غير آبهين بآلاف العيون التي تتبعنا، وربما شغلناهم عمن كانوا ينتظرون.

إنه أبي الرزين، أبي المحب، أبي الناجح بامتياز، يرحب بنا بطريقته المميزة، ويشعرنا بعمق فرحته لقدومنا وحبّه الذي لا يشبه حبّاً آخر.

خرجنا إلى الشارع. في الواقع، كان الهواء خارج مبنى المطار أحر من كل الأشواق...

لن ولم أنسَ ذلك الإحساس المبهج، نسمات الهواء الساخن الجاف تلفح وجهي كبوارق الحب العذري، تجعل شعري الناعم يتطاير كضحكات أميرة عاشقة عرفت الحب للمرة الأولى في حياتها.

وصلنا إلى السيارة، فوضع العامل الحقائب داخلها وصعدنا.

لم يتوقف أبي عن الترحيب والكلام الجميل، وأشعرنا أن الدنيا كانت ظلاما، واستعادت نورها فقط لحظة وصولنا.

جلست أمي في المقعد الأمامي بجانب أبي، وجلست أنا في المقعد الخلفي.

- نعومتي يا نعومتي، أخيرا أنت في الكويت، والله الدنيا كلّها لا تتسع لفرحتي. قالها أبي، وهو ينظر إليّ في المرآة وعيناه تلمعان من الفرحة، وقد تجمّع فيهما سيل من

الدموع ينتظر طرفة واحدة ليغرق وجنتيه ولحيته الخفيفة.

- حبيبي بابا، حتى أنا لا أصدق أني وصلت الكويت، أجبته وأنا أقبّل رأسه من الخلف. قلت مازحة: "أحب دلع اسمي منك "نعومتي"، ومن أمي "نانا"، وهذا يجعلني أشعر باختلاف الثقافات، ههه".

- أنا وأمك استطعنا صهر الثقافات والحدود والتقاليد وحتى ثلوج كندا، فعن أي اختلاف تتحدثين؟! ضحكنا نحن الثلاثة، والمحبة الصادقة تغمرنا كمطر ربيعي منعش.

أمسك أبي بيد أمي وقبّلها، وكان ينظر إليها بشوق ولهفة وأمل كعاشقين يحلمان ببداية عمر جميلة، فيها كل الانتصار على ظروف وعوائق حالت بينهما وبين لقائهما الأبدي...

تركت أبي وأمي يتهامسان، وسرحت بخيالي عبر نافذة السيارة أعاين الطريق وما يحيط به، أعجبتني الشوارع والبيوت والسيارات الفخمة، وتساءلت: ما الذي ينتظرك يا نعمة؟ إلى أين ستقودك هذه البداية؟ كيف ستسير حياتك في هذا البلد الجديد؟

التفتّ إلى أمي، وإذا هي تسند رأسها إلى الوراء على المقعد وكأنها تطرح أسئلتي نفسها! وأبي يقول لي: "انظري إلى درجة الحرارة، إنها أربع وخمسون درجة في الخارج،

والله أخاف عليك أن تذوبي يا سكّرتي..".

فتجيبه أمي: "وماذا نتوقع في الشهر الثامن في الكويت؟ نحمد الله أن الجو بلا رطوبة اليوم".

إنه يوم حار كسائر أيام أغسطس، ولكن الدفء الذي أشعر به مختلف عن دفء الصيف، دفء يشبه الأمان والحب، ويشبه دفء العائلة.

لافتات الشارع بارزة، فيها أسماء مناطق مختلفة، وفيها لافتة خط الفحيحيل السريع الذي سلكه أبي واتجه باتجاه منطقة تدعى "سلوى". سبق لأمي أن أخبرتني عنها، وأخبرتني أننا سنسكن في بيتنا المطلّ على البحر، وأنه سيكون بإمكاني الاعتناء بالورود والزّرع في حديقته الكبيرة.

أخيرا، وصلنا المنزل.

أخيرا، سأعيش في بيت أبي؛ يعني في بيتي.

أخيرا، سيلُمّ شمل العائلة!!!

***

قد لا يكون لك الحق في القرار، ولكن لك الحق في التفكير والتخمين والأحلام.

ترجلنا من السيارة، وخرج رجل وامرأة لاستقبالنا

وحمل الحقائب. من الواضح أن المرأة فليبينية، والرجل هندي، بعدها علمت أنهما السائق والخادمة اللذان يعيشان في المنزل بشكل دائم.

- الآن نورت الكويت، نعومتي. يا هلا وغلا بروح الروح.

- هل هذا بيتنا يا أبي؟

- نعم، يا حبيبتي. وإن شاء الله سيكون بيت الفرح والأمان لك ولأمك ولنا كلنا بإذن الله.

تقترب أمي تحضنني، وتقول: "هيا حبيبتي لندخل، فالجو حار جدا".

دخلنا من الباب الرئيسي الذي يشبه بوابة قصر، وبعدها دخلنا من باب المنزل العريض، لأرى نفسي في صالة واسعة رائعة مؤثثة بأرقى الأثاث وأجمله، لا بد أن مهندس الديكور الذي تكفل بديكور الصالة صاحب ذوق رفيع وراقٍ.

كيف سأصف إحساسي الآن؟ كيف أرتب ما يدور في داخلي؟

عشت في بيتنا في كندا، وعشت قليلا في بيت جدي في سورية، ولكن لم يسبق لي أن شعرت كما أشعر هنا في هذا البيت، لا أعلم إن كان إحساسي بشيء يشبه الغربة أم

إنّه شيء يدعى الاستقرار. وفي كلتا الحالتين، أشعر بفرح كبير وانشراح وانفراج أسارير، وهذا ما يجعلها بداية طيبة بالنسبة إليّ.

جلسنا نحن الثلاثة في الصالة، بينما الخادمة والسائق يدخلان الحقائب ويصعدان بها إلى الطابق الثاني. من الواضح أنهما يعرفان عملهما جيدا. خرج السائق، وتوجهت الخادمة إلى المطبخ لاستكمال تجهيز مأدبة عشاء تليق بالقادمين.

قال أبي: "أعتقد أنكما متعبتان من السفر، أرى أن تصعدا وتبدلا ملابسكما لتشعرا بالراحة، وبعدها نتناول العشاء معا، ونتحدث عن شوقي إليكما وفرحتي بوجودكما معي حتى آخر العمر.

صعدت أنا وأمي التي أوصلتني إلى غرفتي، وبعدها توجهتْ إلى غرفتها، في الواقع لم تكن غرفة بل أشبه بجناح ملكي في فندق خمسة نجوم...

يا الله يا أبي كم أنت رائع! كم أنت مشتاق إليّ! وكم أنت مهتم لوجودي معكم! وكم أنا بحاجة إلى مثل هذا الاهتمام!

نظرت إلى كل تفصيل في الغرفة، وخرجت إلى شرفتها الرائعة، إنها تطلّ على البحر يفصلها عنه الحديقة والشارع ذو الاتجاهين.

تنفست بعمق رغم حرارة الجو وابتسمت، نعم ابتسمت، ابتسمت ابتسامة الرضا، ابتسامة الشكر، الشكر لله ولوالدي الطيب. عدت إلى الغرفة حيث بدّلت ملابسي، ونزلت وتوجهت مباشرة إلى طاولة الطعام حيث كان أبي وأمي ينتظرانني.

- واااو، ما هذا كله يا أبي؟ من سيأكل كل هذا الطعام؟

- أرجو أن تعجبكما كل الأصناف، أنا أسعد إنسان بوجودكما معي اليوم. لقد طلبت إلى شيري تجهيز كل الأطباق التي تحبينها، وهي بارعة في الطبخ وصنع الحلويات.

- من شيري؟

- ههههه إنها خلفك.

- التفتُّ وإذا هي الخادمة تبتسم، وتقول لي: "أنت جميلة جدّا وأجمل من الصورة".

- شكرا يا شيري، هل أنت وحدك من أعددتِ كل هذه الأطباق؟

- نعم، مدام، وعصير الرمان لأن بابا يقول أنت تحبينه كثيرا.

- ثانكيو داد.

- بالعافية بنيتي، قالها أبي وهو يملأ لي صحني بالعديد من أصناف الطعام.

أكلنا، وتحدثنا، وضحكنا، وأحضرت شيري أصنافا من الحلويات وقهوة عربية، هذه القهوة هي الشيء الوحيد الذي لم أحبه في ذلك اليوم.

قال أبي: "هناك أحاديث كثيرة بانتظارنا، والساعة تجاوزت الثانية عشرة، ما رأيكما هل نذهب للنوم أم نكمل السهرة؟".

كانت أمي قليلة الكلام هذا المساء وتحدث أبي معظم الوقت.

لاحظت نظراته إلى أمي، نظرات شوق وحب وامتنان، نظرات عاشق عاجز عن إخفاء لهفته، يا إلهي كم أنت مشتاق إليها يا أبي! فوالله، أستطيع أن أرى عينيه تضمانها قبل يديه.

نهضت واتجهت نحوه، قبلته على رأسه، وقلت له:

- اسمح لي أبي، أنا متعبة ويجب أن أنام، تصبح على خير.

- حبيبة قلبي، وأنت من أهل الخير، بانتظار غد يجمعنا إن

شاء الله.

- قالت أمي:

- إن احتجت شيئا فأخبريني نانا.

- أحتاج إلى احتضانك قبل أن أصعد إلى غرفتي، واتجهت نحوها، فاحتضنتني بحب، وقبلتني ومسحت شعري وهمست:

- بكرا أحلى.

ليلتي الأولى في الكويت، ليلتي الأولى في بيت أبي، ليلتي الأولى في غرفتي وسريري، أقفلت الباب وتوجهت بسرعة إلى سريري، كل شيء يشعرني بالراحة، كل شيء يبشرني بالخير، أريد أن أحلم بكل شيء، وأن أحقق كل شيء.

سيكون أبي عونا لي، سندي الحقيقي، إلى جانب أمي التي اعتدت أن يكون قلبها مسكنا لراحتي، وأن يكون رأيها قانونا لحياتي، لم تخذلني يوما وأنا على يقين أنها لن تفعل. معها أغمض عينيّ وأسير، وعندما أفتحهما، أجد نفسي تماما عند وجهتي.

أي أمّ قادرة على خلق سعادة لابنتها بحجم السعادة التي حققتها لي أمي؟ لقد كانت لي أما وأبا وأختا وصديقة وحضنا دافئا في أماكن تنوعت غربتها، وفي غربة تنوعت أشكالها.

أمي الجميلة، المثقفة، المتحررة، الأنيقة، العاقلة، المحبة، المتفهمة. أمي التي وقع أبي في غرامها منذ الدقيقة الأولى، ولا يزال بكامل رغبته وقناعته وعرفانه للسماء التي وضعتها في طريقه. أمي التي تحملت وتجملت بكل أشكال الحكمة لتصنع سعادة أبدية لوالدي، والدي الذي ظل مخلصا وفيا وممتنا لكل ما فعلته وما قد تفعله في

قادم الأيام.

إني على يقين أن أمي وأبي في هذه اللحظة يعيشان حبا متجددا دافئا نبيلا لا يشبه نوعا آخر من الحب. إنه شكل متفرد من الحب يعجز عن امتلاكه أي حبيبين؛ إنهما شخصان استثنائيان أحبهما الله، فعرفا المعنى الحقيقي للحب وعاشاه بأجمل وجه.

بدأت عيناي بالذبول، وتمكّن مني النعاس. أشعر بالابتسامة تلازم شفتيّ لا ترغب في مغادرتهما، أضم مخدتي بحبّ وأسلم نفسي لنوم هادئ، أجل سيكون هادئا ما دمت في بيتي ومع أبي وأمي.

كم تحبني يا الله!

كم ينبغي أن أشكرك وأسجد لك لأعبّر عن إحساسي بكرمك معي!

تمنحني كل هذه السعادة الصباحية...

تجعلني أفتح عينيّ لأجد أمي مستلقية إلى جانبي على السرير، تداعب خصلات شعري، مبتسمة، تراقبني، تنتظرني لأفتح عينيّ.

- ماما، صباح الخير.

- صباح الورد، صباح الأمل، يا أمل حياتي.

قبلتني على جبيني وعلى خدي.

- منذ متى وأنت هنا؟

- منذ ساعة. لم أشأ أن أزعجك، ولكن شئت أن تريني إلى جانبك عندما تستيقظين يا حبيبتي.

كعادتها أمي، أنا أولى أولوياتها؛ أحبّت بذكائها أن تثبت لي أنها لم تنشغل بأبي عني. ارتفعت قليلا لأختبئ في حضنها، فضمتني مرة أخرى كطفلة لم تتجاوز الرابعة من عمرها، وغمرتني بقبلاتها الناعمة على شعري ووجهي وعينيّ، منذ صغري وهي تقبلني على عينيّ وتسألني: "هل نامت عيناك الجميلتان جيدا؟"، فأبتسم لها بمحبة وأجيبها: "نعم، لقد نمت جيدا".

- اممممم ما رأيك أن ننزل، فوالدك ينتظرنا وهو مشتاق إليك كثيرا؟

- حسنا أمي، انتظريني قليلا لأغسل وجهي وأجهز

نفسي، أريد أن أبدو جميلة منذ الصباح.

- وهل أمامك خيار سوى أنْ تكوني جميلة؟ ألم تلاحظي أمس في المطار كيف كانت العيون تنظر إليك وكأنك من كوكب آخر؟

- مامي، كانوا ينظرون إليك أنت، صدقا لم أرَ في حياتي أجمل منك يا أم فيصل.

- ههه، أنت نسخة مصغرة ومطورة من أمك يعني "كوبي بيست"، ألا تقولون هذا في علم الكمبيوتر الذي درسته في الجامعة أيتها الشقية؟

- ههههههه هذا صحيح، ولكنك أنت نسخة سورية كندية، وأنا النسخة الكويتية.

شعرت بتبدل في ملامح أمي، وتغيّر في نظراتها، وشيء من التردد، فقطعت شرودها: "ما بك يا أمي؟".

- تبتسم لي وتقول: "لا شيء، فقط أفكر كيف تكونين نسخة كويتية بعينين خضراوين وشعر أشقر!".

أضحك من قلبي لأن أمي دائما تذكرني أني جميلة جدا، وأنا فعلا أشبهها بشكل لا يصدق،

على عكس أخي الذي يشبه أبي إلى حدّ بعيد.

***

أنا جديدة في البلد، وكثيرون يترقبون وصولي، لم أتفاجأ أن أحدا من أقاربي لم يكن في انتظاري ليلة أمس، فأنا قادرة على التماس الأعذار وتبرير المواقف، بالإضافة إلى تفاصيل في قصة وصولي إلى الكويت جعلتني أتردد بالسؤال عنهم.

ارتديت فستانا أبيض فضفاضا قصيرا، ووضعت قليلا من المكياج وتعطرت كثيرا، إحدى عاداتي التي أحبها ولا أغيّرها هي الإكثار من العطور.

إنها الحادية عشرة والنصف صباحا، كان أبي يجلس إلى الطاولة في الصالة يتصفح الجريدة، اقتربت منه، قبلته على رأسه وقلت: "صباح الخير".

- صباح الخير والنور، تأخرت عليّ كثيرا، أنتظرك منذ الصباح.

- حبيبي بابا، آسفة لكنني نمت من التعب، والصراحة سريري يفيض راحة ودفئا، ويغري بالنوم حتى وقت متأخر.

- نوم العافية والصحة، وسلامتك من التعب، حبيبة قلب بابا.

قالت أمي:

- سيكون كل شيء رائعا بعد احتساء القهوة التركية

اللذيذة.

قال أبي:

سنتناول اليوم العشاء في الخارج، وبعدها نجول بالسيارة في شوارع الكويت. الجو حار جدًا في النهار، لا يمكن فعل أي شيء سوى التسوق في المولات.

- أريد أن أمضي النهار معك يا أبي، أريدك أن تحدثني عن كل شيء، حدثني كيف تقضي وقتك، حدثني عن أعمالك، وعن أقاربي وعن الحياة في الكويت بالتفصيل.

- امممممم... رأيي أن نبدأ بالأشياء المهمة التي تخصك، أنا في إجازة الآن ومتفرغ لك، من المهم أن نتعرفي إلى بعض المناطق في الكويت: مولات، سينما، مطاعم، أماكن ترفيهية، وسنبدأ باستخراج رخصة قيادة كويتية لك، وإلى ذلك الحين سيتولى السائق إيصالك إلى أي مكان في حال انشغالي أنا أو أمك.

- هل ستعلمني قيادة السيارة؟

- لا، أنا مهمتي أن أشتري لك السيارة، ههه أما تدريبك فسيكون في مركز لتعليم الفتيات القيادة.

قالت أمي:

- سيستغرق الموضوع معك أكثر من شهر لتتأقلمي مع

حياتك الجديدة، وبعدها كل شيء سيكون اعتياديّا.

- بالتأكيد، أكثر ما أفكر فيه هو الحصول على أصدقاء وعلى عمل.

- اتركي موضوع الحصول على عمل لوالدك. لديه الكثير من المعارف والعلاقات، وبالنسبة إلى الأصدقاء ستكتسبين صداقات بلا شك، فأنت لطيفة جدا وستقابلين كثيرا من الناس في النوادي والمناسبات.

- بابا، هل سيزورنا أحد من أقاربي اليوم؟

- اتصلت عمتك، وأبلغتني أنها ستأتي غدا مساء.

نظر إلى أمي نظرة استطعت أن أستخلص منها تفاصيل قصة غير شائقة قد تحدث، وبادلته أمي نظرة تحمل رسالة واضحة: "أنا جاهزة لكل القصص الشائقة وغير الشائقة، فليس هناك خيار آخر" وقالت: "أشعر أني بحاجة إلى الراحة، سأصعد وأستلقي قليلا".

قال أبي:

- وأنا أيضا استيقظت باكرا وأحتاج إلى قيلولة، وأنت أيضا يا نعومتي ارتاحي قليلا، وكوني جاهزة الساعة السادسة لأول وأجمل عشاء في مطاعم الكويت.

- حاضر.

لم أشأ أن أزيد كلمة، فقد لاحظت أن الجو العام لم يعد يحتمل أي تعليق. بقيت في الصالة وحدي، لم أشأ أن أفكر كثيرا، فقد اعتدتُ أن أتأقلم مع أي وضع جديد، بما هو متاح، وكما هو متاح، وأن أواجه أي تحدّ بثقة وقوة، وهذا شيء علمتني إياه أمي من ضمن كتاب تعليمي كامل. عشت مع أمي قرابة سبعة وعشرين عاما، بينما كنت ألتقي أبي فقط في إجازاته عندما كان يسافر إلينا في كندا أو في بيت جدي في سوريا. تعلقي بوالدتي شديد، وعلاقتي بها لا تشبه العلاقات الاعتيادية للبنات مع أمهاتهم، علاقة تفوق الحب والحنان والاهتمام والرعاية، أمي تمثل الشريان الذي يربطني بالحياة، كل ذرات الأكسجين التي أتنفسها، تبث فقط بوجود أمي، خلايا جسدي تتجدد فقط عندما تمسح أمي وجهي، أمي مجموعة مكونة من أم، وأب، وأخ، وصديق، وقريب، وطبيب، ومعلم بارع.

شكلت شخصيتي من دون إرادة مني، ولكن برضاي، فمن الصعب وربما المستحيل أن يكون لي القدرة على بناء شخصية متميزة لي كما فعلتْ أمي.

***

ولدت أمي وعاشت حياتها في كندا من أب سوري وأم كندية، في كنف أسرة هادئة راقية تتكون من بنتين

وولد، وهي الوسطى بينهم. خالي الكبير وائل، وخالتي الصغرى ميرا، وأمي كاترين التي ورثت الاسم من جدتها التي توفيت قبل ولادتها بشهرين.

درست أمي في كلية الآداب جامعة تورونتو، وتخصصت في الأدب الإنجليزي، واتبعت كورسات في العلاقات العامة، وبدأت العمل في السفارة الكويتية في كندا وهي في التاسعة عشرة، وهناك التقت والدي للمرة الأولى.

كان أبي يتردد إلى السفارة لقضاء بعض الأعمال المتعلقة به باعتباره مغتربا، وأيضا ليزور صديقه وابن بلده عبدالله الذي يعمل في مقر السفارة. وهناك تعرف إلى كاترين الجميلة، منذ اللحظة الأولى التي رآها استطاعت الاستحواذ على قلبه ومشاعره. أحس بسهم كيوبيد يخترق روحه قبل قلبه، ذاك الإحساس المتكرر الذي يحكيه كل من حكم عليه بالموت عشقا، إحساسه أنه يعرفها منذ واحد وعشرين عاما، وكأنها خلقت في لحظة مولده، واتحدت روحها بروحه، وعاش منتظرا لحظة لقائهما المؤكدة، وبدا أن اللحظة قد آنت، هذا ما كان يرويه أبي في كل مناسبة ويصادق العم عبد الله عليه، وهذا ما رأيته في عينيه ليلة أمس لحظة لقائه أمي.

لم يتردد في سؤال عبد الله عنها، وكان رد عبد الله

مقتضبا: "إنها الآنسة كاترين، سورية تعمل في السفارة منذ فترة ليست طويلة".

لم يشأ أبي أن ينشغل عن مراقبتها واختلاس نظرات جريئة كلما كان في مأمن من عيون الآخرين ومن عينيها، ولذلك لم يكثر الأسئلة على عبد الله، فعبد الله موجود ويمكن الالتقاء معه خارج أوقات الدوام، أما هذه الجميلة فحدودها أقل من نصف ساعة كل أسبوع.

تتالت الأسابيع، وبدأ حبها يجري في نفس أبي، وقلبه، وروحه، وعقله، وتفكيره، وبدأت نظراته تفضحه أمام عبد الله الذي لم يتردد في سؤاله: "هل أنت متأكد من أنك تأتي إلى السفارة لزيارتي؟!"

يضحك أبي بخجل ويقول: "اعتقدت أنك مشغول، هذا كل ما في الأمر".

***

أخرجت شيري ملابسي من الحقائب، ورتبتها في خزانة الملابس. كعادتي، وقفت أمام الخزانة مطولا لاختيار ما يناسب، ولكن هذه المرة طال الوقوف، عليّ اختيار ما يناسب مكاني الجديد، ربما يجب أن تكون ملابسي أكثر احتشاما من جهة، ومناسبة لحرارة الجو من جهة أخرى وهذا ما نبهتني إليه أمي قبل المجيء، أحتاج إلى المساعدة

وجلسنا نتحادث ونلتقط الصور إلى أن بدؤوا بإحضار الطعام، وكان اختيار أبي موفقا بالمطعم الفخم والأكل اللذيذ، بعد قليل وإذا بشخص يقترب من طاولتنا ويقول:

- أخي أبو فيصل، يا محاسن الصدف!

التفت أبي إليه، وقال:

- هلا وغلا بالغالي، هلا بأبو عبد العزيز.

وسلم عليه بحرارة، ودعاه إلى الانضمام إلى طاولتنا.

- لي الشرف أبو فيصل، ولكن معي ضيوف على الطاولة الثانية. طمني عن أخبارك وأخبار شغلك.

- الحمدلله بخير، وكل شيء ماشي بتوفيق من رب العالمين. اسمح لي أن أعرفك إلى أم فيصل وابنتي نعمة.

- يا هلا ومرحبا، لي الشرف بالتعرف إليكما.

- الشرف لنا، والله.

- وشلون أخبار الدكتور فيصل؟ ما زال مستقرا في فرنسا؟

- الحمدلله بخير، لا يزال في فرنسا.

- الحمدلله، تستاهل كل خير أخوي أبو فيصل. أستأذنك الآن ونلتقي قريبا إن شاء الله.

- بحفظ الرحمن.

سألت أبي من يكون أبو عبد العزيز، فأجابني: إنّه صديق قديم، وأحد أكبر رجال الأعمال، ولديه فروع لشركاته في عدة دول.

قضينا وقتا رائعا أثناء العشاء وبعده، واستمعنا لمطرب يغني ويعزف على العود أغاني شامية جميلة، وكانت هذه إحدى مزايا المطعم التي جعلت أبي يختاره دون غيره، فهو مدرك كلَّ تفصيل يبعث السعادة في نفس أمي وفي نفسي أيضا.

عند خروجنا من المطعم، كان الجو لطيفا، والنسمات دافئة، فيها رقّة وحنان، توجهنا إلى شارع الخليج، هذا الشارع المفعم بالحياة الذي يمتد على طول البحر، اقترحت أمي أن ننزل ونتمشى قليلا، فضحك أبي وقال: كيف لكما أن تمشيا، وأنتما تنتعلان هذا الكعب العالي؟ فتجيبه أمي: "من أجل أمل، لا بد أنها ستحب هذا المكان كثيرا".

- يا لجمال هذا المكان! ويا لروعة البحر وسكونه! هل من الممكن أن نلتقط صورا هنا؟

- كل ما تأمرين به مجاب، يا حبيبتي.

التقطنا كثيرا من الصور، وسجلنا مقاطع فيديو، وكنت حقا في غاية السعادة.

اليوم الثاني في الكويت، وكل شيء يغمرني بالفرح والرضا والراحة. أعلم أن البدايات دائمًا جميلة، وكأنها تبالغ في جمالها كي تساعدني على قبول قرار إكمال حياتي في الكويت. حياة جديدة مختلفة تعد بالسعادة والاستقرار، وتبدو أنها ستناسبني؛ لأنني ولدت مفطورة على الحب والنقاء والسكينة.

أشعر أنني أدقق في كل شيء، وأفكر في كل حدث وأهتم لأقل تفصيل، هو الاهتمام المبالغ فيه لكل ما هو جديد، الاهتمام بالبدايات ولو أنه من الأجدى أن نهتم بالنهايات، فكل الأشياء تقاس بخواتيمها عند الله وعند البشر..!

أتشوق إلى الغد، وأتشوق إلى رؤية عمتي، من الجميل أن يكون لك عائلة متكاملة من طرف الأم ومن طرف الأب، اعتدت على وجود عائلة أمي في حياتي منذ الصغر. أحبوني وشاركوا في تربيتي، وفي الحقيقة أشعر بالانتماء إليهم أكثر من عائلة أبي، فعمتي إقبال هي الوحيدة التي سبق لي أن رأيتها عندما أتت لزيارتنا في كندا في إحدى إجازاتها، وبقيت على اتصال معنا على الأقل في المناسبات.

أمضت معنا عشرين يوما في كندا، وكانت علاقتها بأمي جيدة، وهي الوحيدة من كل عائلة أبي التي باركت زواج

أبي وأمي. وبعد مرور سنوات، كنت صغيرة، ولكنني لم أنسَ يوما شغفها الواضح بمعرفة التفاصيل عندما كان أبي يحكي لنا كيف بدأت قصته مع أمي، وأتذكر تماما ضحكتها عندما قالت لأبي: "إذا اعتقدت أن عبد الله مشغول! ألم تجد جوابا لائقا أكثر؟ فأنت في السفارة، أين الديبلوماسية يا كازانوفا عصرك؟".

- أنتِ تعلمين أنه ليس لي تجارب سابقة، ولا أحسن التصرف في مثل هذه المواقف.

- حسنا، أكمل، هل كان عبد الله مشغولا في الأسبوع التالي هههههه؟

- هههههههه سأجيبك بعد تناول العشاء.

من الممتع أن تسمع قصة حب في بداياتها في ليلة شتوية مثلجة، فهي تمنحك دفئا يجعلك تشعر بسعادة خفية، خصوصا بالنسبة إلى فتاة صغيرة تبلغ أحد عشر ربيعا، ولكن من المحزن أن يقولوا لك "حان وقت النوم"، وتضطر للذهاب دون أن تعرف بقيّة القصة، فهناك تفاصيل يجب أن تحكى فقط للكبار.

في تلك الليلة، لم أستطع النوم، لا أدري إن كان السبب عدم النعاس أم الرغبة الدفينة في معرفة تفاصيل القصة المتبقية التي تجعلك يقظا وتزيد من مستوى سمعك،

وخصوصا أن الشقة صغيرة، والليل أهدأ من ملاك حالم.

ذات مرة، سمعت أبي يقول: "دعاني عبدالله بعدها إلى بيته للعشاء، وكنت أتردد إليه لأزوره في معظم المناسبات. عبدالله أكبر مني بسبع سنوات، ولا يزال عازبا، ولكن تجمعنا صداقة وعلاقة أبناء البلد الواحد في دولة أجنبية. بعد العشاء، وبعد أحاديث الشجن، قررت أن أسأله عن كاترين، هذه الجميلة التي لا تفارق خيالي ولا أستطيع التوقف عن التفكير فيها".

- عبد الله، أريد أن أتحدث إليك بموضوع خاص إذا أمكن.

- تفضل، ولكن لا تسألني لماذا لم أتزوج حتى الآن، لأنك لن تحصل على جواب.

- هههههه، أتمنى أن أحصل على جواب، ولكنّني أحترم خصوصيتك.

- ما هو الموضوع؟

- متى ستتزوج؟ وأرفقتها بضحكة عالية.

- حتى لا أرزق بولد أبله مثلك لن أتزوج، وسايرني بضحكة خفيفة دبلوماسية، وقال "ما هو موضوعك تكلم؟".

- كاترين.

- ماذا؟

- كاترين.

- ماذا بها كاترين؟

- أنت تعلم أنها فتاة مميزة وجميلة، والحقيقة أنا معجب بها مذ رأيتها.

- لن أقول إنك فاجأتني، ولكن أرجو ألّا يفاجئك كلامي.

- لا تقل إنك لن تساعدني على التعرف إليها؟

- لا مانع من أن أعرفك إليها، فهي فتاة اجتماعية، ولا تحكمها التقاليد ولا عقدة الرجل.

- ممتاز. متى وكيف؟ فأنا لا أستطيع الانتظار.

- فهد. كاترين لن ترتبط بك.

- لماذا؟ ماذا ينقصني؟ فقط هيِّئ لنا فرصة التلاقي مرة واحدة، وسوف ترى.

- هناك عدة موانع، يا صديقي. اصرف النظر عنها.

- هل تقصد اختلاف الجنسية؟ ليس لديّ أي مشكلة.

- ولكن هي لديها مشكلة، وأرجوك أن تنسى الموضوع.

- أنا معجب بها، وأنا حقا وقعت في حبها، وأنا أطلب

التعرف إليها ليس لغرض التسلية، لمَ لا تستوعب؟

- كاترين في علاقة حب.

- ماذا؟

- نعم، وكان الأجدر بك أن تسأل إذا كانت مرتبطة أم لا. إنها مرتبطة بفادي، وهو شاب سوري يحبها، ولكن علاقتهما غير مستقرة.

- يعني غير متزوجة ولا مخطوبة؟

- لا، فقط علاقة تتحكم فيها الظروف.

- أعتقد أنها أخبار جيدة لصالحي.

- لا تأمُل كثيرا، لا شيء لصالحك.

- لماذا تحاول إغلاق كل الأبواب في وجهي؟

- لأنك لا تريد أن تفهم.

- هل أنت مغرم بها؟

- بالتأكيد لا. لا تذهب بأفكارك بعيدا.

- حسنا، أعطني فرصة. ساعدني فقط على الخطوة الأولى.

- فهد، غيّر الموضوع لو سمحت.

- لن أغيِّر الموضوع. علاقتها بصديقها غير مستقرة، وهذا في صالحي. ما المانع، لا أفهم؟

- كاترين...

- ماذا؟

- كاترين مسيحية، يا فهد.

- مسيحية؟

- نعم، ولا أعتقد أنه من الممكن أن ترتبط بمسلم.

***

في ذلك الوقت، لم أكن أعلم ماذا يعني مسلم أو مسيحي بالنسبة إلى العلاقات الاجتماعية أو حتى دينيا، كل ما أعلمه أنهما دينان يؤمنان بإله وكتاب ونبي مرسل.

وهنا غلبني النعاس، ورحت أغطّ في نوم عميق، لأن القصة وصلت إلى أحداث لم تعد ممتعة بالنسبة إليّ في ذلك الوقت، فكل ما يهمني من القصة هو لمسات الرومانسية ومداعبة المشاعر البريئة.

***

كانت عمتي معجبة جدا بشخصية أمي، ودائما تسمعها عبارات المدح والإطراء، وكانت معجبة أكثر بتربيتي أنا وأخي فيصل واهتمام أمي اللامتناهي بنا على الأصعدة

كافّة، وكانت تردد دائمًا أن العلاقات مع عائلة أبي سوف تتحسن مع مرور الوقت.

سأقابلها غدا، وأعتقد أنها ستأتي وحدها، ممّا يعني أن العلاقات لم تتحسن حتى الآن، ولا أدري إن كان قدومي إلى الكويت سيغير شيئا أم لا. وفي كل الأحوال، لا أستطيع العودة إلى كندا، فقد صفى أبي كل شيء هناك، واتخذ قرار استقرارنا في الكويت إلى الأبد. وبما أنني لم أعتد على التفكير في المسائل الكبيرة، فأمي هي المسؤولة عن التفكير والتنفيذ. قررت ترك الأحداث تجري كما قدر لها، وفتحت اللاب توب لأتواصل مع أصدقائي من دول مختلفة، فهذه إحدى هواياتي التي أحبها وأعتز بها، فقد علمني أبي آية جميلة "إنا خلقناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا...". وأنا في شوق لأحكي لصديقتي المقربة سارة عن حياتي الجديدة وعن بلدي وبيتي، ولن أنسى أن أخبرها أيضا عن شارع الخليج.

في اليوم التالي، بدت أمي سعيدة لأنها ستستقبل عمتي للمرة الأولى في بيتنا في الكويت، بدت قلقة بعض الشيء، ولكنها الذكية الحكيمة الواثقة بنفسها، والواثقة بوجود أبي إلى جانبها وحبه الكبير لها وتمسكه بها منذ البداية إلى النهاية.

أهل أبي يرفضون قدومي أنا وأمي، ويرفضون حتى

الاعتراف بنا، ليس من السهل عليك الإحساس بأنك مرفوض وغير مرحب بك لوضع ليس لك به ذنب، ما ذنبي أنا في قرار اتخذه أبي وأمي منذ أكثر من ثمان وعشرين سنة؟ لماذا أشارك أنا في دفع الحساب معهما؟ هما أحبا بعضهما وفق قناعاتهما، وتجاوزا موضوع اختلاف الجنسية والدين، وهما سعيدان، وزواجهما ناجح وأثمر بقدومي أنا وأخي فيصل إلى هذه الدنيا، هل يمكن للعادات والتقاليد والمفاهيم الموروثة أن تتحكم في مصير الأشخاص وحتى في علاقاتهم الأسرية ومنزلتهم الاجتماعية؟

بصفتي امرأة ملزمة إلى حد ما أن أطيع قرار أبي وأمي، لا يمكنني اتخاذ قرار منفرد كي لا أدفع الثمن مرتين. أخي فيصل اختار طريقه ووافقه أبي بكل سرور، فهو رجل؛ وتقاليد المجتمع لا تكبل عقله وتفكيره، ولا تفرض أحكامها عليه، بل هو من يفرض قناعاته، قرر أن يدرس الطب في فرنسا، ووافقه أبي وأمي دون تردد، وساعده وجود خالي في فرنسا. فيصل لا يهتم لعائلة أبي، ولا يكترث لرأيهم في قبولنا أو رفضنا، يؤمن بذاته وإمكاناته، ويؤمن بأنّ أبي وأمي وأنا عائلته فحسب ويكتفي بنا، يؤمن بأنّ الإنسان حر ولا يحكمه سوى سلوكه وأخلاقياته، يؤمن بأنّ بإمكان كل شخص أن يكون محورا بحد ذاته، وعلى الآخرين الالتفاف حوله فيما لو كانوا على قناعة. فيصل لا يضيع الوقت في

الجري وراء رضا العائلة والمجتمع، ولا ينشغل بترميم ما أفسدته الظروف، إنه منشغل فقط بعلمه ودراساته، اختار دراسة الطب عن قناعة، وهو يتحدث الإنجليزية والفرنسية والعربية بطلاقة، ولا يتخلى عن هوايته في لعب التنس والمشاركة في بطولات محلية وإقليمية، والأهم بالنسبة إليّ أنه سند حقيقي لي رغم أنه يصغرني بسنتين.

***

وصلت عمتي في الموعد، والمفاجأة أنها لم تكن وحدها، فقد أتت معها ابنتاها دلال وملاك، يا لحظي الجميل! عمتي وبنات عمتي أتين لزيارتنا والترحيب بنا في الكويت، وكأن الأمور تمشي أفضل مما توقعنا، كان لقاء جيداَ، لكنه لا يخلو من بعض الجفاف من قبل ابنتي عمتي، ولا ألومهما، فهما تتعرفان إلينا للمرة الأولى، وأعلم أننا لسنا في أفضل الظروف.

لم تحمل نظراتهما إليّ أي إحساس بالود أو التشوق لمعرفة ابنة خالهما، كانت نظرات باردة لقريبة لا تشبههما شكلا، وربما يستقرئان أنهما لن تنسجما معها فكريا أو سلوكيا. أما عمتي فقد غمرتني بلطفها ومحبتها، وعبّرت عن سعادتها لقرارنا الذي كانت تنتظره منذ سنوات، وهي ترى بشائر خير في هذا القرار، وأكدت أن ابنها بسام وأبا بسام سيأتيان لزيارتنا قريبا، وبعدها نحن مدعوون

لقضاء يوم كامل في الشاليه عندهم. تحدثنا كثيرا وتذكرنا ذكريات كندا، وبذلت قصارى جهدي في محاولة التقرب من ابنتي عمتي، وسألتهما عن حياتهما، وعن الكويت وكيف يمكن أن أرتب حياتي لأنسجم مع المجتمع الجديد، ولم أتردد في التصريح بحاجتي إلى مساعدتهما في كسر حاجز الغربة مع الناس والبلد. في الحقيقة، لم تكن حاجة حقيقية بقدر ما هي اختلاق طريقة لأتقرب منهما، وأقرّبهما إليَّ.

مرت الأيام، وبدأت أتعرف إلى الكويت شيئا فشيئا، وأصبحت علاقتي مع بيت عمتي ممتازة، وعندهم تعرفت إلى ابن عمي بدر، هذا الشاب الوسيم الخجول المحترم المتخصص في هندسة الديكور الذي يشترك معي في عدة هوايات، مثل: القراءة والسباحة وتصفح الإنترنت.

أما باقي أفراد العائلة فظلوا رافضين التعامل مع أمي ومعي، ولكن هناك علاقة بينهم وبين أبي، وللأسف غالبا مشوبة بالتوتر.

مرت الأيام، وبدأت أتأقلم مع كل شيء، تعرفت إلى العادات الاجتماعية والتقاليد، بدأت أتعلم فنون الطبخ الكويتي وحتى الخليجي وهي سهلة لقلة تنوعها، اشتركت في النادي الرياضي، وواظبت على المشي في الممشيات وعلى الشاطئ في الواجهة البحرية، والأهم من ذلك أنني

تعلمت قيادة السيارة على الرغم من أنني واجهت صعوبة وخوفا، واستغرقني الأمر أكثر من ثلاثة أشهر حتى تمكنت أو بالأحرى تجرأت على قيادة السيارة وحدي في شوارع الكويت. استخدمت سيارة البيت، وكان السائق يمشي خلفي يقود سيارة لوالدي تحسبا لأي كارثة أتسبب بها خصوصا وأنّ شوارع الكويت دائما مزدحمة.

لكن كما العادة، فالبداية دائما صعبة في أي موضوع، وبعدها تصبح كل الأمور سهلة يسيرة.

كنت أقضي وقتي الزائد في القراءة، وتصفح النت، ومقابلة أصدقائي أونلاين، وهل من سارق للوقت أبرع من التواصل على السوشيال ميديا!!!!

لكن هذا لم يوقفني لحظة عن التفكير برسم مسار جدّيّ لحياتي وضرورة إثبات وجودي، ليس فقط من أجل نجاحي الشخصي، ولكن لرغبة خفية في إثبات ما تم اختصاره في بيت شعر: "لا تقل أصلي وفصلي إنما أصل الفتى ما قد فعل".

حسنا، هناك نوع خفي من التحدي، سببه إهانة غير مباشرة تجسد في رفضي من قبل أقرب الناس إلى قلبي ودمي، ولسبب أجهل عمق تأثيره، ما هي الكارثة في أن تكون أمي من دين وجنسية مختلفين؟ وماذا عن كونها امرأة متميزة بين ملايين النساء؟ وما ذنبي أنا التي أحمل

اسم أبي واسم عائلته؟ هل من المعقول أن يحكم على الرجل بالزواج من ابنة عمه أو إحدى فتيات العائلة أو القبيلة فقط إرضاء للتقاليد والعادات وبعض المعتقدات ذات التبريرات غير المقنعة؟ علميا، زواج الأقارب له الكثير من العواقب السلبية، واجتماعيا قد تستمر الكثير من الزيجات الفاشلة فقط إرضاء للعائلة وحفاظا على سمعتها، ومن يدفع الثمن في هذه الحالة؟ بالدرجة الأولى، ستدفع الزوجة أغلى ثمن ومن بعدها الأولاد. نحن لا نعيش فقط إرضاء لغيرنا، فمن حقنا أن نعيش حياتنا كما يناسبنا ويرضينا من دون تجاوز الخطوط الحمر الأخلاقية، وأبي وأمي لم يرتكبا خطأً جسيما يستحق كل هذا العقاب والمعاملة التي إلى حد ما يمكن وصفها بالمهينة. أحبا بعضهما، وهذا الحب لم يخلق من لا شيء، فهناك قواسم مشتركة كثيرة بينهما، أهمها القواسم الفكرية والعاطفية. وأكبر دليل على نجاح تجربتهما هو استمراريتها لمدة ثمانية وعشرين عاما من دون مشاكل تذكر. زواج مليء بالحب والتفاهم والتشارك. زواج ثماره ابن وابنة حصلا على أحسن تربية وأعلى تعليم. زواج حافظ على علاقات اجتماعية متعددة ومحترمة إلى أبعد حد. أتساءل أين المشكلة في هذا الزواج، ونحن في القرن الواحد والعشرين؟ فعليّا، أبي لا يزال شخصا يحمل اسم عائلته ويشرفها. رجل ناجح مهنيا واجتماعيا وعلميا وثقافيا، وأعتقد أن نسبة كبيرة من سر نجاحه هو وجود

أمي في حياته، وهل يحتاج المرء أكثر من شخص محب عاشق في حياته ليحلّق عاليا في نجاحه وسعادته!!

***

أمي هي مدرستي في هذه الحياة. وأحد أهم الأشياء التي تعلمتها من أمي هو تنظيم الوقت وتحديد الأهداف، وهي تذكرني دائما بوضع خارطة طريق توفيرا للوقت والجهد. ما أروعها من امرأة! كيف لها القدرة على الجمع بين الحياة الرومانسية والحياة العملية وبتوازن مطلق؟!

جلست معي يوم أمس جلسة مطولة تشبه بداية العام الدراسي بعد عطلة طويلة، وناقشت معي أمورا عديدة، وأبدت ارتياحها لانسجامي مع الحياة الجديدة المختلفة كليا عن حياتي السابقة، وصارحتني بمخاوفها من عدم تقبلي للبيئة والمجتمع ونمط المعيشة، وذكرتني بضرورة التفرغ لموضوعين أساسيين ألا وهما العمل والزواج، والاهتمام بتحقيقهما مع التأكيد على موضوع العمل أولا، وبعده يأتي التفكير في موضوع الزواج. فهي ترى أن انخراطي في العمل ومع أشخاص مختلفين سيساعدني على اختياري شريك حياتي، وخصوصا أنها تعلم أني لست في علاقة حب. لأمي وجهة نظرها في اختيار شريكي، ووعدتني أنه سيكون لنا أحاديث مطولة في هذا الموضوع، أما الآن فهو دور والدي في تأمين عمل مناسب لي، وأخبرتني أنها

ناقشت الموضوع معه، وهو أيضا مؤمن بضرورة العمل لعدة أسباب وليس من أهمها الراتب الشهري؛ لأن وضع والدي المادي يمكّنه من دفع مرتبي من جيبه شهريا من دون أن يشكل أي فرق في ميزانيته.

بعد مرور أيام، وبعد عودة أبي من عمله، أخبرني أن أجهز سيرتي الذاتية لتقديمها لمدير الموارد البشرية في إحدى شركات صديقه أبو عبد العزيز الذي سبق أن التقيناه في المطعم، وسيحددون لي موعدا للمقابلة، وأكمل ضاحكا: "لا تخافي عزيزتي، سأتوسط لك عنده".

- ربما يطلبون خبرة، وأنا خبرتي لا تتجاوز سنة واحدة.

- لا تقلقي، أيتها الجميلة. لديك كل المؤهلات المطلوبة شهادة ماجستير في الهندسة المعلوماتية، ولغة انجليزية، ولغة فرنسية، وشخصية لافتة. أعتقد أنهم يحتاجون إلى تفصيل وظيفة جديدة معدلة لترتقي إلى مواصفاتك (you are overqualified dear) هههههههه.

- ولكن أمل أنت تحتاجين فقط إلى القليل من الجرأة. أنت فتاة خجولة وبريئة، ومجال العمل يحتاج إلى إثبات وجود ومرونة، وأنا أمك أعرفك جيدا.

- المعروف أن العمل في شركات أبو عبد العزيز ليس سهلا، ولكنك ستكتسبين خبرة ومهارة عاليتين، وأيا يكن

الأمر فهناك فترة تدريب ستتمكنين خلالها من إتقان أي مهمة توكل إليك، أنا واثق بذلك.

ذهبت إلى المقابلة، وجرى كل شيء بمهنية عالية، ولم يتهاون مدير الموارد بالأسئلة وكأنه لا يعير اهتماما لتوصية أبو عبدالله أو ربما يحسب له ألف حساب؛ لذلك لم يتجرأ على أن يهمل أو يقصّر في عمله وبخاصّة معي!!

أنا أقدر مهنية العمل، فأبي مثلا قال لي إنني لا أنفع للعمل معه؛ كون شركته عقارية، وتخصصي أنسب في شركات التكنولوجيا، وأنا أحترم رأيه وأعتبر هذا أحد عوامل النجاح والكسب للشركات.

لم يستغرق الموضوع بضع ساعات بعد إنهاء المقابلة ليتصل بي أبي ويبارك لي قبولي في الوظيفة، وهنا عرفت أن مكانة أبي عند أبو عبدالله مهمة، يبدو أنه بمقابلة أو من دونها كان سيقبل بتعييني في إحدى شركاته.

كم هو جميل أن تشعر أن لك وطنا ولك سندا وعزوة ومكانة، أن تشعر أنك مالك المكان ولست ضيفا، أن تشعر بطمأنينة وسكينة وسلام داخلي! ألهذه الدرجة كان ينقصني الاستقرار؟! كنت مكتفية بأمي وأخي وبعض الأقارب والأصحاب في بلد ولدت ونشأت فيه، ولكن في قرارة نفسي أعلم أنه ليس بلدي، ومن ناحية أخرى أعلم أني ممنوعة من دخول الكويت بعد قرار جدّي والتزام

أبي بهذا القرار، فقد رفض جدي زواج أبي وأمي، ونتج عنه استقرار أبي في كندا لمدة اثنتي عشرة سنة لم يدخل فيها الكويت إلا في بداية زواجه عندما بلغه أن والدته ستجري عملية جراحية ونسبة الشفاء لا تتجاوز 10 بالمئة، ولكن قدّر لها الشفاء، ولم يرَ فيها أحدا من أهله سوى عمتي إقبال عندما أتت لزيارتنا. وعندما بلغه بعد اثني عشر عاما أن جدتي مريضة جدّا وتطلب رؤيته، لم يرفض طلبها هذه المرة وسافر إليها فهو الحنون ذو القلب المرهف، وطالت فترة بقائه في الكويت. جدتي تحسنت صحتها، وجدي ومن تبقى بذلوا قصارى جهدهم لإقناعه بترك كندا ومن فيها، وتتالت المحاولات بكل أشكالها، والعروض بكل ألوانها؛ ومن بينها زواجه من إحدى بنات عمه أو من أخت زوجة أخيه والتي كانت خطيبته قبل تعرفه إلى كاترين، وهي تتكفل برعاية ولديه من دون أن يدروا أن أمي من حقها احتضان الأولاد فهي تمتلك الجنسية الكندية، وتخضع للقانون الكندي، ولكن أبي مدرك تماما هذا الموضوع وتذرع به حجة للرفض، فهو لا يستطيع العيش من دون ولديه. وعند رفضه الزواج بثانية وإنجاب أولاد من أم وأب كويتيين مسلمين، ثار غضب جدي وتوعّد بأشياء كثيرة لم يخفف منها سوى توسُّل جدتي، والوصول إلى حلّ وسط ألا وهو أن يعيش أبي بين الكويت وكندا، وألّا تدخل أمي وولداها الكويت

طالما جدي على قيد الحياة.

لم ترفض أمي القرار، بل أكدت لأبي أنها ستبقى معه محبة مخلصة وأما رائعة لولديه، وأن بإمكانه استلام فرع الشركة الكندية الجديد التي يعمل فيها الذي تم إنشاؤه مؤخرا في الكويت، وهكذا يستطيع البقاء قريبا من أهله وقريبا منّا، ويكون حلّا مرضيا للجميع. بالطبع، لم يكن من السهل علينا التأقلم مع غياب أبي عنا أحيانا لمدة شهور، ولكن أمي لطالما خففت عنا، ووعدتنا أنه يوما ما سيلُمّ شمل عائلتنا إلى الأبد، ولطالما تساءلت ما الذي يجبر أمي على قبول هذا الشكل من الحياة الزوجية؟!

مرت سنة، وتوفيت جدتي، وبعدها باثنتي عشرة سنة توفي جدي رحمهما الله. وهنا أدركت حكمة أمي وعقلها، فهي لم تحرم زوجها من أبويه، ولم تحرمهما منه، ولم توصل أبي إلى مرحلة يجد نفسه فيها مضطرا للاختيار بينها وبين عائلته، وهكذا استطاعت أمي أن تحظى بمكانة عند أبي تفوق كل التخيلات.

كان أبي ناجحا جدا في عمله، واستطاع أن يبني لنفسه مكانة مميزة في عالم البزنس. كل حياته كانت تسير بشكل رائع إلا موقف عائلته الشديد من زواجه، واستطاع تجاوزه نسبيا بحسن معاملته وطاعته لهم.

بعد وفاة جدي بسنة، بدأ أبي بالتفكير جديا بالاستقرار

في الكويت، وبدأ بالاستعدادات والتجهيزات اللازمة التي استغرقت أكثر من سنة، ولم أرفض أنا أو أمي، ولكن من عارض بشدة كان أخي، وهنا كانت المفاجأة. رفض أخي العودة إلى الكويت، وكأنه ينتظر الفرصة ليرفض، ويُعبر عن الألم الذي كان يعيشه عندما رفضتنا عائلتنا الكبيرة في الكويت، وقال أنا أدرس في فرنسا، وبعد التخصص سأعمل وأستقر هنا، ولتكن لقاءاتنا في فرنسا عندما تسنح الفرص.

***

أول شخص أحببت أن أشاركه فرحتي بالوظيفة بعد أبي وأمي هو بدر ابن عمي.

- ألو، كيف حالك بدر؟

- هلا وغلا بنعمة. الحمدلله، بخير. وأنت كيف حالك وكيف تمشي الأمور معك؟

- الحمدلله، كل شيء ممتاز. وعندي خبر سعيد.

- قولي بسرعة ما هو؟

- قُبلت في الوظيفة، وسألتحق بالعمل خلال أسبوعين من الآن.

- ألف مبروك. تستحقين كل الخير، وأنا أستحق حلاوة

الخبر هههههه.

- بالتأكيد. استعد، فأنت مدعو على أنخم كيكة في الكويت.

- ولكن...

- ماذا؟

- إن شاء الله فسأحاول. قالها على استحياء.

- بدر، هل تتردد في الخروج معي. أنت ابن عمي وصديقي الوحيد هنا.

- حسنا، حددي المكان والزمان، وأنا صاحب الدعوة.

- هههه لا فرق بيننا، بدر.

أنهيت المكالمة، وأنا أشعر بشبه خيبة، فقد فهمت الآن صعوبة العلاقة بين شاب وفتاة، في كل مرة تحكمني العادات والتقاليد في صغائر الأمور وأكبرها، أتساءل إلى متى سأبقى من دون أصدقاء، من دون أقرباء، من دون علاقات اجتماعية؟ هل من المعقول أن أعيش في عزلة لا أصدقاء دراسة ولا صديقات جيرة؟ لا بد من خلق جو يسليني ريثما أبدأ العمل، فالعمل سيشغل الكثير من وقتي بلا شك.

حسنا، يا نانا لِمَ لا تدخلين مواقع تعارف؟ فلا بد أن

هناك كثيرين مثلك لديهم ظروف خاصة، ويشعرون بالوحدة، ويبحثون عن أصدقاء. راقت لي الفكرة، وبدأت فعلا بالبحث عن مواقع، وحرصت على أن أحدد نطاق بحثي ضمن الكويت، فهدفي الحصول على أصدقاء حقيقيين لا تضييع الوقت في المحادثات غير المجدية.

وجدت عدة مواقع معظمها مواقع بحسابات وهمية، وإلى حد ما غير محترمة. تابعت البحث إلى أن وجدت موقعا يدعى (shadow) فيه أعداد كبيرة من المستخدمين، وكل مستخدم بملف تعريفي كامل، موضح فيه كل التفاصيل والاهتمامات والمعلومات الشخصية والهدف من التسجيل. لم أتردد في فتح حساب لي، ولكن للأمانة غيرت بعض المعلومات تحسبا لأي خطأ قد يحدث، فأنا أعلم كم من الأشخاص المزيفين وربما السيئين المسجلين على هكذا مواقع.

طبعا، لم أضع صورة، ولم أدخل باسمي الحقيقي، وقلت في نفسي عندما أتعرف إلى أشخاص صادقين وجديرين بالصداقة أعرّف بنفسي، ومن يستخدم مواقع التعارف يقدر هذه الأمور جيدا.

كان اسمي الجديد "أمل".

وبمجرد فتح الحساب، انهالت طلبات الصداقة من عشرات المستخدمين، وامتلأت صفحتي بعشرات الورود

والوعود، والطلبات كانت من بنات وشباب، ولكن طبعا طلبات الشباب أكثر.

أول رد مني كان لفتاة طلبت صداقتي، وكنت سعيدة لهذه البداية الموفقة، وبدأنا بحديث لطيف، وانتهينا بجرعة زائدة من اللطف من قبلها أحدثت فيّ صدمة كبيرة، استدعت حذف حسابها على الفور، نعم أنا وضعت في اهتماماتي الشباب والبنات، ولكن قصدي صداقة، فكيف تكون علاقتي ببنت مثلي أكثر من الصداقة؟ مجرد التفكير في هكذا موضوع أشعرني بحالة من الغثيان، جعلتني أقفل اللابتوب وأخلد إلى النوم.

في اليوم التالي، اتصل بدر:

- مرحبا، نعمة. كيف حالك؟

- أهلا، بدر. الحمدلله بخير، ما هذه المفاجأة الجميلة؟

- أرجو أن تكون جميلة حقا.

- وأجمل مما نتوقع. كنت أعتقد أنني سأتناول الكيك وحدي ههههه.

- لا لا، لن أسمح للكيك بأن يستفرد بك.

- ماذا؟

- أقصد لن أسمح لك بأن تستفردي بالكيك وحدك، لا

أعتقد أنك بخيلة، فلا أحد من عائلتنا بخيل.

- بدر، هل حقا تعتبرني واحدة من العائلة؟

- ما هذا الكلام، نعمة؟ طبعا أنت واحدة من العائلة، بل أهم وأجمل شخص فيها.

- أشكرك، بدر، أنت لطيف حقا.

- المهم، هل أنت فاضية غدا بعد الظهر؟

- أجاوب بدهشة، نعم، فاضية.

- مممم ما رأيك أن نخبر دلال وملاك، ونخرج معا للاحتفال بوظيفتك الجديدة؟

- فكرة رائعة، ولكن لمَ لا نجعلها عند المساء؟ فللمساء سحره الخاص.

- ولكن أخشى ألّا يسمح لك والداك بالخروج والعودة في وقت متأخّر من دونهما.

- لا عليك، لن يقولا شيئا، ثم إنني معكم، لست مع ناس غرباء.

- اتفقنا، سأخبر ابنتي عمتي.

- شكرا، بدر، أراك غدا.

- إن شاء الله.

- باي.

- باي.

في هذه اللحظة، عرفت معنى الغبطة، وشعرت بها، وأسرعت إلى أمي لأخبرها، فلم تبدِ أي ردة فعل، وقالت افعلي ما يجعلك سعيدة، ووالدك سيرحب بالفكرة.

في الحقيقة، لم يرحب أبي كثيرا بالفكرة، وبرر ذلك بمخاوفه من ردة فعل عمي؛ لأن عمي لن تسعده العلاقة الطيبة بين ابنه وابنة كاترين في حال علمه، وفي حال عدم علمه، فالحال أسوأ.

وهنا تدخلت أمي قائلة:

- الصغار لا ذنب لهم بمواقف الكبار، ويجب أن يكسر حاجز الجليد عاجلا أو آجلا، وأعتقد أن خروجهم جميعا سيساعد في تقريب وجهات النظر، طالما القرار أن تعيش نعمة وتستقر في الكويت، فيجب أن تعيش بعلاقات طيبة مع أقاربها.

- كلامك صحيح أم فيصل، ولكن لا نتوقعوا ترحيبا من أبي بدر وعائلته بالفكرة.

- بابا، نحن كبار ومسؤولون عن تصرفاتنا، وكل شيء يبدأ بمحاولة.

- حسنا يا بنتي، سعادتك وراحتك هما أولى أولوياتي. غدا سأوصلك وأرجعك بنفسي، وسأحجز لكم مكانا يليق بكم.

- شكرا أبي. أنا سعيدة حقّا لأنني سأخرج معهم.

عندما وصلت إلى المطعم، كانوا جميعهم بانتظاري، وقضينا وقتا جميلا حقا، اكتشفت أثناءه أنهم جميعهم طيبون، وغير راضين عن الأفكار التقليدية التي تتحكم في قراراتهم وحياتهم، ولكنهم مطيعون طاعة عمياء لما وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم.

- أنا سعيدة لوجودي معكم اليوم، وأقدّر قدومكم وخاصة أنت يا بدر.

- مع الأيام، كل شيء سيصبح أفضل، فوجودكم في الكويت أصبح أمرا واقعا، ويجب على كبار العائلة أن يتقبّلوا هذا الوجود ويرحِّبوا به. قال بدر.

- وكأنك لا تعرف موقف العائلة، وبالذات موقف خالي زهير. احمد ربك إن علم بوجودك هنا، ولم يطردك اليوم من البيت. قالت ملاك.

- ولماذا يطردني؟ إن لم أخبره اليوم فسأخبره فيما بعد. أتفهّم قرار المرحوم جدي، ولكن ليس لأبي وباقي أفراد العائلة أي عذر في مقاطعة بيت عمي أبو فيصل.

- أنت تعلم أن أمي دفعت الثمن غاليا لأنها تحدت قرارهم، ولولا قوتها وتفهم أبي للموقف، لكنّا في حال يرثى لها. قالت دلال.

- وما ذنبي أنا في كل ما حصل وما يحصل؟ أشعر بالحرج إن كنت سأتسبب بأي مشكلة لكم، ومرة ثانية أنا آسفة حقا يا بدر.

وبلا شعور، وضعت يدي على يد بدر، لأشعره بمدى امتناني لموقفه، فشعرت بارتباكه وخجله، فسحب يده، ووضعها على فمه بحجة أنه يسعل، واحمرّ وجهه، فأدركت لحظتها كم هو خجول، وكم هو مراع الأصول والعادات.

وتداركا للموقف، قلت لهم لنغيّر الموضوع، ونستمتع بما تبقى من هذه الكيكة اللذيذة قبل أن يصل أبي. في هذه اللحظة، رأيت ملاك تنظر إليّ نظرة غريبة لم أستطع تفسيرها وقتها، واكتفيت بوضع قطعة إضافية في صحنها وأخرى في صحن دلال.

- شكرتني دلال، وقالت إن عليها الذهاب كي لا تتأخر على أولادها، وستوصل ملاك في طريقها إلى بيت أهلها، فقد أتوا في سيارة واحدة.

اتصلت بأبي لأعرف أين هو، على الرغم من أن بدر عرض أن يوصلني، فقلت له إنّي أطمع بقضاء وقت على

البحر مع أبي.

جلست أنا وبدر وحدنا قرابة ربع ساعة، تحدثنا فيها عن أشياء عامة، وتحدثنا عن أخي فيصل وعن بعض الكتب حتّى وصل أبي.

سلم أبي على بدر، واعتذر عن التأخير بسبب ازدحام الطريق، ولكن بدر قاطعه قائلا:

- عمي، نعمة في عيوني، وراحتك مهمة عندي. في المرة القادمة، اسمح لي وأنا سأوصلها إلى البيت.

- لا مانع عندي، ولكن الأفضل لها أن تتجرأ وتقود سيارة وحدها، ودوركم أنتم أن تشجعوها.

- حاضر عمي، كوني جاهزة يا نعمة خلال الأيام القادمة، سأتفرغ لهذا الموضوع، وعندما تبدئين الدوام، ستستغنين عن السائق وستشعرين بضرورة السيارة ومتعة قيادتها في كل لحظة.

- شكرا بدر. نبقى على اتصال، والآن تصبح على خير.

انطلقت أنا وأبي باتجاه شارع الخليج، ونزلنا نتمشى على الشاطئ، فالبحر جميل في كل أوقات السنة.

بعد وصولي إلى البيت، وإذا برسالة من بدر يقول فيها: "كان وقتا ممتعا، وكنت جميلة مثل القمر".

فأرسلت له: "أنتم من أضاف المتعة إلى الوقت وإلى حياتي. تصبح على خير".

***

استلقيت على سريري، وفتحت حسابي على" شادو"، ويا لهول المفاجأة وصلتني مئة واثنتان وثمانون رسالة!

بدأت بقراءة هذه الرسائل، منها اللطيف ومنها السخيف ومنها بلا حياء ومنها الصريح، ومن بين كل هذه الرسائل رددت على سبع فقط، ولكن يبدو أن الناس متعطشّون لقصص حب وغرام وإطفاء نيران، أشعلتها قيود المجتمع والأجواء المكبوتة التي لا مخرج منها إلا على شبكات النت، فالموبايلات وأجهزة اللابتوب أكثر أمانا وانغلاقا، وتمكن المستخدمين من التعبير عن مشاعرهم ورغباتهم بحرية مطلقة، فلا أحد يراهم ولا أحد يحاسبهم أو يقول لهم إياكم وتجاوز حدود العادات، فالمجتمع لا يرحم من يخرج عن تعليماته.

ليس لي الحق في مطالبة الأصدقاء بذكر أسمائهم الحقيقية أو إرسال صورهم الشخصية، فأنا أستخدم اسما مستعارا، ولا أضع صورة، ومعلوماتي غير كافية للتعرف، ولكن يبدو أنها غير مهمة، وأنه يكفي أن تكتب "أنثى" لتجد مئات الرسائل!

بدت محاولتي في إيجاد أصدقاء أونلاين خطوة فاشلة، وهممت بإلغاء ملفي؛ فلا فائدة من إضاعة الوقت أو قبول رسائل بعضها غير محترم وبعضها الآخر مملّ وغير مناسب. في تلك اللحظة، وإذا بباقة ورد حمراء تظهر في صندوق الوارد، يليها ايموجي وجه مبتسم، فأجد يدي تتراجع عن زر إلغاء، وتكشف عن رسالة ثالثة مكونة من كلمة من حرفين جعلت شيئا ما يتحرك في أصابعي ويجيب: "Hi".

الفصل الثاني

أتذكر إحدى المرات عندما زارنا في البيت العم عبد الله صديق والدي، بعد أن كان قد تزوج وأنجب صبيانا وبناتا، واستقر في الكويت منذ تسع سنوات، ولكنه قدم إلى كندا في عمل وكان بمنزلة عمّ حقيقي لنا. سعدنا جدّا بوجوده معنا، فهو أكثر شخص مقرّب لنا، ويعرف تفاصيل حياتنا كفرد من الأسرة، وكان سعيدا جدّا لرؤيتي شابة جميلة متخرجة في الجامعة، وأحضر لنيل درجة الماجستير، تحدث إلى أبي وأمي في أمور كثيرة خاصة وعامة، وأضاف قائلا:

- كل الأمور التي وكلتني بها في الكويت تسير بشكل ممتاز، وفترة وجودك في كندا لم تؤثر في شيء، ولكن بقي موضوع واحد.

- ما هو؟

- بعض الأوراق تحتاج إلى وجود كاترين شخصيا في الكويت لتوقع عليها، فأنت تعلم الإجراءات الروتينية وخصوصا أن زواجك قد حصل في كندا وليس في الكويت.

- لكن عبد الله، أنت تعرف مدى صعوبة الأمر، ولستَ غريبا عن موقف العائلة. كاترين لا يمكن أن

تدخل الكويت.

- أعلم، ولكن أنا لا أقول أن تنزل وتستقر في الكويت.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنّ كاترين تحمل جواز سفر كنديًا، ولا مشكلة في دخولها الكويت، سافرا معا يومين إلى الكويت لتوقّع على الأوراق، وعودا بسرية تامة، فليس من الضروري أن يعلم أحد بالموضوع.

نظر أبي إلى أمي، وكأنه يسألها عن رأيها، فلم ينتظر طويلا، فقد كان رد أمي حاسما:

- كلام عبدالله صحيح، وأنا جاهزة للسفر، وكل ما أفكر فيه هو نعمة، كيف سأتركها هنا وحدها عدة أيام؟ فأخوها وخالها في فرنسا، وخالتها وجدّها في سوريا.

- لا داعي للقلق، قال العم عبد الله، إذا كنتما جاهزين للسفر خلال هذه الأيام، فأنا موجود، وسأهتم لأمرها حتى تعودا. والآن، دعنا نخرج قليلا، لديّ شيء يجب أن أنجزه اليوم.

كان عليهما أن يتخذا قرارا سريعا في هذا الموضوع، وهنا خمنت أن أبي وأمي يخططان للعيش في الكويت مستقبلا، وهما يقومان بكل الإجراءات لتكون أمورهما نظامية وجاهزة إذا ما سنحت لهما فرصة العودة. وأنا،

أنا الوحيدة التي لا قرار لها، لم يسألني أحد عن رأيي؛ ماذا أريد أو أين أفضل أن أستقر. فيصل اتخذ قراره بدراسة الطب في فرنسا، وساعده على ذلك استقرار خالي هناك، وعمله طبيبا مشهورا في أحد أهم مشافي فرنسا ولم يعارضه أحد؛ فهو رجل مسؤول عن نفسه وعن قراره. أبي وأمي تزوجا بقرار منهما لحماية حبهما ومستقبلهما، ولم يأبها لقرار جدي والعائلة. وأنا، أنا الوحيدة التي لا قرار لها، حتى تخصصي في الجامعة كان اختيار أبي وأمي وليس اختياري.

سألتني أمي:

- بماذا تفكرين حبيبتي؟

- لا شيء. إن كان سفرك ضروريا فلا بأس؛ أنا أستطيع أن أدبّر أمري هنا، لا تقلقي.

- ستفهمين كل شيء في وقته، نانا. كل ما نفعله لأجلك ولأجل أخيك فيصل، ولأجل أن نحيا حياة سعيدة معا.

- لديّ عطلة الآن، وسأحضّر للامتحانات القادمة، وسيؤمن أبي ما أحتاج إليه من أغراض، يعني لن أكون بحاجة إلى شيء.

- سنوفر كل شيء قبل سفرنا، وعندما تحتاجين إلى أي

شيء، عمك عبدالله موجود، فقط اتصلي به. لن نغيب أكثر من أربعة أيام.

لن أخبرك يا أمي كم أنا خائفة، ولا أستطيع التعبير عن إحساسي لمجرد أن أفكر في أنك ستغيبين عني، لم أعتد غيابك، ولا أتخيل البيت من دونك، فهذه هي المرة الأولى التي ستغيبين فيها عن البيت، إذا لم أعد تلك الفتاة المدللة الصغيرة، فأمّي تراني كبيرة الآن، وربما تختبر قدرتي على تحمل المسؤولية في غيابها، فأنا أدرى الناس بها، إذ إنها لا تستطيع تحمل غيابي عنها ساعات، ولكن هو تفكير كاترين العاقلة الحنون الملتزمة الحرّة القويّة الطيّبة.

عاد أبي وحده، وقال إن العم عبدالله سيأتي لاحقا.

وقال لي أبي: "ليس لدينا خيار آخر، وأعدك أننا لن نتأخر، وسيتولى عمك عبدالله أمورك وكأنني موجود".

التفت إلى أمي، وقال لها: "سنسافر بعد غد الأحد، لنكسب أيام الدوام في الكويت".

- غدا صباحا، نخرج لشراء كل ما يلزم لنانا، حتى لا تضطر إلى الخروج في غيابنا".

- نعمة أصبحت شابة، وتستطيع الاعتماد على نفسها وحتى الاعتناء بغيرها، هل عندك رأي آخر، نعووومتي؟

- لا تقلق يا أبي، كل شيء سيكون على ما يرام.

كان يوما صعبا عليّ وعلى أمي، ونحن نتهيأ للوداع، ولكن أول أشكال التأقلم مع الواقع هو قبوله.

ذهبت أنا والعم عبد الله لإيصالهما ووداعهما في المطار، بعدها أعادني إلى المنزل، وطلب إليّ أن أنام وأرتاح وأن أستغل الوقت في الدراسة والتحضير، وقال إنّه سيتصل لاحقا للاطمئنان.

للمرة الأولى في حياتي، بقيت وحدي في البيت. لا أستطيع منع نفسي من البكاء. عائلتي هي عالمي الداخلي والخارجي، لدينا أصدقاء وعلاقات ولكنها محدودة؛ محدودة لأسباب واضحة وواقعية. الناس هنا يلتقون في المناسبات الاجتماعية والدينية والعائلية، وأما بالنسبة إلينا فنحن حالة استثنائية اجتماعيا ودينيا وعائليا. اختلاف المناسبات بين كويتي وسوري، ومسلم ومسيحي، ومتحرر ومحافظ، يخلق بشكل غير مباشر نوعا من الانكماش، يتلوه نوع من العزلة ولا عتب؛ فنحن محكومون بتقاليد ومبادئ ومعتقدات لا تستطيع كندا تبديلها. ومن هنا، أصبحت الرابطة العائليّة في أسرتنا قويّة جدا، فحاجتنا إلى بعضنا أضافت سببا قويا آخر لنكون أسرة متماسكة متحابة وناجحة.

***

لم أعش حياتي مثل باقي الفتيات في سن المراهقة، ولم أخرج وأسهر وأكوّن صداقات مع كلا الجنسين. أخرج مع أهلي، وأسافر معهم، وأكتفي بهم؛ لأنهم منحوني كل ما قد أحتاج إليه من حب وحنان وصداقة. أقضي وقتي في الدراسة وتعلم اللغات وممارسة بعض الهوايات، وفي العطل الرسمية نسافر إلى بلدان أخرى. حياتي خالية من أيّ مغامرات تذكر، ومن أي أخطاء وحتى من أي مشاكل. وخلال سنوات الجامعة، لم أتجرأ على الاستجابة لإعجاب أحد من زملائي، أو السماح لنفسي أن أعيش قصة حب مثل زميلاتي في الجامعة، رغم امتلاكي مواصفات تجعلني أخطف الأنظار ومحط إعجاب لكل من يراني.

اليوم أشعر بوحدة مؤلمة، وحدة من فقد كل شيء في الدنيا، وأكتشف أن أمي وأبي وأخي هم كل شيء لي في الدنيا. يعاودني الخوف نفسه الذي أحسست به عندما سافر فيصل للدراسة، الإحساس بالفراغ والخسارة معا. بعد سفر فيصل، أصبت بحالة اكتئاب استمرت شهورا، فلم أستطع الاعتياد على فكرة غيابه فهو الأخ والصديق المتفهم والحنون. أحسست بفراغ لا يستطيع أن يملأه نصف سكان العالم، ولا أن يشغله النصف الباقي!

وقفت أمام النافذة لوقت طويل أبكي بكاء من فقد،

وليس بكاء من ودع في المطار. وسؤال بدأ يأكل نفسي؛ ماذا سأفعل لو حكم عليّ أن أكون وحدي بلا عائلة؟!

وقبل أن أجد ردًا على هذا السؤال، رن الموبايل وكان عمي عبدالله.

- ألو. نعمة كيف حالك الآن يا ابنتي؟

- أحاول أن أكون بخير.

بدأت بالبكاء.

- لا، يا نعمة، أعرفك قوية وعاقلة، وغيابهما لن يستغرق أكثر من أيام. لا تجعليني أقلق عليك.

- لا أتخيل غيابهما عني معا.

- أعلم وأفهم ما تشعرين به، ولكن الآن اغسلي وجهك واشربي شيئا دافئا، وكل شيء سيكون على ما يرام.

- حاضر. شكرا لك.

- لا داعي للشكر، ولا تترددي في الاتصال في أي وقت. وغدا سأنهي أعمالي، وآتي لاصطحابك لنتناول الغداء في مطعمك المفضل.

- أعدك أني سأكون بخير، وسنبقى على اتصال.

- إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

في اليوم التالي، اصطحبني العم عبدالله لتناول الغداء، وبذل قصارى جهده ليخفف عني ويخرجني من جو الحزن الذي كنت أعيشه، وفعلا له طريقة مميزة ومؤثرة جعلتني أرى الأمور من ناحية أخرى، ولم يتركني إلا عندما أصبحت حالتي أفضل بكثير. فعلا عدت إلى المنزل بمعنويات مرتفعة وهمة عالية، وبدأت بالدراسة والتحضير، وواظبت أمي على الاتصال بي لتطمئنَّ عليّ وتطمئنني أن الأمور تجري بشكل جيد وأن الكويت بلد جميل، وهوأجمل مما كانت نتوقعه. مر يومان، والأمور تسير بشكل جيد، وخرجت مرة ثانية مع العم عبد الله، وكنت في مزاج عال ونفسية مرتاحة، تحدثنا في أمور كثيرة، وبدأ يحدثني عن علاقته بأبي وعن ذكرياتهما المشتركة، فطلبت إليه أن يخبرني كيف ارتبط أبي وأمي بعد أن علم أبي أن كاترين مسيحية ومرتبطة بابن بلدها، فضحك وقال: "انتظرت كل هذه السنين لتطلبي إليّ إكمال الحكاية؟"

- لم أجد فرصة مناسبة لأسأل أحدا رغم أني متشوقة لمعرفة التفاصيل.

- إن كان هذا الموضوع يسعدك ويسليك فسأحكيه لك، على أمل أن تنشغلي وألّا تفكري بوحدتك.

بدأ بالحديث، كان حب فهد لكاترين غريبا ومن طرف

واحد، ولكن فيه من الإصرار ما لم أره عند غيره، ورغم علمه بارتباطها واختلاف ديانتها، ظل متمسكا بها، وكان يطلب إليّ دائما أن أوفر له فرصة للحديث والتعرف إليها. كانت كاترين مركز اهتمام الجميع؛ لشدة جمالها ورقتها في التعامل وذكائها في العمل، ولكنها كانت متعصبة لجنسيتها كثيرا، وتفضل الأشخاص السوريين على كل الجنسيات الأخرى دون مجاملات.

كانت ككل السوريين مجتهدة ملتزمة ومخلصة في عملها، لا تتدخل في شأن أحد، ولم تكن يوما سببا لمشكلة مع أحد، فحظيت باحترام الجميع ومحبتهم. في أحد أيام فبراير، قررت السفارة تنظيم حفلة صغيرة بمناسبة العيد الوطني، وكان من ضمن المدعوّين الطلبة الكويتيون الذين يدرسون في كندا، وكان عددهم قليلا جدا، وهنا كانت فرصة مناسبة ليتعرف فهد إلى كاترين.

***

في الحقيقة، إنّ ارتباط كاترين مع فادي كان له أسباب ودواعٍ مختلفة؛ بحكم وجودهما في بلد غريب، وعلاقة عائلتيهما الجيدة، وبالتأكيد كونهما من جنسية واحدة وديانة واحدة وبيئة واحدة، جعلت كل الأسباب مناسبة لارتباطهما. باختصار، كل شيء كان يجمعهما إلا شغف الحب.

- مرتبطان من دون حب؟

- هناك حب، ولكنه حب الصداقة والمعرفة ليس إلا. فادي ذو طبع حاد وغيور جدا ومتهور، وكاترين فتاة رقيقة طموحة، ولكن السبب الأقوى هو رغبة فادي في الاستقرار مع أهله في سوريا، وكان والد فادي قد أسس عدّة مشاريع هناك، ويهيئ فادي لاستلامها. لعله القدر الذي أراد الخلاف بين فادي وكاترين ليصل والدك في الوقت المناسب، في الحفلة تم التعارف ورحبت كاترين بفهد، وتمنت له وقتا ممتعا، ولم يضع الفرصة ليعبّر لها عن حبه للسوريين وعن إجازته التي قضاها مع أهله في سوريا منذ سنوات، وكم أحب تلك الإجازة، وبدأ يسألها عن الأماكن هناك وكأن الذكريات اشتعلت في قلبه فجأة، في الحقيقة كان أسلوبه جذابا، مما جعل كاترين تكمل الحديث معه، وتعده أنها ستهديه تذكارات من سوريا اعتادت أن تحضرها معها كلما أمضت إجازة هناك.

- تبدو قصة شيقة. ولكن عندما علم فادي، لا بد أنه كان سيجن.

- الحقيقة ليس فادي من جن فقط، بل والدك المحترم ههههه. لم يرحمني بعدها من الاتصالات والسؤال عنها وعن إمكانية أخذ رقمها، ولم يتوقف لحظة عن التفكير فيها. بدا عاشقا متيما مغرما بجمال هذه السورية الفاتنة،

وللحق لا ألومه فهي جميلة جدا. لا أنسى ذلك اليوم الذي زارني فيه بالسفارة بعد الحفل، ولا أنسى فرحة قلبه عندما أتت كاترين وسلمت عليه وأعطته قطعتين حجريتين إحداهما مجسم عن" معلولا" وهي منطقة سياحية أثرية في دمشق، وأخرى لوحة مكتوب عليها حروف تمثل الأبجدية الأوغاريتية في محافظة اللاذقية وهي مدينة ساحلية سورية، وبدأت تشرح له أنها أول أبجدية في التاريخ، وكيف أن سورية مهد الحضارات وبوابة إلى التاريخ، وكانت تتكلم بفخر وحب عميقين عن وطنها، وفهد ينظر إليها، ولسان حاله يقول هنيئا لبلد تتغزل به كاترين، ولم يستطع أن يخفي مشاعره التي كادت أن تغرقه، وقال بصوت خرج من عينيه قبل أن يخرج من شفتيه: "يكفي سورية فخرا أنها أنجبت هاتين العينين".

أحست كاترين بإحراج شديد، وتلعثمت في الكلام، فها هو رجل غريب يغازلها علنا وأمامي وفي مكان عملها، ولم أدرِ ما أفعل لأنقذ الموقف، ولكن فهد استطاع، وقف وقال: سأحتفظ بهذين التذكارين، وأعدك أني سأقرأ أكثر عن حضارة سورية، والآن اسمحوا لي يجب أن أغادر.

- هل قالت لك أمي شيئا؟

- الغريب أنها لم تقل، ذهبت إلى مكتبها وتابعت عملها.

- مذهلة في التحكم في ردات فعلها.

- وفي فعلها أيضا!

اتصل بي فهد يعتذر إن كان قد سبّب لنا إحراجا، وطلب رقم كاترين، ولكن بالتأكيد لم أعطه الرقم، فهي في ذلك الوقت كانت مجرد زميلة عمل، وطبيعة عملنا تفرض علينا شكلا من التعامل الرسمي، ولكنه لم يستسلم. وفي أحد الأيام بعد انتهاء العمل، كان ينتظر خارجا ويحمل بيده سلة ورد خلابة وفي أسفلها علبة مزخرفة جميلة، واقترب من كاترين وقال لها:

- أرجو أن تقبلي مني هذه الهدية المتواضعة، فهي أيضا تذكار من الكويت.

- وهل أحضرت هذه الورود من الكويت؟

- ههههه بالطبع لا، ولكن في داخل العلبة تذكار أرجو أن تتكرمي وتقبليه.

- بما أنه تذكار من الكويت أقبله بالتأكيد، شكرا جزيلا وممتنة للطفك.

- لم أستطع منع نفسي من السؤال، وماذا كان في داخل الصندوق؟

- ضحك عمي عبد الله، وقال لقد وضع والدك دهن العود وبعض البخور وقصاصة صغيرة كتب عليها "إن

أعجبك عطر الكويت، فبلغيني برسالة"، وكان قد كتب رقم هاتفه تحت العبارة.

- وهل أعجبها عطر الكويت؟

- ما رأيك، وأنت الآن ابنة فهد وكاترين؟!

ضحكت كثيرا، ونسيت حزني وفراغي، وكان الوقت قد تأخر، ولكنني حصلت على وعد بإكمال الحكاية.

في الليل، اتصلت أمي وأخبرتني أنّهما سيضطران للغياب يومين آخرين من أجل إنهاء بعض الأوراق، وتأكدت من صوت أمي أنها تمضي أجمل الأوقات، وربما كانت الأوراق مجرد حجة لتمضية أوقات في مكان هو موطن الحبيب حيث يُشَتَمّ عطر العود والبخور الساحرة بشهيق طويل ومن منبعه.

قررت أن أدعو عمي عبد الله إلى الغداء، فأنا بارعة في إعداد البيتزا وسلطة الكول سلو، وقبل دعوتي بمحبة ورحابة صدر، وأمضينا وقتا رائعا أثنى فيه على تميزي بكل شيء، وكانت كلماته تزيد من ثقتي بنفسي وتشعرني بالتميز حقّا، وتزيل الحواجز إلى حد ما بيننا إلى درجة أنني سألته:

- هل يمكنني أن أسألك لماذا كنت ترفض فكرة الزواج في البداية؟

- رد ضاحكا، كنت أمارس حقي في الرفض، فحياتي كلها قبول.

- ههههههه إذا حياتك تشبه حياتي.

- حياتك جميلة نعمة، رغم ما يملؤها من استثناءات. على الأقل، أنت تعيشين في كنف أسرة محبة مترابطة وتنعمين بالدفء العائلي، أما بالنسبة إليّ فقد افتقدت هذا الإحساس وأنا في الثامنة من عمري، عندما قرر أبي وأمي الانفصال، وعشت في بيت جدي إلى أن تخرجت في الجامعة، وتوظفت في وزارة الخارجية.

- وهل كنت حقا تخاف من خوض تجربة الزواج؟

- لا أنكر ذلك، فما ذنب الأبناء لينشؤوا بعيدين عن والديهما؟

- وكيف اقتنعت أخيرا بالارتباط؟

- ببساطة، أحببت.

- واو. أحب هذه القصص. هل التقيتها في كندا أم في الكويت؟

- لا هذا ولا ذاك، تعارفنا عبر الإنترنت.

- معقول؟

- نعم، معقول.

- هل تؤمن بالحب عبر الإنترنت؟

- بكل تأكيد. ونحن سعداء الآن ولدينا أربعة أولاد. في الواقع، لم نخطط في البداية للزواج، ولكن الأمور جرت بتلقائية مذهلة. كنا صريحين مع بعضنا إلى أبعد حد، وبحنا بأسرارنا وأفكارنا من دون قيود أو مجاملات، ومن دون أن نحسب حسابا للتبعات، وكان هذا سببا كبيرا لنجاح حياتنا الحالية.

- كويتية؟

- نعم، كويتية أبا عن جد، وتم الزواج وفق الأعراف والتقاليد، ودون أن نذكر لأحد معرفتنا بعضنا، وهذا السر كان سببا في جمال علاقتنا. وعلى فكرة، لم يعلم أحد قبلك بهذه القصة، لذا حافظي على سريتها.

- بالتأكيد، سأفعل.

- وسأخبرك بسر آخر، فأنت الأميرة التي دللتك وأحببتك في صغرك كابنة لي.

- وأنا أيضا أحبك، وأنا وفيصل نعتبرك فردا مهمّا من أسرتنا وفي مقام الوالد، الله لا يحرمنا منكما. وأحب كثيرا كل ما تخبرني به.

- فهد وكاترين في الكويت لتجهيز كل ما يلزم

لاستقرارهما مستقبلا في الكويت، فأنت تعلمين أن والدك لديه الكثير من الأعمال هناك، وشركته من أكبر شركات الكويت، وهو لم يضع يوما في خطته قضاء حياته كلها في كندا.

- توقعت ذلك، وهل أمي موافقة؟

- أنت تعلمين أن أمك لم يعد لها أحد في كندا، جدك وخالتك عادا إلى سوريا، وفيصل في فرنسا وطريقه في دراسة الطب طويل، بالإضافة إلى أن أمك لا تعارض والدك في القرارات المصيرية، وهذا عهد بينهما منذ الارتباط الأول.

- مممممم وهل ستخبرني الآن كيف كان الارتباط الأول؟

- ههههه سأخبرك أيتها الشقية، وأعلم أنك نتعلمين من كل حدث وكل موقف.

كنت أخشى من ردة فعل كاترين، فوالدك بلغ من الجرأة حدّا تجاوز المألوف، وكان يبرر أن كاترين بالنسبة إلينا هي شخص، ولكن بالنسبة إليه أصبحت العالم بأسره، ويعتبر أن القدر قاده إليها أو قادها إليه، وأنه إن تأخر فسيعاقبه القدر بحرمانه منها...

لم تكن مشاعر فهد أقل من مشاعر كاترين، وكان هذا

واضحا من خلال ردها الذي أفقد والدك صوابه وجعل قلبه يرتجف بحب فاق الزمان والمكان، ولو لم أكن إلى جانبه وقتها لتحول روميو إلى رماد، فقد كان اتصال جولييت شرارة لحرائق حب لم تنطفئ نيرانها حتى هذه الساعة.

اتصلت كاترين، وبدون سلام أو مقدمات قالت: "لم يستطع العود إفقادي وعيي، ولكن صاحبه فعل!".

لكن من فقد الوعي حقّا كان فهد المتيم!

بدأت قصة الحب الساخنة بينهما، وكانت قصة جميلة راقية إلى أن تمّتْ قراءة القصة من قبل أهلها وأهله الذين أقسموا على حرق صفحاتها صفحة صفحة.

وبدأت حرب من عدة جهات؛ من أهل كاترين الذين يرفضون زواج ابنتهم من مسلم وبالذات خليجي، ومن أهل فهد المستميتين في الحفاظ على تقاليدهم ومكانتهم في عيون الآخرين، ومن طرف فادي العنجهي الذي تصرف بحماقة المراهقين وطيش المجرمين ودفع حياته ثمنا لرغبته في الانتقام، وعلى الرغم من الخسائر الكبيرة التي تعرضا لها إلا أنهما تحدّيا وصبرا وتحملا وانتصر حبهما وتكلل بزواج رسمي وعائلة سعيدة.

خسر فهد وكاترين كل حقوقهما من طرف العائلتين،

واعتمدا على نفسيهما في الدراسة والعمل وتنشئة الأسرة، وكان النجاح حليفهما في كل خطوة، خصوصا أن أهل كاترين تراجعوا عن موقفهم بعد قدومك أنت وفيصل إلى الحياة، وتحول الموضوع إلى أمر واقع خصوصا أن والدك لم يجبر كاترين على الدخول في دين الإسلام، ولكن الأصعب في الموضوع كان موقف جدك وعائلته في الكويت والذي لا يزال مستمرا حتى الآن.

- خمسة وعشرون عاما مرت، ولم يستطع جدي مسامحتهما؟ حبهما وزواجهما ليس جريمة لا تغتفر.

- خروجهما عن التقاليد والمعتقدات كان أشد من الجريمة. فكثيرون منا يأبهون لرأي المجتمع أكثر من رأي العقل، وكما تعلمين، رأي الدين أهم بكثير من رأي الإنسانية.

- لنفترض أن ابنك أحب فتاة من غير دينه، هل ستبارك زواجهما؟

- هههههه إلى وقتها نقاش آخر!

- هههه فهمت، ولن أكرر سؤالي لدبلوماسي سابق.

تساءلت بعدها عن وضع جدي، هل هو الخاسر؟ فها هي أمي تدخل الكويت من دون علمه ومع ابنه، وهو لا يزال على قيد الحياة، وستعيش هناك عاجلا أو آجلا، أم

إنّه قاسي القلب متصلب التفكير حكم على ابنه وأحفاده بحرمانهم من عائلتهم دون ارتكابهم أيَّ ذنب؟

لن أعتبر أمي خاسرة، فقد تحسنت علاقتها بعائلتها في وقت قصير، وأنجبت أولادا رائعين، وكسبت حب أبي الأبدي.

أنا وأخي خاسران قليلا، ولكن لدينا عائلة تحبنا وتحمينا، ومستقبل ينتظرنا. أبي تحسّنت علاقته بعائلته قليلا بعد مرض جدتي، وهو رجل أعمال ناجح جدّا ولديه عائلة رائعة، من الخاسر الأكبر؟ هل هو جدي الذي حرم من ابنه سنوات طويلة أم جدتي؟

لماذا لا يفكر الناس في نتائج أية قضية قبل اتخاذ قرار فيها؟

ما الفائدة من حرمان استمر سنوات إن كانت نهايته لقاء؟!

نعيش لنتعلم، ونتعلم لنعيش، والخاسر الوحيد من لا يعي هذه المعادلة. لا شيء يأتينا من دون ثمن، وعندما يكون الثمن غاليا ستحصل على أفضل خيار، وإن لم يكن أفضل خيار فأنت الخاسر مرة أخرى. تحدى أبي وأمي التقاليد وأعراف المجتمع، وتحديا قرار العائلة، وهاهما الآن يتحديان الظروف، وهما مصران على كسب الرهان حتى

آخر لحظة، رهانهما أنهما على حق وأن قرارهما صائب. ما أجمل أن نتغلب على كل الصعاب من أجل كسب الرهان!

***

عاد أبي وأمي، وعادت حياتنا إلى ما كانت عليه مع بعض التغييرات. فمن جهتي، قد زاد إعجابي بأبي وأمي وقصة حبهما، ومن ناحيتهما عادا بقوة أكبر وثقة كاملة أن القادم أجمل، وأنه نتيجة صبرهما وإخلاصهما وعملهما.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

الفصل الثالث

كم يبدو جو الكويت رائعا في الشهر الأخير من السنة، حقًّا إن الضد يظهر حسنه الضد، فقد جرّبت الجو الحار في شهر أغسطس، والآن أستمتع إلى أبعد حد ببرودة الجو رغم أن البرد في الليل يشعرك بلؤم خفي تحتار إن كان عفويّا أو مقصودا، ولكن من تتأثّر بقسوته هي المشاعر التي لا حول لها ولا قوة ولا مصدر لدفئها ولا سبب.

عدت إلى أنيسي اللابتوب في وقت الضجر، بعد أن انتظرت يومين ولم أفتح "شادو"، وكأني أخشى من كلمات تأتي بعد Hi، فكل الرسائل وطلبات الصداقة التي وصلتني هدفها واحد، وإن تغير الهدف فهو لهدف أكثر مللا وأقل قيمة، ولكن لا بأس من مرور أخير قبل إغلاق الحساب. كالعادة، مئات الرسائل والترحيبات ولكني في اللاوعي أبحث عن رسائل شخص واحد، شخص اختار صورة جورج كلوني وجعلها صورة ملفه. ومن المعلوم أن الأشخاص الذين لا يضعون صورهم الشخصية في حساباتهم الإلكترونية يختارون صورا مشابهة لهم في شيء ما، إما الشكل أو الصفات أو الطباع أو المهنة أو الاتجاه الديني والسياسي أو الحلم!

يبدو أن جورج كلوني مستمر بالسعي من أجل أمل، فمن تلك التي تناسب كلوني إلا أمل، ولا حاجة لعلم

الدين؟!

كان في علبة الوارد ثلاث رسائل منه، واسم المستخدم غريب "MISSING MISSING"، ما الذي يقصده من هذا الاسم؟ هل هو في حالة اشتياق كامل أم إنّه يقصد حالة فقدان وضياع؟ فمن غير المعقول أن يختار اسم ملفه اعتباطيّاً، وخصوصا أنه لم يضع صورة مشرقة لجورج كلوني، وإنما كانت صورة أقرب إلى التعاسة تمثل كلوني، وهو في حالة حزن وتأمل وإنهاك وكأنها أخذت من أحد المشاهد التمثيلية البائسة، كما أنه لم يضف أية معلومات شخصية في البروفايل.

كانت حالته "متصل"، والزر الأخضر ينير بجانب اسمه. لم أفتح أية رسائل أخرى، فقط رسائله وكانت رسائل قصيرة، وضعت من دون أمل بالرد أو بمعنى أدق الرد غير مهم كيفما كان، لأنه عضو في الموقع منذ شهور طويلة، ولا بد أن تجربته أكسبته خبرة ودراية كافيتين أن معظم الرسائل لا تحمل جدية في مضمونها.

قرأت الرسائل الثلاث:

- كيف حالك؟

- أين أنت؟

- أنا أنتظرك، ووجه مبتسم بجانبها.

عندما ظهرت الرسائل مقروءة مباشرة، رأيت "جاري الكتابة"، أووه يا إلهي! إذا هو ينتظرني وينتظر ردي، وقد وصلتني رسالته المقتضبة:

- Hi، تبعتها وردة حمراء.

لا أدري ما الذي يجعلنا نصدق رسالة ونحبها، ونكذب ونرفض الرسالة نفسها من شخص آخر! الكتابة الإلكترونية لا تظهر أية مشاعر، ولا يمكن التكهن بصدقها أو كذبها، ولكني أجد نفسي أحترم رسالته، وأجسد احترامي بالرد عليه:

- Hi.

- انتظرتك أمس، ولكنك لم تدخلي الموقع.

- نعم صحيح، كنت مشغولة.

- والآن، هل أنت مشغولة؟

- عادي.

- هل يزعجك الحديث؟

- لا.

- أنا اسمي أحمد (مرفق بوجه مبتسم).

- أهلا بك صديقا جديدا.

- وهل هناك عدد كبير من الأصدقاء غيري؟ (وجه مبتسم)

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن الموقع مليء بالأشخاص الراغبين في الصداقات.

- أنت تعلم أني على الموقع منذ ثلاثة أيام فقط، ولم أدخل في كل مرة سوى لدقائق.

- في كلّ الأحوال، هذا أمر لا يخصني، فلك حرية قبول الأصدقاء أو رفضهم.

- بالتأكيد، أنا من أحدد أصدقائي بالقبول أو الرفض.

- لم أقصد إزعاجك، أعتذر إن كنت قد تجاوزت حدودي.

- اعتذارك مقبول، وأنا بدوري أعتذر الآن لأنه موعد نومي.

- (وجه حزين)

- ما بك؟

- كنت أرجو أن نتحدث لوقت أطول، ولكن لا بأس "أحلاما سعيدة".

- شكرا.

- وجه مبتسم

- اسمك أمل؟

- نعم.

- تصبحين على خير أمل.

- وأنت من أهل الخير.

بدا شخصا ظريفا خفيف الدم، أو هذا ما أحسسته أو ربما ما أوهمت نفسي به، فأنا بحاجة إلى التحدث مع شخص يملأ وقتي بلا تحفظات، فأنا أتحدث إليه من خلف شاشة وليس وجها لوجه، ولا تترتّب أية تبعات على هذا الحديث أو على هذه الصداقة.

ولكن الغريب في الموضوع أني في اليوم التالي أحسست بشيء يشبه الرغبة، أو ربما كان نوعا من الفضول لأفتح الموقع، وأرى ماذا كتب لي أو ما ينوي كتابته في حال رآني أونلاين، وهذا ما حدث.

ما إن دخلت حتى وصلتني رسالته:

- كنت أنتظر دخولك.

- هههه تنتظرني مع عشرين أخريات.

- لِمَ تقولين هذا؟ أرسلت إليك حتى لا تبحثي عني.

- أبحث عنك؟

- نعم، أم إنّك تبحثين عن عشرين آخرين؟!

- لا تعليق.

- أما أنا فعندي تعليق، أنت دخلت من أجلي؛ فإحساسي لا يكذب.

- أنا أدخل عندما يتوفر عندي الوقت، وعندما تكون أونلاين أكلمك، وهذا هو الموضوع بكل بساطة. بالمناسبة، ما اسمك؟

- سبق لي أن أخبرتك "أحمد".

- اسم جميل.

- أنت الجميلة.

- شكرا، عليّ الذهاب الآن.

- هل سأراك هنا في الليل؟

- حسب الظروف.

- سأنتظرك في كلّ الأحوال. (وجه مبتسم ووردة حمراء)

- باي

- باي

ذهبت لأجلس مع أمي ونحضر لغداء لذيذ، بانتظار قدوم أبي الذي تأخر على غير العادة، فبادرتني أمي بالسؤال:

- هل حقّا تشعرين بالراحة هنا؟

- أجل، يا أمي. على الأقل، راحتي فاقت ما كنت أتوقعه. في الحقيقة اعتدت أن أتأقلم عندما لا أمتلك خيارات، يعني ماذا لو قلت لك إنّي أحن إلى كندا وأفضّل الحياة هناك، هل سيتغير شيء؟ لن يتغير شيء، لذلك قررت أن أغض نظري عن سلبيات القرار بالنسبة إليّ، وأستمتع بما توفر لي من ميزات هنا، وهي ليست قليلة.

- الزمن كفيل بكل شيء، عندما تبدئين عملك وتكوّنين علاقات اجتماعية وتتفاعلين مع المجتمع، ستشعرين باستقرار ورضا كاملين.

- حياتي وسعادتي هي وجودك أنت وأبي معي، وأنا مكتفية بكما، صدقيني.

- وكل ما نفعله هدفه سعادتك أنت وفيصل.

نتوقف عن الحديث لاستقبال أبي الذي دخل مبتهجا

مشتاقا، وقال حضرا نفسيكما للمفاجأة، ويفتح الباب على مصراعيه ليدخل السائق ومعه عامل يحملان مفاجأة بلون الفرح وطعم المحبة جعلتني وأمي نطير فرحا، فلم أتوقع يوما أن تدخل شجرة عيد الميلاد إلى بيتنا في الكويت، ولكن أبي فعلها كما اعتاد أن يفعل كل ما يدخل السرور والفرح إلى قلوبنا.

وأردف قائلا: "أحضرت أجمل وأكبر شجرة في السوق، وأحضرت كل أدوات الزينة، ودوركما أن تختارا مكانا مناسبا لها، وتبدأا بتزيينها، وإن أحببتما إضافة أي شيء يمكنكما شراؤه، فما زال هناك أربعة أيام ليوم الميلاد، وعشرة أيّام لرأس السنة".

إنه أبي الذي يفعل قناعاته في كل مرة، قناعاته المرتكزة على المحبة والإنسانية واحترام الاختلاف مع الآخر. إنسان يتفانى لفعل الخير لكل الناس ويتفنن في إدخال الفرح إلى كلّ من حوله، إنسان يحب الجمال في كل شيء، في البشر، في الأسلوب، في الأخلاق، وفي أدق التفاصيل. وأمي هذه المرأة الاستثنائية العاقلة المتفهمة والعاشقة لأبي، كعادتها لم تظهر ردة فعلها. اكتفت بنظرات تحمل آلافا من المعاني والتساؤلات والعرفان، شكرت أبي بطريقة مختلفة، وقالت له: "ستبقى نصفي الثاني الذي يكملني، وإنك تعلم أن نصفي الأول ممتلئ بك حتى الفيضان".

أيّ حب وأي ارتباط يجمع هذين الشخصين؟ أي تفاهم وأي امتنان يربطهما كل هذه السنين؟ أي عشق يحافظ على نضارة استمراريته بعد مرور أكثر من ثمانية وعشرين عاما؟ وكم سأكون محظوظة لو عشت حياة كحياتهما!!!!

أبي اخترق التقاليد بطريقة علنية، وأعلم أنه واجه أشكالا من المعاناة، ولكنه عاش قصة جميلة ناجحة، وعمي عبد الله أيضا اخترق التقاليد بطريقة أخرى لم تكن علنية، ولكنها أيضا أثمرت عن قصة ناجحة. عمتي إقبال خرجت قليلا عن التقاليد بدعمها موقف أبي، وما زالت تعيش قصة جميلة، إذا الحفاظ على التقاليد ليس عاملا جوهريّا ضروريّا لنجاح أية قصة، رغم أنه يحافظ على وحدة المجتمع وخصوصيته.

أمضينا بقية اليوم في تزيين الشجرة، وضعنا الأضواء الملونة والكرات البراقة مختلفة الأحجام والألوان، وكان اللون الغالب هو الأحمر يليه الفضي، ووضعنا الأجراس والنجوم وشرائط من الساتان وأكواز الصنوبر لتمنح الشجرة شكلا طبيعيّا، ولم ننسَ قطع القطن الصغيرة لتذكرنا بثلوج كندا، ووضعت أمي النجمة الكبيرة في أعلى الشجرة، وقالت: لم يتبقَّ سوى شراء الهدايا، غدا نذهب لشرائها وتعليقها؛ فالهدايا تقرّب الناس من بعضهم، وهي رمز المحبة والسلام، ونحن البشر أكثر ما نحتاج إليه هو المحبة

والسلام.

سألت أمي: ألن تضعي عبارة ميري كريسماس على بطاقة على الشجرة؟

فأجابتني: "لا، سأضع فقط عاما سعيدا".

لا يغيب عن أمي شيء. يقظة وحريصة على شعور كل من حولها، تضع شجرة عيد الميلاد إرضاء لنفسها، وفي الوقت نفسه تنقل رسالة مفادها أننا نحتفل بالانتقال إلى العام الجديد، فهي تؤمن بأنّ هذه الشجرة تقي الناس من الأرواح الشريرة ومن قوى الطبيعة، وأنها رمز للحياة.

قلت لها: لِمَ وضعت النجمة إذا؟

أجابتني: لأن الأسطورة تقول إنه يوجد في السماء نجمة لكل شخص في العالم تمثل الأمل للإنسانية، ونحن نحيا بالأمل والخير والإيمان أن الله دائما معنا، وأنه يجب علينا أن نكون معه دائما.

في اليوم التالي، ذهبنا إلى السوق، واشترينا هدايا صغيرة وكبيرة، ولم تنسَ أمي أحدا حتى شيري والسائق راجو، وتعمدت أمي شراء الهدايا المميزة لعمتي وبنات عمتي ولبدر، لتظهر لهم كل المحبة والتقدير.

أمضينا السهرة في وضع اللمسات الأخيرة للزينة، والاستمتاع بمنظر الشجرة وأنوارها، واستعادة ذكريات مثل

هذه الأيام في كندا وسوريا وألمانيا وفرنسا التي كنا نمضي مثل هذه الأوقات فيها.

واقترح أبي أن ندعو بعض الأصحاب إلى العشاء في الليلة المصادفة لليلة عيد الميلاد، ووافقته أمي وأنا على الفكرة، وكانت قائمة المدعوين مكونة مبدئيًا من عمتي وبناتها ملاك ودلال وبدر وعمي عبد الله وزوجته.

قمت بتصوير الشجرة بزينتها، وأرسلت الصورة إلى بدر مرفقة بجملة: "قد نستشعر السعادة من أبسط الأشياء!"

ليأتيني رده الأصفر: "أعتقد أنه بإمكانك استشعار السعادة من مصادر أخرى تناسبنا أكثر".

للحظة، أحسست بندم كبير على إرسال الرسالة، رغم أن هدفي فقط إشراكه في فرحي بشيء جميل، فهو ابن عمي، واتفقنا أن نكون صديقين، وهو فعلا إنسان طيب، لم أتوقع منه ردًا كهذا يحمل في باطنه رفضا لكل ما يعارض قناعاته وتقاليده. هل من المعقول يا بدر ألّا ترى في هذه الشجرة الجميلة إلا انعكاسا دينيًا قادما من طرف أمي؟

وأنا في غمرة إحباطي، وإذا ببدر يتصل:

- ألو.

- مساء الخير، نعمة.

- أهلا.

- نائمة؟

- نعم.

- هههه اتصلت لأشكرك لإرسالك الصورة.

- وصلني شكرك بصورة أفضل منها.

- أرى أن ردي ضايقك. أنا آسف لم أقصد، ولهذا اتصلت في هذا الوقت المتأخر.

- ...

- ردي عليّ، نعمة. لو سمحت لم أقصد أن أضايقك، ولكن أحسست أنك ما زلت متأثرة بحياتك في كندا، وأنت الآن في الكويت، وليس كل ما اعتدته يتناسب مع بيئة عائلتنا، ولا أدري ما الذي جعلني أرد عليك بهذا الأسلوب، أنا آسف.

- لا داعي للأسف، بدر. أنا لم أتضايق، ولكن صدمت قليلا.

- أكرر أسفي، واعذريني لاهتمامي وردة فعلي اللاإرادية. تصبحين على خير.

- أقدر اهتمامك، بدر. سأراك قريبا. تصبح على خير.

بدأت أفكر وأتساءل عن أي غرابة في عقلية الناس أواجهها...

فالجنين يتكون بقدرة إلهية في بطن أمه، ويولد مسيّرا لا يختار البيت، ولا المكان ولا الأهل ولا الاسم ولا الدين...

وبعدها، يبدأ تطبيع الطفل وتلقينه الإرث العائلي الفخري.

تبدأ رحلة إقناعه أن دينه ومذهبه هو أفضل دين وأفضل مذهب، ويكبر الطفل وهذه القناعات راسخة في قلبه وعقله.

يكبر معه رفضه الأديان والمذاهب الأخرى، ويستميت دفاعا عن أفكاره ومعتقداته، ويبدأ بلا نهاية مهاجمة كلِّ ما يخالف هذه الأفكار والمعتقدات!

متى سنصحو ونتحرر من فكر الطائفية والمذهبية والعنصرية واللاإنسانية؟! متى سننال شرف معايدة الإنسان في كل مكان على هذه الأرض احتفالا بإنسانيته لا بأفكاره الموروثة بالمصادفة البحتة؟!

كل عام والإنسانية بخير...

كل عام والإنسان هو سيد الأرض...

لن أدع كلام بدر يؤثر في نفسيتي أو سعادتي، لقد

خلقت في عقلي صورة لسعادتي في الكويت، وسأركز عليها ولن أسمح لأي شيء أن يغير رسمها. أخذت نفَسا عميقا، وقمت بإشعال شموع في غرفتي وكثير من البخور الذي أهدتني إيّاه عمتي، وأطفأت جميع الأضواء، وشغلت موسيقى هادئة؛ فلا بد من قليل من الاسترخاء لأنسى ما أحسست به، وأحصل على قوة داخلية إيجابية تمكنني من الاستمرار بنفس الروح العالية بعيدا عما قد ينتظرني من مشاكل مؤجلة. أغمضت عيني، وأخذت نفسا عميقا، تبعه نفس آخر وآخر، وأنا أحاول التركيز على الصورة نفسها التي رسمتها لسعادتي، ولكن كأني أرى صورة تحل محلها، أحاول استبعادها، أحاول إخفاءها، ولكنها واضحة في ذهني ومجسدة، هل يعقل هذا؟ ليست صورة للسعادة ولا لزينة الشجرة ولا لأمي ولا لبدر ولا حتى كندا، صورة أنني أقوى من كل ما ذكرت، أنني بكل ثقة وكأني أتأمل فيها وحدها ولأجلها... إنها صورة... "جورج كلوني البائسة"!!

...

وعلى الرغم من استحضار الصورة في اللاوعي عندي، فقد تجاهلتها عمدا، هي مجرد صورة، من سمح لها بالدخول إلى عالمي الداخلي؟ وليس هذا فقط، بل تخطت كل ما كنت أفكر فيه ويشغل بالي، هل تغلب تفكيري اللاواعي

على تفكيري الواعي؟ أشعر أن شيئا غريبا يحدث.

لا أريد أن أفكر كثيرا، سأذهب للنوم؛ فهو كفيل بمعالجة كل شيء.

إنّها الساعة الثانية بعد منتصف الليل، لماذا لا أستطيع النوم؟ ما الذي يشغل بالي؟ هل هو كلام بدر وخلفياته المنتظرة؟ هل تسرعت بانطباعي عن حياتي الجديدة؟ هل تصدق توقعاتي لما يمكن أن يحدث ليلة عيد الميلاد؟ لا لا، فبدر اعتذر وأوضح موقفه، وحياتي في الكويت تسير بشكل رائع، وبالنسبة لليلة الميلاد فهي جمعة أحبة لا غرباء أو خصوم فيها. أعود للاستماع إلى الموسيقى، وبلا إرادة مني، أفتح اللاب توب وأتوجه إلى رسائلي، كل الرسائل لا تهمني، فقط رسائله تهمني وأتشوق لرؤية ما كتب.

ويا للصدمة، لم أجد أية رسالة منه!

مرّ يومان، وأنا أوفلاين، وأعود فلا أجد منه رسالة. شخص غير مهتم، شخص يملأ وقته الفارغ، أو ربّما استبدل بأمل سمرا أو حصة أو سوزي، فالكل واحد بالنسبة إليه، ولكن لماذا أنت مهتمة يا نعمة؟ وماذا يعني لك، وهناك مئات الرسائل من مئات الراغبين في صداقتك؟ لماذا لم أفكر أن أقرأ رسالة ليست منه؟ كم أتمنى أن أخبره أني غير مهتمة، وأنه لا يعني لي شيئا، وأني لا أنتظره ولا أتساءل

أين هو، وحتى لا أتمنى أن يدخل الآن ويبعث لي رسالة يقول فيها أين أنت فأنا أفتقدك!

وفي ثانية، بدأ قلبي ينبض، وارتفع الدم إلى وجهي، وأحسست كأن أحدا اقتحم عليّ غرفتي دون إذن، وقال بجنون: "أمل، أين أنت فأنا أنتظرك؟!"

لم أصدق ما رأته عيناي، وما قرأه لساني. كيف ترجم إحساسي وأمنيتي؟ كيف لم يخيِّب لي ظني؟ كيف أربكني كل هذا الارتباك؟ فأجيبه:

- لماذا أنت أوفلاين؟

- كنت فقط أنتظرك وأتساءل إن كنت سأراك أو لا، أين كنت طوال يومين كاملين؟

- كنت مشغولة قليلا، وأنت تعلم أنّه ليس بيننا موعد، ومن الأفضل ألّا نتوقع وجودي بشكل دائم.

- لا بأس، أقدر ذلك. ولكن فقط اتركي لي رسالة بسيطة تصنع يومي.

- ههههه على اعتبار أننا أصدقاء منذ شهور ولا تستطيع الاستغناء عني!!

- بل ربما منذ أكثر من ذلك بكثير.

- !!

- مستغربة؟ من حقي أن أعبر عن إحساسي، وأنت أمل قديم أنتظره، وأمل آت أترقبه.

- أراك تلعب بالكلمات.

- لا شيء آخر أستطيع اللعب به.

- وأنا لا أحب اللعب.

- وأنا أحب أن أراك هنا كل يوم.

- هل تريد أن تخبرني أكثر عن نفسك؟

- اسألي كل ما يحلو لك.

- لا أجيد طرح الأسئلة، ولكن أخبرني بعض المعلومات عنك، فأنا كل ما أعرفه عنك هواسمك وجنسيتك الكويتيّة.

- حسنا، سأخبرك بشيء، اسمي ليس أحمد، ولكن استخدمت هذا الاسم لأني لا أحب اسمي؛ فهو اسم قديم وأشعر أنه لا يناسبني.

- ما هو اسمك؟

- سعد، وعمري...

- لاااا، (قلت مقاطعة كلامه) كم أحب هذا الاسم! هل تعلم أنه الاسم الثاني لوالدي.

- كم أنا محظوظ! اسمي سعد، وعمري ثمانية وثلاثون عاما، وأنا مهندس حاصل على شهادة الماجستير من بريطانيا، وأحضر للدكتوراه وأعمل مدرِّسا في الجامعة.

- تشرفت بك، مستر سعد.

- وأنت؟

- أنا أمل. بعد أسبوع، سيصبح عمري ثمانية وثلاثين عاما، وأنا مهندسة تكنولوجيا معلومات، وأيضا حاصلة على شهادة الماجستير في المجال نفسه.

- أية مصادفة متوافقة! أنا سعيد لأنّي تعرفت إليك يا أمل.

- ولكن بما أنك كويتي تعيش في بلدك، وبحكم عملك في الجامعة، ما حاجتك للدخول إلى مواقع تعارف افتراضية؟

- اسألي نفسك السؤال ذاته، وستحصلين على الإجابة! وأنا الآن مضطر إلى الذهاب، فلديّ دوام صباحا. أتمنى أن أتلقى رسائلك دائما، واعتبريه رجاء. تصبحين على خير.

- ليلة سعيدة، سعد.

لا أدري لماذا لم أخبره باسمي الحقيقي وبعمري الحقيقي، ربما خوفا من فارق السن بيننا، وربما لقناعتي أن الصداقة

ناجحة بين اثنين متقاربين في العمر، أو ربما لاختباره فيما لو كان يتصيد الفتيات صغيرات السن قليلات التجربة، أو لحرصي على ألّا يعرف معلومات حقيقية عني، فربما ليس ذلك الشخص الجيد. وأنا لست في وضع مثالي لأعرض نفسي لمشاكل أنا في غنى عنها.

***

قبل ليلة الميلاد بيوم، اتصل بدر وأخبرني أن سوء تفاهم وقع بين والده ووالدي إثر نقاش، كان أساسه دعوة والدي عمي وعائلته لزيارتنا، وتصحيح الأخطاء السابقة، وبداية صفحة جديدة. ولكن عمي رفض أية علاقة أو مبادرة، وقال إنّ الوضع سيبقى على ما هو عليه، مما جعل أبي يخرج مُحبَطا مكسور الخاطر، ولكن بدر أكد لي أنه سيحضر، فلا ذنب لنا نحن بما حصل في الماضي، وهذا ما أكده لوالده أيضا.

لم أبد أي تعليق، ولكنني كنت محبطة في قرارة نفسي وحزينة، فأبي لا يستحق مثل هذه المعاملة، وفي الوقت نفسه قدوم بدر قد يزيد الطين بلة.

وكالعادة، من يخرجني مما أنا فيه سوى أمي؟ قالت لي دون سابق نقاش: "لا تحزني لشيء لست سببا في حصوله، ولا تسمحي لشيء باغتيال بهجتك، وإياك أن تؤجلي فرحك إلى يوم آخر، فذاك اليوم غير مضمون". استطاعت

أمي تغيير نفسيتي بجملة واحدة، وبدأنا بالتخطيط والتجهيز ليوم غد.

لقد استطاعت أمي تحويل البيت إلى أجمل صالة فندقية، وقامت بتجهيز وطلب ما لذّ وطاب من الأطباق، وغلفت الهدايا بأزهى أوراق التغليف، واستقبلت ضيوفنا بابتسامة لم تفارق شفتيها طوال الوقت، واهتمت بالجميع أفضل اهتمام، وهكذا استطاعت خلق جو حميمي مليء بالمحبة والألفة، وكنت أراها لا تنشغل عن بدر لحظة وكأنها تقدر ما قد يجول في خاطره أو ما قد يحدث لاحقا، وقام أبي بتعريفه إلى عمي عبد الله بينما كنت أنا منشغلة مع بنات عمتي. وزعت أمي الهدايا على الجميع، وساعدها أبي وسط جو من الفرح والأغاني الجميلة، وبعدها استأذن بدر فلا يمكنه التأخُّر أكثر من ذلك، وقمت بإيصاله إلى الباب وشكرته لقدومه، فقام برد الشكر على الوقت الجميل الذي أمضاه معنا والسعادة التي أحس بها، ورغم طبعه الخجول إلّا أنه كان ينظر إليّ نظرات تخفي وراءها الكثير من الكلام، نظرات تركز على وجهي وعيني ولكنها غير واعية، وابتسامة عفوية متكررة، ونغمة صوت تتلعثم في لطافة الكلمات، اقتربت منه وقلت له: "سأتصل بك لاحقا لأخبرك عن سر، ولكن لا تسألني الآن". ضحك ضحكة خجولة، وقال: "بانتظارك دائما".

وعندما عدت، رأيت النظرة نفسها من ملاك التي رأيتها في المطعم، وقبل أن أسألها إن كان هناك شيء، وجدت عمتي تضمني وتقول لنا هذا أسبوع الأفراح، فما زال عندنا عيد رأس السنة وعيد ميلاد جميلتي نعوم، ولن نفوت فرصة الاحتفال معا هذه المرة...

ووافقها الجميع بفرح وأمنيات سعيدة.

بعد ذهاب الجميع، اتصلت ببدر وكان صوته كافيا لأعلم أن شيئا مزعجا قد حدث.

- بدر، لا أدري ماذا أقول، أتمنى أن أراك بشكل مستمر، ولكن إن كان هذا الموضوع سيسبب لك مشكلة في كل مرة، فأنا أرجوك ألّا تفعل ذلك. نحن في غنى عن المشاكل.

- أنا لست طرفا في المشكلة ولا أنت، وأنا مقتنع بما أفعله.

- ولكن أنا لا أريد أن تحدث مشاكل في عائلتكم بسببي.

- للمرة الألف، أقول أنت لست سببا. يجب على أبي وأمي أن يحترموا تفكيري وقراري، وأن يتخلصوا من رواسب الماضي، فهي ليست قصة حرب البسوس التي لا تنتهي.

- وماذا يمكننا أن نفعل؟ حاول أبي مرارا تقريب

وجهات النظر وتجاوز الماضي ولم ينجح. وأمي من المستحيل أن تستطيع فعل شيء، وأنا أخاف التدخل في هذا الموضوع، فأنت تعلم مدى حساسيته.

- لا عليك، فالزمن كفيل بكل شيء. المهم أخبريني ما هو السر، فأنا متشوق لمعرفته؟

- لن يكون له طعم الآن، فمن الصعب أن تعيش إحساسي الضيق والفرح في الوقت نفسه.

- إياك أن تقولي إنّها خطبتك.

- ههههه لا، بالتأكيد. كنت أريد أن أخبرك أن عيد ميلادي يصادف في الثلاثين من ديسمبر، وأنا سعيدة لأنّه أول عيد ميلاد في بلدي وبين أقاربي.

- والله، إنك وجه السعادة والإيجابية، ومن قلبي أقول لك: كل عام وأنت الخير والفرح.

- سأخبرك فيما بعد عن الترتيبات، فأنت أصبحت صديقي المقرب أكثر من كونك ابن عمي، عمي الذي يرفضني، وأرجوك عِدْني أننا سنبقى أصدقاء مهما حصل.

- صدقيني، كل شيء سيتغير نحو الأفضل، فقط امنحيني بعض الوقت.

- لك كل الوقت، فأنا غير محكومة به، والمهم أن تكون

دائما سعيدا.

- أمل، أنا سعيد بوجودك في حياتي، آسف أقصد في حياتنا، فأين سنجد ابنة عم جميلة مثلك؟

- ابنة عم تشبه أمها لا أعتقد أن هذا سيسعد حياتهم، ربما جملتك الأولى أكثر صحة.

- نعمة، أنا فعلا سعيد بوجودك، ولا شيء في الدنيا يعادِل سعادتي بوجودك معنا.

- كلامك يعني لي الكثير، بدر. تصبح على خير.

- تصبحين على خير.

رغم أني لم أبح بأي شيء لبدر، ولكنه يمنحني راحة داخلية، فهو لم يحكم عليّ غيابيًّا كما فعل غيره، لم أعرفه منذ زمن طويل، ولكن مواقفه تشعرني بإمكانية بناء جسر بيني وبينه يساعدني على العبور وإكمال الطريق بأمان، وهذا ما جعلني أرسل إليه هذه الكلمات برسالة: "لن أنسى يا بدر أنك تحملت كلاما وموقفا من أبيك لأجل أن تكون معي، أنت الشخص الذي لا يوجد معي دائما، ولكنني على يقين أني سأجدك بجانبي كلما احتجت إليك، ما أسعدني لو بقينا على عهد أننا لن نتخلى عن بعضنا مهما كانت الظروف، ومهما حملت لنا الأيام من مفاجآت!"

ويأتيني رده في ثانية: "لو تعلمين ماذا تعني كلماتك لي،

لأيقنت أنني لن أخون العهد في يوم، وهذا العهد سأصونه بنبض قلبي ودم شرياني، ولست شخصا يخلف العهود يا نعمة الله".

كلام بدر زرع ثقة كبيرة في نفسي، وجعلني أشعر أني لست وحيدة ولن أكون في يوم وحيدة، فهو ابن عمي وصديقي وبمنزلة أخي، فأخي لم يضحّ ليبقى معي ولكن بدر فعلها، لا أستطيع وصف الغبطة التي أشعر بها، إنّه فرح بحجم السماء، فلا شيء يعطي المرأة قوة وثباتا مثل وقوف رجل صادق إلى جانبها مؤكّدا لها أنه لا يستبدلها بدم شريانه!

***

أستيقظ صباحا على رائحة البخور التي نشرتها شيري في كل أرجاء البيت، لقد اعتدت هذه الرائحة رغم تحفظي على آثارها الجانبية، ومع تأكيد أبي لي أنه يحضر أغلى وأجود الأنواع، بدأت أدمن على رائحتها. بخور العود يحترق على جمر لاهب ليعطي عطرا يعلق في الملابس والجدران وخبايا النفس، ورائحة العود في المنزل تحيي عبق حب انتشى به شاب وفتاة في بلاد الثلوج، وظل هذا الحُبّ رابطة خفيّة، يوحد قلبيهما ويأخذهما إلى عوالم خاصة لا تشبه عوالم الآخرين، عوالم مترفعة عن أي لوم أو عتب أو حزن سببه من لا يدرك أن إكسير الحياة يتجسد

في لحظة حب تعيش عقودا من الزمن!

***

قبل المغرب، ذهبتُ أنا وأمي لشراء بعض الملابس الجديدة والعطور التي تليق بعام جديد، والذي نخطط لنجعله عاما مليئا بالسعادة والراحة، وكانت أمي على يقين من أن العام الجديد يكافئ من يستقبله بالفرح والجمال والتفاؤل، بكم هائل من النجاحات والمفاجآت المليئة بحب الحياة. لحق بنا والدي، وتناولنا عشاء خفيفا، وعدنا إلى المنزل في غاية الفرح والبهجة. كعادتي، صعدت إلى غرفتي وبدأت تجريب الملابس والتقاط الصور في مختلف الوضعيات، فالصور تذكير بلحظات جميلة، وشاركتني أمي في بعضها قبل ذهابها لمناقشة أبي في بعض التعديلات في ديكور الصالة، والذي سينفذه بدر بذوقه المميز.

اليوم أرى نفسي جميلة حقّا، والملابس والألوان مناسبتان لي. قضيت ساعات أمام المرآة (ملابس ومكياج وصور...)، أرغب في شخص يشاركني في لحظات انفرادي، أريد شخصا يطل من إحدى شرفات الحياة يستشعر جمالي بكل خصوصية، ويهديني حبّا وفرحا، أريد شخصا لا أستطيع التوقف عن حبه وإن حاولت.، شخصا يشبه روحي ويستحق مشاعري، مشاعري التي أصيبت بالجفاف، مشاعري العطشى إلى حبّ بنكهة الحياة، حب

تملؤه لهفة البدايات وتغريه قبلات ما بعدها، حب لا يؤمن بالنهايات ولا يمل العطاءات، حب بنضارة الربيع ونقاء سمائه، حب يقود إلى كلّ ما أتمناه. أعتقد أنه آن أوان فك أسر مشاعري وإطلاق سراحها، أليس هذا هو الوقت والمكان المناسبين اللذين تحدثت عنهما أمي؟ أجل، حان الوقت لأني بدأت أشعر بفيض في مشاعري يهدد بغرق محتم، فكل أنثى تخلق ممتلئة بأنواع من المشاعر يظهر طفوحها في مرحلة أو ظروف محددة، ويبدو أني وصلت مرحلتي ولا رغبة لي في التراجع.

الرغبة في الحب، الرغبة في دغدغة المشاعر، والرغبة في استشعار الأنوثة جعلتني أذهب إليه. نعم، هو قادر على جذبي، جذب غير محسوب وخال من المسؤولية، جذب لا ينتمي إلى عالم الواقع، جذب لا خسارة فيه!

ذهبت، وأنا بكامل أناقتي الشعورية لألتقيه في موقعنا الخيالي، وما أشدّ دهشتي إذ رأيته أونلاين! لماذا هو أونلاين في هذا الوقت؟ يعرض كلاما ومشاعرَ لكل فتاة تعبر ملفه، وربما يعرض أشياء أكثر من مشاعر! يا إلهي، كيف سمحت لنفسي أن أفكر بشخص مثل هذا، ونسيت مكانتي وتربيتي وأدبي المشهود له؟! يجب عليّ إلغاء حسابي، ونسيان ما قمت بالتفكير فيه، وكأنني مراهقة في السادسة عشرة. ولكنه كان الأسبق كما في كل مرة.

- أمل، لماذا تعاملينني بهذه الطريقة؟

- أهلا سعد، أية طريقة؟

- إهمالك المتعمد لي، لقد وضعت حالتي أونلاين لتكلميني حالما دخلت إلى الموقع، ولكنه اليوم الثالث ولم يصلني منك حتى السلام، ألم أترجَّ ألّا تتأخري بالتواصل معي؟

- نحن لم نصبح أصدقاء بعد، لنلتزم بالتواصل. (قلتها وفي داخلي تصديق لكل ما قاله. هو أونلاين لأنه ينتظرني، وهو يعاتب بصدق لأنني لم أكلمه طوال الأيام الماضية)

- وما المطلوب لنصبح أصدقاء؟

- نحتاج إلى الوقت وتبادل الأفكار والآراء والاهتمامات، فربما نحن شخصان مختلفان.

- حسنا، انتظري لحظة.

- ماذا أرسلت؟

- ستريها، فقط اصبري لحظة.

- هل هذه صورتك؟

- نعم، هذه صورتي. اسمي الكامل سعد عبد المحسن عبد الصادق، وعمري ثمانية وثلاثون عاما، وطولي مائة وتسعة وسبعون، ووزني تسعة وسبعون. أهم هواياتي الرياضة، ويوميّا أذهب إلى النادي أو أمارس رياضة المشي على

الشاطئ في أماكن مختلفة. أداوم يوميّا في الجامعة من الثامنة ولغاية الثالثة ظهرا نظرا لوجود تدريب عملي إلى جانب المحاضرات. أحب القراءة كثيرا، وأحب الأجواء الهادئة، وليس لدي كثير من الأصدقاء. ماذا تريدين أن تعرفي أكثر؟

- أشكرك على المعلومات. أنا لم أقصد شيئا يزعجك، ولكن بلا شك أنت تعرف أنّه ليس كل الناس خلف الشاشة صادقين أو جديرين بالتعارف المحترم.

- أقدر موقفك وأحترمه. أما أنا فإني بحاجة إلى صديقة مقربة أو حبيبة، وأنا لست صغيرا لأضيع وقتي على مواقع الإنترنت. لا وقت عندي للعب.

- أتسمح لي بسؤال؟

- تحت أمرك بألف سؤال.

- شكرا للطفك. لماذا ليس لديك أصدقاء؟

- ستعرفين لاحقا، ولكن - بإيجاز- تفكيري مختلف، والناس تجري وراء مصالحها، ووراء من يوافقها في الرأي، بالإضافة إلى بعض التفاصيل الخاصة في حياتي التي لا مجال لذكرها الآن.

- هل أنت متزوج؟

- نعم.

- هل أنت سعيد في زواجك؟

- ليس لدي إجابة الآن.

- متى؟

- عندما يحين الوقت المناسب.

- وهل تعتقد أن زوجتك ستكون راضية لو علمت أنك تكلم فتيات على الإنترنت؟ أو هل تعلم ماذا يمكن أن يكون شعورها؟

- أعتقد أن هذا الأمر يخصني وحدي، وأنا أقدر الأسباب والنتائج.

- أوكي، كيف قضيت يومك؟ (حاولت أن أغير الموضوع تلافيا لأي توتر قد يحصل).

- في الدوام، وبعدها في البيت غداء ونوم ساعتين، ثمّ الذهاب إلى النادي، والآن أشرب قهوتي.

- وهل هذا نظام حياتك اليومي؟

- غالبا أخرج بعد المغرب لتناول القهوة في أحد المقاهي القريبة.

- وحدك؟

- نعم، هل تحبين أن أدعوك لتناول القهوة معي؟

- ههههه. شكرا.

- (وجه مبتسم)

- ...

- أيمكنني أن أرى صورتك؟

- مازال الوقت مبكرا لترى صورتي.

- أتمنى أن أعرف شكل الشخص الذي أتحدث إليه.

- ما رأيك أن تعرف أفكار الشخص قبل أن ترى شكله؟ من المهم أن نتقبل الشخص بغض النظر عن شكله.

- أخمن أنك لست جميلة، لذلك لا ترسلي صورتك.

- لست صغيرة على استفزازات كهذه، فأنا أفعل فقط ما أريده، وفي الوقت المناسب لي.

- ومتى سيصبح الوقت مناسبا؟

- سأخبرك، لا تقلق.

- وأنا سأخبرك شيئا الآن.

- ماذا؟

- أشعر أني مشتاق إليك (وجه مبتسم)، وأتمنى أن أراك.

- كيف تشتاق إلى شخص لا تعرفه؟!

- ربما لإحساسي أن هذا الشخص يفكر فيَّ ويشتاق إليّ، وربما لأنه يراعي مشاعري بشكل ما، وربما لشعوري بدفء مثير عندما أتحدث معه، وربما عندما تقضي ساعات تتخيل وجهه وتنظر إلى وجوه المارة وتقول: ربما كان شبه هذا أو ربما ذاك، وربما إحساس الحنين إلى شيء قادم مجهول بتّ تنتظره كل يوم.

- واو، كل هذا؟

- اعتدت في حياتي أن أعبّر عن مشاعري رغم تعدد الخيبات، ولكن أملي أني سأجد ما أبحث عنه قريبا. وماذا عنك؟ هل لديك ما تبحثين عنه؟

- ربما أحتاج إلى من يبحث عني ويجدني.

- وإن بحثت أنا عنك، هل ستسمحين لي أن أجدك؟!

- هل يغريك أن تبحث عني؟

- جدا، ولكن بشرط.

- ؟

- إن بحثت عنك ووجدتك، فأنت لي.

- إذا أنت عاشق للتملك.

- أنا... عاشق للحب!

- ..

- ومغرم بالبحث عنه، فلا شيء يستحق البحث والعناء في الحياة سوى الحب.

- والصداقة؟

- بعض الأماكن وبعض الأشخاص وجدوا للحب، وما يعقب الحب.

- و كأنك رقم صعب.

- وكأنك شخص أبحث عنه.

- تبحث عن شخص خلف شاشة، زاده مجرد كلمات وبضع ساعات، وحلمه صداقة بريئة تضفي على أيامه لمسة من الحياة، وكثيرا من الشغف.

- لدي من الشغف ما يغرق صحراء نفسك، ومن الحياة ما يطيل عمرك. فقط أعطيني وأعطي نفسك الفرصة للإبحار في عالم يملؤه سحر المشاعر ونشوة اللحظات، وأعدك أنك لن تندمي يوما.

- كلامك شاعري، مفعم برومانسية أحلام وأمل.

- وأنت لي، أمل.

- لقد تحدثنا طويلا، ولم نشعر بتأخر الوقت. للحديث تتمة. والآن تصبح على خير.

- فكري بلذة الأشياء التي تبدأ بمجرد فكرة، وسأنتظرك غدا. تصبحين على خير.

شعور مليء بالدفء والغموض، بالثقة والارتياح، بالضعف والخجل، بالعفوية والطفولية، بالخوف والارتباك. ابتساماتي المتكررة تفضحني، واحمرار وجهي يؤكد لي تدفق الدم في كياني، إحساس لا يشبه أي إحساس، وشخص استطاع فعل ما لم يقدر على فعله أحد قبله. إنها الشرارة الأولى بين رجل وأنثى، شرارة لا يستطيع إشعالها إلا رجل من صوان وامرأة من نار. ونار المرأة كمبدأ الثوار مشتعلة دائما، لا يستفز سكونها إلا رجال ليسوا كالرجال، ولا يمكن إخمادها إلا بنشوة النصر، ولا يطفئ لهيبها إلا بطولة الرجال أو رجولة الأبطال.

أعود، فأقرأ المحادثات عدة مرات، ولا أصدق كم من الوقت أمضينا نتحدث، ولولا إحساسي بالخجل لطلبت إليه أن نكمل الحديث. هذا الرجل يمتلك من الجاذبية حدّا يفوق ثقلي، وتأثيرا يجعلني أفكر فيه دون غيره، ويجعلني أمضي وقتا أمعن النظر في ملامح وجهه في صورة جميلة أرسلها، أمضي وقتا أطول من عمر عشرين قوس قزح،

رسموا عند سطوع شمس دافئة بعد انهمار مطر حنون، أصاب أمكنة أتعبها الجفاف، فجعلها كقطعة حلوى رطبة غارقة في أشهى أنواع العسل، تنتظر فقط من يتذوق طعمها الدافئ!

جاء بدر إلينا، وبدأ هو وأمي باقتراح أفكار لديكور جديد، وكان انسجام الأفكار واضحا بينهما، ولم يتردد بدر في قبول دعوة أمي له للعشاء معنا، بدا بدر وكأنه فرد من العائلة، ومن الواضح تحرره من خجله الزائد، فكل ما كان بحاجته هو مسافة أمان تشعره بالثقة والقبول، وهذا ما لمسه في بيتنا.

أثناء العشاء، شكرنا بدر على الطعام اللذيذ والجمعة الرائعة، وأوضح أنه سعيدٌ جدا بوجوده معنا، وكم يتمنى أن يتعرف إلى فيصل، وهنا بادرته إلى القول:

- اليوم سأعطيك حسابه، وبإمكانكما التواصل أونلاين.

- ألا يفكر في القدوم إلى الكويت؟

- إن شاء الله، ولكنه منهمك في الامتحانات.

أجابه أبي:

- إن شاء الله فسيصبح طبيبا مشهورا، ونفتخر به جميعا.

- ومتى سنفرح بك، يا بدر؟ أم إنّك لا تفضل حياة

الأقفاص الذهبية؟

- هههههه لا أحد يحب الأقفاص يا عمي، ولكن أنا مقتنع بأنّه إطار اجتماعي ضروري، وبالنسبة إليّ أفضل أن أصنع لنفسي أساسا قويا قبل الانشغال بالزواج والعائلة.

- تفكير سليم، ولكن صدقني أنه بإمكانك إنجاز عدة مهام في الوقت نفسه.

- الأهم هو شريكة الحياة التي تساندك، وتعطيك القوة والطموح لتحقيق كل أهدافك، ولذلك كن متأنيا في اختيارك. قالت أمي.

- نصيحة من ذهب، خالتي أم فيصل، وفي كل تأخيرة خيرة كما يقولون.

- لا بد أن الله يخبئ لك الأفضل، وأنت فعلا تستحق الأفضل.

تأثر بدر كثيرا بكلام أبي وأمي، وعرفت كم هو إنسان طيب وحساس، إنسان مفعم بالقيم والإنسانية، مجتهد في عمله، متواضع في تفكيره، وشغوف بتحقيق طموحه.

لقد تحدث إليّ اليوم بأريحية كبيرة، حدثني عن خططه في العمل وعلاقاته الاجتماعية، وحدثني عن فتاة أحلامه وأطال في الحديث، فهو يحبها جميلة هادئة قادرة على فهمه

وتقدير مشاعره وأفكاره، رومانسية عاشقة تقدر معنى الحب والارتباط السامي، حنونا ذات خلق حسن قادرة على تربية الأولاد، وأخبرني أنه سيعيش لأجل إسعادها وتحقيق أحلامها، وأنه سيعاملها كملكة متوجة في حياته تتمتع بالسلطة المطلقة على قلبه، ويعيش وفيا لها طائعا لأوامرها مثلما ستسهر هي على راحته ورفاهية معيشته، وعندما سألته إن كان هناك شيء يلوح في الأفق ابتسم خجلا، وقال "شيء بدأت أشعر بوجوده، وأكاد أراه، وسأمتلك سعادة تكفيني عمرا لو أحس بي يوما". واستأذن للمغادرة.

بدر شخص استثنائي، وسيم، عاقل، هادئ، متعلم ومهذب لأبعد الحدود، يعرف تماما كيف يلتزم حدوده، ويلزم الناس حدودها، مجتهد جدا في عمله، يعامل الناس باحترام وطيبة. ولو كان للقلوب لونٌ آخر لكان قلبه أبيضَ ناصعا، وهو يستحق فتاة تضاهيه روعة، وتفوق الفتيات رقيا ونقاء، وأرجو من كل قلبي أن يلتقي من تسعد قلبه وعمره، وتغمره بحب نقي أبدي.

اشتقت كثيرا إلى كلوني، ماذا تراه فاعلا الآن؟ هل ينتظرني؟ هل يشتاق إليّ أم يمضي وقتا مع غيري إلى حين دخولي؟ فأنا لا أفتح الموقع من الموبايل، أخشى أن يتم حفظ أي معلومات وينكشف أمري، وهذا أمر

لا يليق بي وبسلوكي المؤدب، ولذلك أنتظر وقت دخولي إلى غرفتي لأفتح اللاب توب وأعيش حياتي معه، أسأل نفسي ما مدى هذه العلاقة؟ وهل هي وهم مؤقت أم من الممكن أن نتطور؟ هل أصارحه من أكون أم إنّها ستكون مقامرة لا تحمد عقباها؟ كان في نيتي أن أختار صديقا، ولكن كل شيء يقول إنّ الموضوع ليس صداقة. هو واضح في مطلبه، يريد حبيبة، وما ينقصه ليس الصديقة وإنما الحبيبة التي تشاركه في مشاعره التي تنذر بفيضان قريب لشدة امتلائها. هولا يخشى شيئا، أعطاني معلوماته كاملة، وأرسل صورته ومكان عمله، إذا هو جاد ويعلم ما يريد، وأنا أؤمن بأنّ من حدد الهدف سيحصل عليه عاجلا أو آجلا.!

للمرة الأولى، أبادر إلى محادثته:

- مساء الخير.

- مساء الورد والشوق، يا هلا بالأمل. شلونك؟

- الحمدلله بخير. وأنت؟

- الآن أنا بخير وفرح، ولا أتجرأ على قول ما هو أكثر خشية ردة فعلك.

- هههههه. مهضوم.

- يعني مسموح لي أن أتغزل مثلا؟

- وماذا ستقول مثلا؟

- اممممم إذا تريدينني أن أتغزل؟

- بين الأصدقاء، لا يوجد غزل؟

- وماذا يوجد بينهم؟ شيطان؟

- هههههه. ماذا فعلت اليوم؟

- لماذا تغيرين الحديث؟ لن أتغزل بك اطمئني، وأصلا بماذا أتغزل، وأنا لا أعرف شكلك ولا أعرف أصلا إن كنت أتحدث إلى شاب أو فتاة؟

- سعد، ما هذا الكلام؟

- لقد حدثت معي ومع غيري. ما رأيك أن ترسلي إليّ صورتك ليطمئن قلبي؟

- لا مانع من إرسال صورتي، ولكن بعد أن نتعارف أكثر، ونقرر إن كنا نصلح أصدقاء أو لا.

- هل أنت مرتبطة أو مخطوبة أو متزوجة أو منفصلة؟ هل هناك أي مانع من علاقتنا؟

- سبق وأخبرتك أني لست مرتبطة، ولم أكن يوما.

- إذا ما المشكلة؟ لماذا أنت موجودة أصلا على الموقع؟

- سأرسل صورتي في الوقت المناسب. ولعلمك، أنا هنا

لأتحدث إليك فقط، ولا أكلم أحدا غيرك.

- كم أنا محظوظ!

- تأكد أنك محظوظ، ولا داعي للتهكم.

- (قبلة)

- لم أسمح لك.

- (20 قبلة)، ومن قال إنّي أستأذنك؟! هذا ما أود فعله حقيقة.

- ومن قال إنّ كل ما تود فعله مسموح؟

- أنا أقول، وما عليك إلا التنفيذ، والآن عليّ الذهاب. ليلة سعيدة.

شخص غريب يسلبني قراري من خلف شاشة، مقتحم بلا استئذان، محب بلا أسباب، راحل دون توقيت، عابث بمشاعري وغير عابئ بحراسها، ماذا لو ألح عليّ بطلب صورتي؟ هل سأعرف بنفسي؟ هل أرسل إليه صورتي كما يفعل المراهقون؟ وماذا لو علم أحد من أفراد عائلتي أن صورتي عند شخص لا أعرفه إلا من موقع تعارف؟ سأخسر مكانتي وثقتهم بي، وسأعطي فرصة ذهبية لمن ينتظرون لنا ذلة، ليقولوا هذه تربية الأجنبية وهذه أفعالها، مستحيل أن أضع نفسي أو أضع غيري في موقف محرج

كهذا، لن أتصرف كمراهقة مهما كلفني الأمر، إن أراد صداقة أونلاين كان خيرا، وإلا فهي علاقة لا لزوم لها، وهذا قراري الأخير.

- صباح الخير، أمل.

- صباح الخير. ما الذي أيقظك باكرا؟

- الأمر نفسه الذي أيقظك.

- تخاطر!

- شيء ما يجمعنا، وأنا أؤمن بالتواصل الروحي، وعليك أن تؤمني به وبأنّ هذا قدرنا.

- أرتاح جدا بالحديث معك، سعد.

- وأنا أنتظرك كل يوم، وأحلم برؤية وجهك. بلييز أرسلي إليّ صورة. أريد أن أراكِ. صورة واحدة فقط ولمرة واحدة، واعتبريه رجاء. ألا أستحق أن أرى صورة من أتحدث إليها؟

- بلى.

- كوني شجاعة، لا أعلم مما تخافين. هل أنت متأكدة أن عمرك سيصبح ثمانية وثلاثين عاما، وتخشين إرسال صورة؟

- عيد ميلادي بداية الأسبوع القادم.

- واو. بالتأكيد، أنا مدعو هههههه. سأحلم أني مدعو.

- وهل تعيش كثيرا في الأحلام؟

- أعيش في الأمل، والآن لأمل! أعشق الأحلام وأحاول تحقيقها، ولكن الآن بيدك وحدك تحقيق حلمي. دعيني أراك في عيد ميلادك ولو من بعيد، اعتبريني نادل المطعم. هل يراك نادل المطعم، وأنا محروم من رؤيتك؟

- هههههه مهضوم.

- خذيني، تناوليني بعد العشاء كل يوم.

- أقصد دمك خفيف.

- لي رجاء، وأرجوك وافقي.

- ؟

- عديني بالتنفيذ.

- أعرفه أولا، وبعدها أقرر.

- عديني. أمل، لا تكوني قاسية.

- أعدك.

- أرسلي إليّ صورة.

- سعد.

- قولي سأرسل.

- سعد.

- أرجوك.

- سعد، يكفي.

- أنتظركِ بفارغ الصبر. قوليها.

- سأرسل.

- حبيبة قلبي. (قلب أحمر)

- حبيبة قلبك دفعة واحدة؟

- أعلم أن الجرعة زائدة، ولكنني متأكد أن قلبك يحتملها، وروحك بحاجة إليها.

- سعد، لم اخترت واحدة عمرها ثمانية وثلاثون عاما، وقد كان بإمكانك اختيار واحدة أصغر بعشر سنوات مثلا؟

- أمل، أنا لست مراهقا، ولست هنا لأتسلى، أنا أريد امرأة ناضجة واعية مكتملة، أريد أن نعيش علاقة مستقرة لا تنهيها سخافات الأطفال والمراهقين. فهمت؟

- فهمت، ولكن دعنا نبدأ علاقتنا كأصدقاء، فكل علاقة أساسها الصداقة ستلقى نجاحا أكبر، صدقني.

- لا وقت عندي للصداقة. أريد أن أحب وأغرق في تفاصيل حبيبتي، أريد أن أعيش سنوات شبابي قبل أن يدركني الزمن، أريد أن أعوض كل ما فاتني وأن أستبدل بمرارة عمري حلاوة حب كامل، وأتمنى أن تكوني أنت من يشاركني في كل التفاصيل.

- ولكنك لا تعرف عني شيئا، امنحني وامنح نفسك فرصة نتعارف بها أكثر ونشعر بقربنا من بعضنا، وبعدها نقرر إن كان سيكتب لعلاقتنا النجاح أو لا.

- حاضر. أرسلي إليّ صورة، ومن صورتك سأستنتج الكثير، وإن لم ترسليها اليوم فلن تري وجهي هنا مرة أخرى. سلام.

وأقفل حسابه وذهب. ما هذا الكائن الغريب؟ وعن أية مرارة عمر يتحدث؟ ماهي قصته؟ ولماذا يريد حبيبة، ولديه زوجة؟ وهل حقا سيختفي من حياتي إن لم أرسل الصورة؟ أنا أريده في حياتي، فقد اعتدت وجوده، وفي الوقت نفسه لن أرسل إليه صورتي، فكيف لي أن أثق بشخص لا أعرف نيّاته؟! لن أجعل صورتي تهتز في عين أحد.

يجب أن أبحث عن مخرج من هذا المأزق أحافظ فيه على مكانتي، وفي الوقت نفسه لا أخسره، فقد ملأ حيزا كبيرا من الفراغ الذي كنت أعانيه خلال الفترة الماضية.

فتحت النت، وبدأت أبحث عن صورة فتاة تشبهني وتقارب شخصيتي، متوسطة الطول، نحيفة، شعرها أشقر ناعم طويل يصل إلى أسفل ظهرها، عيناها خضراوان وشفتاها ممتلئتان، بشرتها بيضاء ناعمة. وفعلا، وجدت صورا لفنانة لبنانية مغمورة تدعى "رزايا" لم تمض وقتا في مهنتها، فقد اعتزلت الفن بعد زواجها ونسيها الجمهور، وهي حقا تشبهني بصورها شكلا ومضمونا، فهي جميلة هادئة رقيقة بملامح ناعمة، لدينا الطول نفسه وشكل الجسم نفسه، واعتقدت أن هذا حلٌّ وسطٌ يتغير حسب تطور العلاقة مع سعد.

في المساء، اخترت إحدى هذه الصور ووضعتها صورة بروفايلي، وكانت عبارة عن صورة للوجه فقط، وانتظرت تعليقه عليها، ولكن هذا لم يحصل، أرسلت إليه رسالة أطمئن عليه من خلالها:

- كيف كان يومك؟

- ليس جيدا.

- لماذا؟ ما الذي حصل؟

- مشاكل في الشغل.

- المهم أن صحتك بخير، ومزاجك سوف يتحسّن بعد قليل.

- أنت تعلمين ما الذي يحسِّن مزاجي.

- طبعا أعرف، القهوة.

- بلا خفة دم، لو سمحت.

- ههههه دعني أساعدك على الخروج من حالتك المحبطة.

- (وجه متسائل)

- حدثني ماذا جرى، وأنا قد أجد لك الحل، أو على الأقل عندما تتحدث عن شيء يزعجك، سيخف تأثيره عليك تدريجيا.

- بلا فلسفة، أمل. أين الصورة التي وعدتِني بها؟

- ألا تراها؟

- لا.

- حسنا، انظر إلى الصورة التي تظهر أمامك، وسأرسلها إليك على الخاص.

- هل تقصدين أن هذه صورتك؟

- نعم.

- مستحيل.

- لماذا مستحيل؟

- أرجوك، أمل، لا تستخفي بعقلي. هل هذه صورتك؟

- نعم، صورتي. هل أعجبتك؟

- أنت تعلمين أنها جميلة جدا، ولكني أشك في أن تكون صورتك. إن كنت بهذا الجمال وهذه الأناقة، فلماذا

أنت موجودة هنا؟ من سيتركك في شأنك في العالم الحقيقي؟

- كل شخص له ظروفه الخاصة ليكون في العالم الافتراضي. وفي كل الأحوال، إن لم تصدق أنها صورتي، فبإمكانك حذفها ونسيان الموضوع من أساسه.

- لم أقصد، أمل، ولكنني لم أعتد أن أكون محظوظا إلى هذه الدرجة!

- جمال الشكل ليس كل شيء، يا سعد، هناك أشياء أخرى أكثر أهمية.

- لا شيء أهم عند المرأة من جمالها وجاذبيتها وأنوثتها الطاغية. ولا شيء يهم الرجل أكثر من قدرة المرأة على إذابته بلهيب إغرائها وفتنة جسدها.

- ما هذا الكلام، سعد؟ ألا ترى أنك تجاوزت حدا في حديثك معي؟ لو سمحت فتكلّم بحدود.

- أي حدود، أمل؟ وهل تركت لي حدا أستند إليه؟

لقد بعثرت كياني، وذهبت بعقلي إلى جحيم الشيطان. أنت تعلمين كمّ الإثارة في الصورة؟ لن تتخيلي حالتي الآن، أكاد أجنّ.

- وكأني أرى أمامي مراهقا يخوض تجربته الأولى، ما الذي جرى لك، سعد؟ أنت تحرجني بكلامك.

- وأنت دمرتني بصورتك، بعينيك، بشفتيك، رقبتك كالمرمر، وشعرك مهلكة الشعراء، أتمنى لو أنّي أدخل جهازك الآن، وألتهم هذه الصورة...

- مراهق.

- أمل، لي طلب.

- ؟

- دعينا نخرج من هذا الموقع، دعينا ننتقل إلى الماسنجر، أريد أن أشعر بخصوصيتي معك، أريد أن أسمع صوتك، أريد أن أقضي معك وقتا أطول. أرجوك احذفي الصورة من البروفايل، أريدها لي وحدي، لا أريد أن يراها أحد غيري.

- وما الفرق بين هذا الموقع والماسنجر، وكلها محادثات أونلاين؟

- إنه رجائي، أمل، وأنا سأنفذ أي طلب تطلبينه دون

نقاش، صدقيني.

- حاضر، يا سعد. سأنشئ حسابا على الماسنجر بأسرع وقت، فأنا لا يهمني الآخرون على هذا الموقع. ولكن إياك أن تفكر بالانتقال إلى مكان آخر بعد الماسنجر.

- هههههه المهم أن تكوني معي. أشعر أنك قلبت حياتي رأسا على عقب. وهل ستعدينني أن تحذفي حسابك على "شادو"؟

- بالتأكيد، فنحن من الآن أصدقاء، وأنا سعيدة أنك معي، وسأضع حالتي أوفلاين من الآن.

- وأنا في بحر الأحلام أطفو، وأناجي ربي أن ينقذني من طغيان أنوثتك أيتها الفاتنة المتجبرة.

- سأتركك الآن، وسأتمنى لك أحلاما سعيدة.

- (قلوب وقبل ووجوه مغرمة)

أشعر بنار في جسدي، وراحة في قلبي، إنّه إحساس لا يشبه أيا من أحاسيسي، أحب الطريقة التي يجعلني أشعر بها، مشاعر أنثى في نهاية العشرينيّات لم تختبرها التجارب مع أحد من رجال العالم، أنهض وأقف أمام المرآة، لأول مرة أنظر إلى نفسي بشكل مختلف، لا يعنيني كثيرا شكلي وتسريحة شعري وترتيب ملابسي، يعنيني أكثر تفاصيل جسمي، أنظر إلى خصري وما يعلو خصري، أمعن النظر

في بعض التفاصيل التي ما كنت أعاينها ولا أراها في السابق، أقرّب وجهي لأرى حركة شفتيّ وشكلهما، أنظر إلى رقبتي وصدري، أمعن النظر في كل شيء أنثوي راقد منذ سنوات، واليوم أجده استيقظ فجأة، أغيّر تسريحة شعري وأترك له مطلق الحرية لينساب على وجهي المتورد، بلا إرادة أسحب قلم حمرة أحمر وأمسح به على شفتيّ عدة مرات، وأشد خصري بحزام جلدي، وأنتعل كعبا عاليا، وأتمايل أمام المرآة بحركات لا تشبه نعمة ولا ما اعتادت عليه نعمة، أنظر إلى المرآة وأرى جمالي بنظرة مختلفة. لم أكن أعلم أن نظرة الفتاة إلى نفسها تختلف عن نظرة الأنثى إلى نفسها، الفتاة ترى تفاصيلها الظاهرة بينما الأنثى ترى مفاتنها الساحرة، بلا شعور منها ترى نفسها بعين رجل مفتون بها وراغب في قربها. تحسب حساب الرجل في نظرتها وليس أي رجل، فقط الرجل القادر على استثارة هذه المفاتن واستفزازها، الرجل القادر على إشعال نار في مكامن جاذبيتها، الرجل الذي يحولها من فتاة متزنة إلى أنثى مراهقة تتخيل وتحلم وتنسى عقلها على ضفاف شفتيها الملتهبتين.

سبق أن قالها ستيفن كينغ: "إن صوت الشيطان لطيف على الأذن!"

تريدني على الماسنجر، لك ما تريد يا سعد، فأنت لم

تطلب المستحيل. قمت بتجهيز الحساب وأنشأت إيميلا جديدا خاصا به، سأخلق عالما خاصا لنا يا سعد بعيدا عن عالمنا ولا شأن لأحد به، حدوده غرفتي، وتوقيته قبل النوم، فأنا لدي عالمي أثناء النهار، ولا أحب أن ينتبه أحد لغيابي أو انشغالي.

في الليل، أبلغت سعدا حسابي الجديد، وعبّر عن سعادته بشكل لا يصدق، وأرسل إليّ كل بطاقات الحب والورود ترحيبا بوجودي على الماسنجر، ولم أستطع أن أتحدث معه مطولا لأن أبي وأمي بانتظاري للحديث عن حفلة عيد ميلادي والتجهيزات لها.

اقترحت أمي أن تكون الحفلة في المنزل، فعيد ميلادي في الثلاثين من ديسمبر، ونحن سنخرج للسهرة في ليلة رأس السنة، وكان عمي عبد الله قد دعانا وحجز في أحد الفنادق، ولكن أبي قال إنّ القرار يعود لي، فلا شيء عنده أهم من عيد ميلادي.

لا أدري لماذا رفضت الاحتفال خارجا، وأخبرت والدي أن رغبتي في أن نحتفل داخل المنزل، وأن تقتصر الحفلة علينا نحن الثلاثة، مبررة ذلك بأنّنا سنكون مستعدين أكثر لسهرة رأس السنة، وأنني لا أريد أن يشاركني أحد في فرحتي معهم.

لا أعلم ما الذي جعلني أتخذ هذا القرار، وتناسيت بدرا

وتناسيت معه عمتي وبناتها، ولكن هذه هي رغبتي وقد وافقني عليها أبي وأمي دون نقاش.

قبل عيد ميلادي بيوم، دخل أبي مبتهجا يناديني، وقال إنّ هناك أخبارا سارة لي، فقد كلمه أبو عبد العزيز وقال إنّه بإمكاني استلام مكتبي ومباشرة الدوام في فرع الشركة الجديد اعتبارا من بداية شهر يناير، وأكد على وجودي في هذا اليوم لحضور الافتتاح، وليتعرف إليّ عملاء الشركة وموظفوها، وأتعرف بدوري إليهم.

كنت سعيدة إلى درجة كبيرة، وليست مصادفة أن أودع عامي الثامن والعشرين بخبر سعيد، وهذا يعني لي الكثير. كل الأشياء ميسّرة، وكل مخاوفي من القدوم إلى الكويت تبددت، وبدأت أتأقلم مع كل شيء، وأعتاد على نمط حياتي الجديد، وحتى أمي سعيدة في عملها مع بعض الجمعيات الخيرية، وبدأت بتكوين علاقات مهمة مع نساء كثيرات وجهات مختلفة. أشكر الله على كل نعمه وكل أفضاله، وأتضرع إليه أن تدوم النعم وألّا تزول وأن يحفظ لي أبي وأمي وأخي، فهم كل ما أملك في هذه الحياة.

بدأت أمي منذ الصباح بالتجهيز، يساعدها راجو وشيري، وعندما ذهبت لمساعدتها قالت لي: "أنت اليوم أميرة المنزل، ما عليك سوى الاهتمام بنفسك، لا تنسي موعدك

مع صالون التزيين، فقد حجزت لك موعدا الساعة الرابعة والنصف عصرا لتصفيف شعرك ومكياجك وكل شيء، وما عليك إلا اختيار أجمل فستان لارتدائه، أريدك اليوم أجمل وأسعد فتاة في العالم.

- ولم كل هذا التجهيز والاستعداد، ماما؟ كل ما أريده هو أن أكون معك ومع أبي، ونقضي وقتا سعيدا.

- أريد أن تكوني سعيدة في كل لحظة، نانا. فسعادتي تكتمل بسعادتك، وأنت كنت مصدر سعادتي منذ قدومك إلى هذه الحياة، لم أشعر يوما بعبئك، ولم تسببي لنا أية متاعب أو مشاكل كما هو حال معظم البنات في سنك، فأنت تستحقين الدلال والفرح، وأسأل الله أن أراك عروسا متألقة في يوم زفافك، وأن أرى أولادك وبناتك يملؤون المنزل سعادة، ويغمرون قلبك الطيب بالحب والرضا.

- وأنت تعلمين، ماما، أنك سرّ حياتي، بل أنت الحياة كلها بالنسبة إليّ، أنت نبض قلبي ونضارة روحي ونور عيني، وإذا أنجبت بنتا ذات يوم فسأسميها باسمك، ليكون حبي الأبدي لكاترين!

حضنتني أمي بقوة وحب، وكانت تبكي بحرقة لم أفهم سببها، تضمني تريد إدخالي إلى قلبها، تشم رائحتي وتتنشقني عطرا مسكرا وتهمس في أذني: "أنت نعمة ربي، وأتوسل

إلى ربي أن يحفظ لي نعمتي!".

لا شيء يضاهي حب أم لابنتها، ولا أحد يجيد التفنن في الحب أكثر منها. سأعيش عمري لإسعادك ورد أفضالك يا أمّي، وأعدك أن أكون عند حسن ظنك ومصدر فخرك.

إنها الساعة الرابعة، أبي لم يعد وأمي منهمكة مع شيري في المطبخ، ولا أدري لِمَ كل هذا التجهيز، ولكن كعادتها تعشق التحضير للمناسبات وخصوصا لمن تحبهم، وقام السائق بإيصالي إلى صالون التجميل ولم أنته إلا الساعة السادسة والنصف، فقد قاموا بتجهيزي تجهيز عروس وعدت إلى البيت الساعة السابعة، دخلت الصالة وإذا هي مظلمة ولا صوت ولا أحد في المنزل، ناديت الجميع ولكن أحدا لم يجب، عندما وصلت إلى الصالة، وإذا بأصوات تعادل أصوات فرقة موسيقية كاملة تغني هابي بيرذدي تو يو، يضيئون النور، ويخرجون من المطبخ يحملون شموعا بشرارات طويلة وقالبا من الكيك عليه صورتي وكثير من الأمنيات، يا لهول المفاجأة! كلهم موجودون، أبي وأمي وعمتي ودلال وملاك وبدر وحتى شيري، إذ اتفقوا على إرسالي إلى الصالون ليجهزوا المفاجأة، وأمي تستعد لأنها تخطط لأجمل حفلة، فهم يريدون جوا عائليا دافئا، ولا يريدون أن أشعر بالوحدة في مثل هذا اليوم، كم أنتم رائعون! هنؤوني من قلوبهم وغنوا لي وتمنوا لي

كل الأمنيات الجميلة، وقبل تقطيع الكيك قالت لي أمي: هناك مفاجأة ستسعدك كثيرا، وقامت بفتح موبايلها، وإذا أخي فيصل على سكايب مكالمة فيديو لينضم إلينا ويتمنى لي أسعد عيد ميلاد، وقد تعرف إلى دلال وملاك وبدر صوتا وصورة، وحضر معنا تقطيع قالب الكاتو اللذيذ الذي اختاره بدر، وأصرّ على أن يحضره كهدية لي، وطلب إليّ أن أتمنى أمنية قبل التقطيع، وفعلا تمنيت ولكن لم أفصح عنها، فهي سري وهو سعدي، وقدم الباقون هداياهم الرائعة ولم تنته المفاجآت، فقد أتى أبي وقال لي: "لو كان لك أمنية ثانية ماذا ستتمنين؟". أجبته بكل الرضا: "وهل تركت لي أمنية غير محققة؟!"

قال: "أغمضي عينيك، وافتحي يدك اليمنى"، والآن افتحي عينيك...

يا إلهي! اقتربت واحتضنت أبي بشدة أشكره، وأنا في غاية الفرح، والكل يبارك لي ويدعو.

لقد وضع أبي هدية عيد ميلادي في يدي، إنه مفتاح سيارتي الجديدة!

قال لي: "ستذهبين إلى وظيفتك الجديدة بسيارتك، يا نعومتي".

لم يترك لي أبي حلما إلا وحققه، لم يوفر فرصة لإسعادي

رغم انشغالاته الكثيرة إلّا واغتنمها، لا أعلم إن كان كل الآباء يفعلون هذا لأبنائهم أم وحده والدي!

أمضينا سهرة رائعة مليئة بالمحبة والود والفرح، بدأت أشعر بأجواء العائلة والجمعة الجميلة، إنّه دفء من نوع آخر، شكرتهم جميعا من كل قلبي، ومهما استخدمت من كلمات فلن تعبر عن جزء صغير من امتناني لحضورهم ومشاركتهم لي في هذا اليوم.

دخلت غرفتي، وأنا أرقص من الفرح، فرح ينتشر في كل جزء في كياني، حب للحياة وامتنان لله... كيف رتبت لي هذا القدر الجميل يا الله؟! هل أستحق كل هذه السعادة؟! هل هي دعوات أمي وأبي...؟ وعهدي يا الله أن أساعد كل إنسان محتاج أصادفه في حياتي، وأن أبذل كل ما أستطيع لمنح السعادة لكل من يفتقدها كما منحتني كل هذه النعم.

نمت في هذه الليلة كما تنام الملائكة، أحلم بحياة وردية، بمستقبل جديد، بفرح بريء، أريد أحبتي بجانبي، أتوسل إلى الله أن يحفظهم لي، وأن تكون السنة القادمة مليئة بكل ما يسر الخواطر، وفي الصباح تكتمل فرحتي كما العادة، عندما أستيقظ لأرى أمي تنام بجانبي تداعب خصلات شعري وتسألني مبتسمة:

"هل نامت عيناك الجميلتان جيدا؟"

فأجبها: "نعم، نامت جيدا".

***

في ليلة رأس السنة، كانت أجواء المطعم مذهلة، لا شك أنها مختلفة بتفاصيلها عن كندا ولكنها رائعة... أجواء غنية بالجو الحميمي الدافئ، ولطالما أحببت هذه الأجواء!

أجواء تشعرك بإثارة من نوع مختلف، تشعرك بأنّك عاشق على الرغم من عدم وجود الحبيب، تشعرك بالطيبة والود رغم الانكماش، تشعرك بنظرات عميقة ذات معان وبريئة في الوقت نفسه، تشعرك بأنّه مكان وزمان لرجل وامرأة ذابت أحاسيسهما في دفء كوخ معزول، مغمور برائحة البخور، تتخلله أنوار شمعتين، أضعف نورهما صقيع الخارج، وأشعلت لهيبهما حرارة حب هاربة من قلبين اتّحدا في قبلة سرمدية في زمن اللامعقول.

تقترب الساعة من الثانية عشرة، ويتأهب الناس لتوديع عام واستقبال عام جديد، الكل ودون استثناء يبتهل إلى الله بأمنياته داخل نفسه، وبعضهم لم ولن يجرؤ على البوح بها علنا، في مكان يحتضن أشخاصا مليئين بالأسرار وغارقين في النوايا، وهل يزيد النوايا لذة إلا إخفاؤها؟!

أنظر إلى أبي وأمي، فأرى سحائب الحب تتجمّع في عيونهما، تنتظر على أحر من الجمر تيارا مشبعا بالبخار يحملها

إلى أرضها الساخنة، لتسكب مطرها الغزير على هيئة قلوب حب معتقة من زمن أوقفت ساعاته سكرات حب بطعم العشق والنشوة.

وفي الجانب الآخر، عمي عبد الله وزوجته يتحدثان كعاشق ومعشوق في عمر الحب الأول. أراهن أنّهما يستذكران قصة تعارفهما وحبهما التي أخفياها وراء شاشتين، ويضحكان بشقاوة الشباب على أسرارهما التي حافظا عليها من جهة، وعلى مجتمعهما المخدوع بالعادات والتقاليد من جهة أخرى.

وفي هذه اللحظات، أنا الموجودة التي لا يشعر بوجودها سوى الكرسي وعيون الرجال على الطاولات الأخرى، وهم يختلسون النظر إليّ كلما أتيحت لهم الفرصة، وانشغلت عنهم نساؤهم المرافقات..!

مشاعري تلح عليّ أن تخرج من قمقمها ولا ألومها، ولكنّني أخشى حرية السجناء وأخشى اندفاعهم المتعطش لروح الحياة من جهة، وخوضهم التجربة في العالم الجديد من جهة أخرى.

تدق الساعة الثانية عشرة، وتطفأ الأضواء وتعم أجواء الفرح والابتهاج أرجاء الصالة. الكل يهنئ ويغني ويشارك، يحضنني أبي وأمي ويتمنون لي سنة سعيدة، أبادلهم الأمنيات وأشاركهم في الفرح، ولكنّني في

داخلي منشغلة، وطيف شخص يحوم في نفسي، يشاركني اللحظات، يقاسمني الأمنيات، ويشغلني عمن حولي. أتراه يفكر فيَّ هذه اللحظة؟ هل يتمنى حقا أن أكون معه؟ أم إنّ وجودي في حياته يبدأ وينتهي مع بدء المحادثة وانتهائها؟! لماذا يجعلني هذا الشخص ابتسم كلما تذكرته؟ كيف حظي بالقبول عندي إلى هذا الحد؟

صورته جميلة جدا، وعيناه بنيتان ذابلتان كعيني عاشق يشتاق إلى حبيبته، ابتسامته مرسومة بفرشاة فنان حكيم وضع فيها ألف معنى؛ فهمت منها الوقار والرزانة والتزام حدود الفرح، شعره أسود مصفف بعناية منفردة تشبه أناقة النبلاء، وقد أضاف إليه خصلة بيضاء ليؤكد إعجابه الشديد بنفسه وتميُّزه في ذوقه وشكله، يرتدي قميصا أبيضَ ناصعا وربطة عنق أنيقة يوحيان بنظافة وترتيب يفتقدهما الكثيرون من ناحية، ومن ناحية أخرى ينقلان رسالة عدم اعترافه أو التزامه بالتقاليد المجتمعية والتي تمثل الملابس أحد أشكالها، أشعر بشوق لرؤية صورته وأعلم أن بإمكاني رؤيتها على أي من حساباته على السوشيال ميديا...

في لحظة فتح الموبايل، تصلني رسالة: "كل عام وأنت أجمل فتاة صادفتني وبقيت معي!".

إنه بدر، لم ينس أن يعايدني بالعام الجديد ويشاركني في

أمنيته، دائما هو المبادر، يغمرني باللطف والاهتمام؛ وهذا ما يجعلني أشعر أني مقصرة معه، ليس من باب المصادفة أن يكون معي في كل لحظة فهو مشغول دائما ولكنه أثبت أن لي حيزا من وقته في أي وقت وأنه معي في كل مكان، لن أكتفي برد الرسالة، يجب أن أتصل، وغدا سأرسل له هدية تليق بنبله لعلّي أرد جزءا من اهتمامه، فلست من يتجاهل أصحاب القلوب الراقية.

انتهت الحفلة وعدنا إلى البيت، ونحن جميعا في منتهى السعادة، لا أعتقد أن العاشقين يرغبان بإكمال سهرتهما معي، ولذلك قررت أن أكون ذكية وأعتذر منهما؛ بحجتي أني أشعر بالنعاس بعد سهرة يومين متتاليين. لا شك أن قراري أسعدهما، فهما في مثل هذا اليوم من كل سنة يُجرون جردا لأحداث السنة الناجحة والفاشلة، ويخططون لسنة قادمة أكثر نجاحا وتجاوزا للأخطاء بجوّ من الحب والرومانسية، وهذا ما جعل حياتهم هنيئة ومستقرة مكللة بأجمل شكل للعشق والحب والتفاهم.

أخيرا، دخلت غرفتي مملكتي، التي أصبحت شاهدة على أولى خصوصياتي. عندما كنت في كندا، لم أعتد البقاء مطولا وحدي في الغرفة، فقد كانت أمي رفيقتي وشريكتي بسبب سفر أبي المتواصل وبسبب وجود أخي، حيث كنا نقضي أوقاتا في التسلية والتحضيرات المشتركة

لكل شيء. أما هنا فالبيت كبير جدا، وغرفتي جناح كامل ويطلق عليها اسم "دار"، وأبي موجود يوميا في المنزل إلا ما ندر لسفر ضروري.

بتّ أقضي وقتا أطول وحدي، وأشغل نفسي في أشياء جديدة، وعندما أدخل هذه الغرفة، تستيقظ الأنثى في داخلي وتنام بقية تفاصيلي. لم أنس وقوفي أمام مرآتي متذكِّرة نظرات الرجال والشباب إليّ في المطعم، نظرات إعجاب وافتتان وربما أكثر، لا أعلم إن كان شكلي المختلف قد أغراهم، أو إنّهم ينظرون بحكم العادة، أو ربما أنا متوهمة!

ولكن المهم في الموضوع أني بدأت أحب شكلي المميز وأهتم به أكثر، وأبتسم لمفاتني وأطلب إليها أن تكتم السر؛ فكلّ شيء يحدث داخل جدران الغرفة وبابها المقفل، سرٌّ شهوده اللابتوب والسرير، وهل يمكن للابتوب أو السرير أن ينطقا في يوم من الأيام!

استبدلت ملابسي، واخترت فستان نوم أسود قصيرا مصنوعا من الدانتيل الناعم ليليق بليلة مميزة مثل ليلة رأس السنة، استلقيت على فراشي وأنا في قمة الاسترخاء وهدوء الأعصاب، ولكنّي لن أخلد إلى النوم قبل أن أعايد صديقي وأتمنى له عاما سعيدا، فتحت الماسنجر، ويا للخيبة! وجدته أوفلاين وبدون حتى رسالة واحدة أقتات عليها

حتى الصباح. ربّما يقضي هذا اليوم مع أهله وقد تأخر الوقت، وربّما نام، وكانت هذه تخميناتي، وبما أني أونلاين أردتُ أن أدخل على "شادو" لأحذف حسابي، ويا للخيبة مرة أخرى!

دخلت على حسابه، وإذا حالته تقول: "آخر ظهور منذ ساعين"، والآن الساعة الثالثة، إذا ما زلت تبحث يا أستاذ سعد، لم تكتف بأمل، تريد في حسابك الافتراضي رصيدا ثابتا وآخر احتياطيا وربما عشرات الأرصدة وأنا، البسيطة الساذجة أشعر بتأنيب الضمير لأني أخدعك مؤقتا بصورة ليست صورتي، أيقنت أن لي كل الحق في عدم الثقة بك وأن تحسبي في مكانه، ولكن لا بأس لا يليق بي لومك ولا يليق لعقلي أن أقول إنك خيبت أملي؛ فأنت مجرد شخص عرفته في شارع النت مصادفة، وليس على العابرين في حياتنا عتبٌ!

أغلقت اللابتوب وخلدت إلى النوم، ولم أسمح لنفسي بالتفكير، وأوصدت الباب على مشاعري؛ فليس لي جلد على مواجهتها، غدا عطلة رسمية، سأفكر فقط ماذا أشتري هدية لبدر غدا، وكيف أجهز ليومي الأول في العمل...

في الصباح استيقظت مبكرا جدا على غير العادة وحتى قبل قدوم أمي إلى غرفتي كما في صباح كل يوم مهم ولعلها صدفة جميلة، فأنا لا أريد لأمي أن ترى عينيّ الجميلتين،

وهما لم تناما بشكل جيد ليلة أمس.

ذهبت إلى الحديقة، وقمت بترتيب أغصان بعض الورود، وكنت في غاية السعادة عندما رأيت أزهار النرجس تتفتح، فقطفت منها زهرتين، ودخلت إلى المطبخ وطلبت إلى شيري تجهيز القهوة التركية، ووضعت في طبق كل فنجان زهرة لأمي وزهرة لأبي وانتظرتهم في الصالة، لمسة الزهرة البسيطة صنعت صباحا مميزا لنا جميعا، تناولنا الفطور وأخبرتهم أنني سأذهب إلى السوق لشراء هدية لبدر، فطلب إليّ أبي الذهاب بسيارتي كتجربة، وخصوصا أنه يوم عطلة والشوارع غير مزدحمة ومنها لكسر حاجز الرهبة قبل ذهابي غدا للعمل، وما ساعدني على القبول هو عرض أمي أن تذهب معي كدعم معنوي ورفقة طريق.

في البداية احترت ماذا أختار له، فهو يمتلك شخصية متميزة بسمات خاصة، ولذلك يجب أن أختار له هدية ترضي خصوصيته. ولأنني لا أمتلك الخبرة في انتقاء هدايا للشباب، وقع الاختيار بمشاركة أمي على قلم كارتير ذهبي اللون بعلبته الحمراء الأنيقة ولم أكتف به، بل ذهبنا إلى محل حلويات واشتريت علبة شوكولا فاخرة من "باتشي" التي أخبرني بدر أنه يعشقها، وقمنا بتغليف الهديتين معا بطريقة أنيقة تليق ببدر، ولأول مرة أشعر أنني مهتمة بهذه الهدية وحريصة على أن تنال رضا وإعجاب من ستهدى إليه

وسعيدة في الوقت نفسه. ولعلّي أبرر لنفسي سبب سعادتي، أجل أنا مهتمة ببدر وأتمنى إسعاده لأنه يستحق؛ فقد أحسست بوجوده بجانبي منذ قدومي إلى الكويت، ولن أنسى موقفه الثابت من معارضة أهله فيما يخص علاقته معنا، وبلا تردد اتصلت معه ورجوته أن يقبل دعوتي وملاقاتنا أنا وأمي إلى إحدى الكافيهات لنشرب القهوة في أول يوم من أيام السنة الجديدة، وهو بدوره لم يتردد في قبول الدعوة، وأخبرني أنه كان سيأتي لزيارتنا ومعايدتنا في العام الجديد.

لم نكد نصل أنا وأمي إلى الكافيه حتّى اتّصل أبي يستعجلنا في العودة؛ لأن عمتي اتصلت وقالت إنّها في الطريق إلينا، ماذا نفعل الآن؟ بدر في طريقه إلينا وشارف على الوصول، ومن المخجل الاعتذار، وأيضا أمي لن تقبل أن نتأخر على عمتي فهي تحترمها جدا وتقدرها.

وصلنا إلى حل، وهو أن تأخذ أمي سيارتي كي لا نتأخر ويأتي السائق ليعيدني إلى البيت، وفي الوقت نفسه وصل بدر، وكانت تبدو عليه السعادة والتفاؤل في هذا العام الجديد وفي لقائنا. سألته أمي عن أحواله وأحوال أهله، وأخبرها أنه كان ينوي أن يزورنا اليوم للتهنئة بالعام الجديد وإكمال بعض المقاسات في الصالة، فشكرته أمي ثم استأذنته، فهي مضطرة للمغادرة وقالت لي إنّها سترسل

راجو ليعيدني، ولكن بدرا قال لها:

- خالتي، إن أحببتم فبإمكاني إعادة نعمة معي، فأنا في كل الأحوال ذاهب إليكم.

- لا تتعب نفسك، ربما لديك أشغال ولا داعي للتعطيل.

- رددت بسذاجة: "فكرة جيدة دعي راجو لمهمة أخرى، وأنا أذهب مع بدر"، وهنا أدركت أني ارتكبت أولى حماقاتي؛ فجواب أمي كان يتضمن الرفض ولكن بطريقة دبلوماسية.

- حسنا بانتظاركم، لا تتأخروا.

جاء جواب أمي مراعاة لمشاعر بدر بالدرجة الأولى، ولكنها أدرى بما يترتب على قرار بسيط كهذا، أمي بارعة بمراعاة وتجنب ردود الأفعال، لم تكن تريد أن يوصلني بدر؛ لأنها تتجنب أي موقف قد يكون استفزازيا لأي أحد أو لتفكيره. ولذلك قررت أن أتصل بـ راجو ليأتي.

- هيبي نعمة، بماذا تفكرين؟

- آسفة بدر، أرجو فعلا ألّا أعطلك عن أشغالك. سأتصل بالسائق.

- أية أشغال نعمة، اليوم عطلة أصلا، وأنا في كل

الأحوال ذاهب إليكم، والمسافة قصيرة جدّا. ولا تقلقي، أنا اليوم سأعمل سائقا بالمجان عند ابنة عمي الأميرة، لعل الله يكرمني بمكافأة من عنده لقاء عملي الخيري.

- هههه سأقدّم هدية مني بدلا من المكافأة، ما رأيك؟

وقمت برفع الهدية من الكرسي المجاور وقدمتها لبدر، وقلت له:

- كل عام وأنت بألف خير، بدر، كم أتمنى أن يكون عاما مليئا بالفرح والنجاح لك ولنا جميعا! هذه هدية بسيطة للذكرى.

- نعمة...

- اخترت هدية تمكنك من كتابة بعض الذكريات الجميلة بخطك الجميل المتميز، فأنا أؤمن بأنّ دفتر المذكرات

وألبوم الصور يشكلان تذكيرا صادقا لتفاصيل قد تنسى مع الزمن.

بدا الارتباك والخجل على وجه بدر، يبدو أنها المرة الأولى التي يتلقى فيها هدية من فتاة، مثلي تماما فهذه هي المرة الأولى التي أقدم فيها هدية لرجل، ولكني اكتشفت أني أكثر جرأة منه ربما لأني معتادة على التعبير أكثر منه، نظر إلى الهدية ثم نظر إلي، وقال:

- كيف للحظة واحدة أن تخلق كل هذا الكم من السعادة والأمل؟! أنا عاجز عن أن أعبر لك كيف أشعر الآن، إن قلت: شكرا فهي لا تتعدى نقطة من بحر امتناني وسروري، وإن قلت: كم أنت رائعة! فليس لتكرار الحقيقة أثر على صاحبها، وإن التزمت الصمت فالصمت لا يليق. سأقول لك: إنك أسعدت يومي وسنتي الجديدة وعمري، وأشعر أني المحظوظ الوحيد في العالم؛ لأني تخيلت حلم سعادتي وأنت من حقق لي هذا الحلم... حقا لقد أبدع من أسماك نعمة الله، وأنا اليوم أغرقتني نعم الله.

- كل هذا بسبب هدية؟

- لا، بسبب صاحبة الهدية!

- اشرب القهوة قبل أن تبرد.

- ربما أحتاج أن تبرد قهوتي فعلا، فأنا لا أحب الحروق!

توجهنا إلى البيت، وفي الطريق بدأت أتساءل: ما سر التبدل في كلام بدر وأسلوبه، ونظراته وجرأته المفاجئة؟ ما الذي يحول شخصا خلال زمن قياسي تحوّلا كبيرا؟ يبدو أن معظم الأشخاص يحملون جانبا مخفيا في شخصياتهم ينتظر السبب والظرف المناسبين والشخص المناسب ليتم الإعلان عن وجوده أو ربما بلا إعلان، جانبا مخفيا حان وقت

ولادته، وهل هناك شيء يوقف ولادة آن أوانها؟!

نظرت إلى بدر يقود السيارة بهدوء وتأمل، ووجهه مشرق كطفل أخرجته أمه إلى الحديقة بعد فصل شتاء كامل، فرح خفي يتسلل من كل ناحية في وجهه، أحس بي أنظر إليه، ابتسم.، وقال:

- أكاد لا أصدق نفسي، في أول يوم في السنة الجديدة، دعوتِني لنتناول فنجان قهوة سويا وقدمت لي هدية رائعة، وأنت الآن معي في سيارة واحدة نتجه إلى بيتكم لأكمل عملي في صالتكم. لم أعتد مثل هذه البدايات من قبل، وما كنت لأحلم أن تكون بداية هذه السنة بكل هذا الجمال، حياتي رتيبة خالية من عناصر الفرح والمفاجآت السارة، كل الأيام تشبه بعضها إلى درجة أكاد أتوقع ما سيحصل لعدة أيام قادمة وربما لعدّة شهور. دخولك إلى حياتي أحدث فرقا كبيرا، فأصبحت المحور الذي تدور حوله أحداث حياتي، أجدك - ومن غير قصد- معي في كل خطوة وكل فكرة وكل إغماضة عين ولفتها، أحسب حساب رأيك في كل شيء. نعم، أفعل كل شيء كما يناسبك أنت وكأنك معي تراقبين ما أفعله، وكل أمنيتي أن تنال إعجابك ورضاك فيما لو حكمت عليها! لا أدري كيف أشكرك على الإضافة التي أضفتها إلى حياتي وكيف أعبر عن امتناني لك، وأعدك أن أبقى ممتنا لك لآخر يوم

في عمري.

- بدر، كم يسعدني ما أسمعه منك! وصدقني أنت من منحني هذا الإحساس وأنا الشاكرة الممتنة لوقفتك بجانبي وجانب عائلتي، كنت أتخيل حياتي هنا أكثر صعوبة ولكن وجودك هوّنها، وأعدك أنني لن أنسى حرصك على علاقتك الطيبة معي، وأنت البار المطيع لأهله بشهادة الجميع.

- سأكتب مذكراتي بقلمك لتكون مليئة بالإيجابية والنقاء، وسأتناول كل يوم حبة واحدة من الشوكولا، وأتلذذ بطعمها الحلو وأستشعر ذوبانها في فمي لآخر ثانية، وأعدك أني لن أشرب بعدها الماء حتى لو مت من العطش ههههه.

- ههههه على فكرة...

- ماذا؟

- ما زال في المحل الكثير من الشوكولا.

- ولكن ما يعنيني هو ما أهديتني، ويكفيني!

وصلنا إلى المنزل، وكانت عمتي وملاك وأبي يشربون الشاي، ولن أنسى في حياتي تلك النظرة التي قابلتني بها ملاك، سلمنا عليهم وإذا بصوت أمي قادمة من المطبخ:

- نانا حبيبتي، أعتذر، لأنّ راجو في المنطقة الصناعية لإصلاح السيارة ولم أستطع إرساله لإحضارك، وأعتذر، يا بدر، على عنائك، ولكن المصادفة شاءت أن نلتقيك، وأرجو ألّا يكون عمك قد أحرجك عندما طلب إليك إيصال نعمة.

لقد أنقذت أمي الموقف كعادتها، وقد علمت أن عمتي قد استغربت قدومي مع بدر، فافتعلت هذه التمثيلية بالاتفاق مع أبي، والحمدلله أن بدرا فهم المقصود وأجاب: "أنا حاضر في أي وقت يا عمي، ونعمة مثل أختي وما زالت جديدة في البلد، ولو شئت يا عمتي أوصلكم أنت وملاك فقد أحببت المهنة الجديدة هههههه". ضحكنا جميعا والحمدلله يبدو أن الموضوع مر بسلام. وعندما استأذن بدر للذهاب، اقترب مني وقال مازحا: "إذا كنت تريدين أن أوصلك غدا إلى العمل فأنا جاهز".

ضحكت كثيرا، وقلت له: هندسة الديكور تليق بك أكثر. وكانت ملاك لنا بالمرصاد لا أدري ما الذي يغير مزاجها كلما رأتنا أنا وبدر.

***

بينما كنت في فراشي أتصفح الإيميلات، وإذا رسائل الماسنجر تتدفق دون توقف.

لا رغبة لي بالمحادثة معه ولا رؤية رسائله ولكنه بدأ برسائل التنبيه فقد رآني أونلاين عندما فتحت الهتميل ظهرت أونلاين، كانت رسائله مليئة بالعتب واللوم وأني غير مهتمة به ويعاتبني أني لم أعايده بالعام الجديد وأنه بانتظاري منذ يومين ولم أدخل وأكمل:

- لم تفعلي بي هكذا؟ إن كنت لا تريدين محادثتي فأخبريني.

- أهلا، سعد.

- برودك يقتلني، هل هذا كل ما قدرك الله على قوله؟

- كل عام وأنت بخير، وأرجو أن تكون قد وجدت صحبة مناسبة لقضاء ليلة رأس السنة.

- عن أي صحبة تحدثين؟ تعلمين أنه ليس لدي أصحاب، وأصلا ليس لدي أحد لأسهر معه.

- بالبحث ستجد كل شيء، إن شاء الله.

- أمل، لم كل هذا البرود في حديثك معي؟

- فعلا الجو بارد، وعلي أن أنام، فغدا عندي دوام.

- وأنا أيضا عندي دوام وتعلمين أني لا أسهر إلا في عطلة نهاية الأسبوع، ولكن لن أستطيع النوم دون التحدّث إليك، هل تعلمين أني كالمجنون أنتظرك وأبحث

عنك، في ليلة رأس السنة تمنيت لو أحادثك بحثت عنك وانتظرتك هنا وعلى شادو ولكنك أوفلاين في كل الأماكن، كيف أجدك لنتكلم عندما أشتاق إليك؟

- ألغيت حسابي على شادو.

- أفضل قرار، شكرا لأنك قمتِ بإلغائه.

- لماذا؟ كي لا أراك، وأنت تبحث عن حبيبة هناك؟

- أمل، ما هذا الكلام؟! أقسم إنّي لم أكلم أحدا مذ تعرفت إليك.

- ولماذا حسابك مفعل، وحالتك أونلاين طول الليل؟

- فقط لأني نسيت أن أغلق الحساب.

- وهل عليّ أن أصدقك؟

- وهل أقسم لك لتصدقي؟

- لا، لا داعي. أنت حر.

- لا، لست حرا، وكلامك يعني أني لا أهمك ولا يهمك إن كلمت أحدا، ويعني أنك أنت أيضا حرة.

- بالتأكيد، أنا حرة.

- أمل، لا أحب أن تكلميني بهذه الطريقة.

- أنا لا يهمني ما تحب، تصبح على خير.

أقفلت الحساب، وقمت بتجهيز ملابسي التي سأرتديها غدا كاملة، فلست الفتاة التي تقبل أن تكون حالة احتياطية في حياة أي شخص افتراضيا أو واقعيا، ونمت بعمق أحلم بعملي الجديد، وأدعو الله أن يوفقني في رحلتي الجديدة.

***

الفصل الرابع

فصل جديد في قصة حياتي، وصفحات بيضاء تنتظرني أن أملأها، ولي الحرية بما أملؤها، فهي صفحات حياتي ملك لي وحدي أملؤها بالأبيض والأسود أو بالألوان، أملؤها كلها أو نصفها، أكتب فيها الصحيح أو الخطأ، فهذا أمر يخصني، وأنا المسؤولة عما سيقرأ فيها، ولكن كل ما أنوي فعله الآن هو أن تكون قصة ذات فصول مميزة وصفحات ناصعة. من عادتي أن أضع تصورا واضحا لكل طريق سأمشي فيه، تصورا لخطواتي، أهتم جدا بالبدايات حتى تكون النهاية كما أريد، واليوم أنا مشغولة برسم طريق جديد مهم سيثبت أقدامي على أرض الحياة العملية. بداية حياتي العملية يجب أن تكون مرتكزة على أسس صحيحة، فأنا أمتلك كل المؤهلات للتميز في عملي، وسأضيف إليها إخلاصي ونشاطي وقدرتي على الإبداع في مجالي، وسأنشئ علاقات عمل وأحافظ عليها بالاحترام والثقة والتواصل فعلا وأداء وليس مجرد كلام، وسأحلم منذ اليوم الأول بالوصول إلى القمة، وسأجعل عملي متعة قبل أن يكون مهمة وواجبا.

وصلت إلى فرع الشركة وتوجهت إلى مكتب المدير، عرفت بنفسي وأبديت جاهزيتي للعمل، كان مدير الفرع شابا وسيما رحب بي أجمل ترحيب، ترحيب

شخص كان بانتظاري أو يعرفني من قبل، وذهب معي بنفسه إلى غرفة مكتبي وعبر عن استعداده للمساعدة وتلبية كل ما أحتاج إليه، عرفني باسمه وأعطاني كرته وعليه رقم المكتب والموبايل والإيميل، ثم ذهب معي في جولة عرفني بالموظفين وعرفهم بي، وطلب إلينا أن نكون جاهزين الساعة الحادية عشرة لاستقبال الضيوف المشاركين في الافتتاح.

عدت إلى مكتبي، وأنا في غاية الارتياح أنظر من النافذة التي تطل على شارع رئيسي وساحة لركن السيارات، ومن بعيد يطل جانب من البحر إطلالة جميلة مفتوحة عبر المدى، وهذا شيء يعني لي الكثير، فأثناء مقابلتي قلت إنّ بيئة العمل المادية الإيجابية لها دور مهم في راحة الموظف ورضاه الوظيفي، وها هو مكتب أنيق مريح بأثاث أنيق وأجهزة حديثة وإطلالة تسرّ النفس.

دخل الفرّاش يحمل في يده صينية فيها قهوة وماء بارد وبعض حلوى القهوة وثلاث أقحوانات صغيرة، وقال:

- هذه ضيافة من الأستاذ عزيز لحضرتك.

- هل تقصد الأستاذ عزيز المدير؟

- نعم، مدام.

لم أتردد لحظة في الاتصال به وشكره على كرم الضيافة،

فأجابني:

- لم أفعل إلا الواجب، وإن المدير العام ومالك الشركة أوصياني شخصيا بالاهتمام بك.

- الأستاذ أبو عبد العزيز. نعم، إنه صديق والدي.

- وهل تعلمين أن عمي أبو فيصل صديق والدي أيضا؟

- أبي؟ لا، لا أعلم، لم تتح لي الفرصة لأتعرف إلى أصدقاء والدي، فأنا كنت أعيش خارج الكويت.

- في كندا، وأنت هنا منذ حوالي أربعة أشهر فقط.

- كيف عرفت؟ أنا لم أذكر هذا في المقابلة ولا في السي في.

- امممم هذا ما قالته لي قارئة الفنجان أمس.

- في كل الأحوال، فرصة سعيدة أستاذ عزيز، وأرجو أن أكون عند حسن الظن.

- سيكون أبي مع الضيوف، وسأعرفك به.

- من دواعي سروري بالتأكيد، وأشكرك مرة أخرى على الضيافة وحسن الاستقبال. طاب يومك.

- كوني جاهزة بعد أقل من ساعة. إلى اللقاء.

وفعلا قبل الحادية عشرة، كانت كاميرات التلفزيون

والصحافة داخل الشركة، ووصل وكيل الوزارة وبعض رجال الأعمال وعمي أبو عبد العزيز، تذكرته جيدا فقد سبق لي أن رأيته في المطعم، كانت جولتهم في المقر سريعة التقطوا بعض الصور وافتتحوا البوفيه، ولكن السيد وكيل الوزارة كان مستعجلا وغادر مبكرا. أثناء وجودي في البوفيه، كنت أقف بعيدة بجانب طاولة صغيرة عندما أتاني الأستاذ عبد العزيز، وقال:

- ألا تريدين أن تتعرفي إلى والدي صديق والدك؟

- بكل تأكيد، يشرفني ويسعدني.

- ألاحظ أن لهجتك ليست كويتية، هل تشعرين أنها ثقيلة وتستبدلينها بكمات أسهل؟

- ههههه لا، أنا أمي سورية، ويبدو أني متأثرة بلهجتها أكثر.

- هههههه لا ألومك، فتأثير اللهجة الشامية قوي، وتأثير نسائها أقوى!

- هل تلمح إلى شيء؟

- ليس تماما، ولكن لنقل إن للحديث بقية. تعالي.

وقف عبد العزيز بين المدعوين، وقد كلمه الجميع باحترام ومحبة، ممّا دل على مكانته المميّزة بينهم، وناداني، ثمّ قال:

- والدك اعتذر عن عدم حضور الافتتاح، ولكنه أرسل الورد والأمنيات.

- نعم، لقد قال إنّ لديه اجتماعا مهمّا في هذا الوقت.

- ماذا تحبين أن تشربي إلى حين عودة والدي، فقد خرج مع أحد الضيوف؟

- أفضل أن أعود إلى مكتبي، لربما مر السيد أبو عبد العزيز ويجب أن أكون موجودة هناك.

- هههههه ألم تقولي إنه صديق والدك؟ لم القلق؟

- هذا احترام والتزام، والانطباع الأول عادة يدوم، أستأذنك في الانصراف.

- تفضلي.

قالها وهو ينظر إليّ باستغراب وضحكة غير مفهومة بالنسبة إليّ، ولكني لم أهتم، فانطباع العم أبو عبد العزيز والتزامي هما الأهم. بعد مرور حوالي ربع ساعة، وإذا الأستاذ عزيز يتصل ويخبرني أن السيد أبو عبد العزيز بانتظاري في مكتبه. ذهبت مباشرة فسلّمت عليه وعرفته بنفسي، فسألني عن والدي وعن شعوري في أول يوم في العمل، وطمأنني أن كل شيء سيكون سهلا بعد مرور وقت قصير، وأخبرني أنه كلف عزيزا بمتابعتي حتّى أتمكن من كل المهام وأمتلك مفاتيحها، وألّا أشعر بأي إحراج

للاستفسار عن أي شيء، أجبته ببراءتي المعتادة:

- الأستاذ عزيز لطيف جدا، وأخبرني أن والده صديق والدي، وهو موجود هنا وسيعرفني به.

- والده صديق والدك؟ قالها وضحك ضحكة عالية.

لم أعلم كيف أرد، وأحسست بإحراج كبير، أنا لم أقصد إدخال العلاقات الشخصية في العمل، وشعرت أن عزيزا قد ورطني في سوء فهم كنت في غنى عنه.

- أنا آسفة. لم أقصد، فأنا تلقائية في كلامي، وبالتأكيد أنا لا أربط العلاقات الشخصية بالعمل.

- ههههه ماذا تقولين يا ابنتي، أنت لا تعرفين من هو والد عزيز؟

- لا.

- عبد العزيز ولدي، يا نعمة، ونحن نناديه عزيز للتخفيف. وهذه لن تكون حركته الأولى، ستعتادين حركاته ولكن كوني حذرة.

- في الحقيقة، هي مفاجأة.

يأتيني صوت عبد العزيز من الباب ضاحكا:

- أرجو أن تكون مفاجأة سعيدة.

- سأردها إليك يوما بمفاجأة أسعد.

قلتها مازحة، وأنا أنظر إليه بتوعد.

- ردها إليّ إن استطعت يا أبا جهل.

يضحك بانتصار.

أكاد لا أصدق ما يحدث. إذا الأستاذ عبد العزيز مدير الشركة وابن مالكها، ولهذا السبب يمتلك هذه المكانة المميزة بين الموظفين والمدعوين، كيف لم أربط بين الاسمين؟ وكيف لم أفهم صداقة والده ووالدي؟ لم هذه الشقاوة يا عبد العزيز؟ أنت تعرف عني كل شيء وتلعب منذ الصباح، وأنا مهتمة بانطباع عمي أبو عبد العزيز عني، والآن ما هو انطباعك أنت عني؟ أتراني فتاة ساذجة تمرّ عليها المسائل، وهي غافلة؟ أنا فعلا كنت ساذجة، وكل ما خططت له أفسده عزيز، لقد أفسدت علي مزاجي يا عزيز وانتصرت علي في اليوم الأول، أشعر بشيء من زوال البهجة التي كنت أشعر بها في الصباح. وصلت إلى المنزل وأنا أعاني الشعور ذاته، وعلى الغداء أخبرت أبي بما فعله عزيز، وسألته إن كان يعلم أنه مدير الشركة الجديدة أم لا، فأجابني: إنّه يعرف عزيزا ولكنه لم يكن يعلم أنه المدير، وقال لي: لا تهتمي، فهذا أسلوب عزيز، وأخبرني تفاصيل كثيرة عنه، فهو الولد الوحيد بين خمس أخوات والمدلل لأبعد حدود الدلال، وهو ذراع أبيه اليمنى يعتمد عليه في

كل أعماله ويهيئه لاستلامها، وهو ناجح في العمل ولكن لا تخلو حياته من بعض المغامرات وفي كل المجالات، وأنه شارف على الثلاثين ولم يتزوج بعد ولم يرتق إلى مستوى الرزانة التي يتمتع بها والده، ولكنه ذكي جدا وماهر في إدارة أعمال والده بكل أنواعها.

رغم أن ما فعله عزيز لا يتعدى مزحة صغيرة، ولكنها أربكتني. هل كان يختبر طريقتي إن كنت سأستغل أني موجودة في الشركة من قبل صاحبها شخصيا؟ أم إنّه يريد أن يثبت أنه المالك والمدير ويريد من الجميع التزام حدودهم؟ كثير من التساؤلات تراودني، ولا أدري لماذا لم أعطِ الموضوع أهمية؛ لعله تصرف على طبيعته، وهذا أسلوبه لكسر حاجز الجليد الأول بينه وبين موظفيه. نعم، هذا ما سأقنع نفسي به، والحمدلله فقد كانت ردة فعلي مناسبة، ولم يحدث شيء أندم عليه.

***

طوال اليوم الأول في العمل ورغم كل أحداثه الكثيرة، لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير في سعد، كان يلازمني في كل حركة وكل كلمة وكل موقف، وفي بعض الأحيان يدور حوار بيني وبينه من وحي خيالي يجعلني أبتسم سرا، ورغم انزعاجي منه إلا أنني أشعر بشوق لمحادثته، فحديثه يسعدني. لنفترض أنه غير جاد، ولعوب،

ويحادثني كما يحادث العشرات، أتساءل: هل أنا جادة؟ في الحقيقة الموضوع للتسلية وإرضاء جانب مكبوت داخلي؛ يعني أنا لا أختلف عنه كثيرا، فقط أنا لا أضيف أشخاصا آخرين وأحادثهم. إذا لا شيء أخسره من محادثته، وفي أي لحظة أغلق حسابي وكأن شيئا لم يكن، وهكذا أقنعت نفسي وفتحت الماسنجر، يا له من مسكين! لقد أرسل عشرات الرسائل ووجوها باكية، ويؤكد لي أنه أقفل حسابه على شادو، ويطلب إليّ أن نبدأ بداية جديدة، وليثبت لي جديته قام بإرسال إيميله ورقم هاتفه النقال والكثير من القلوب والقبل؛ مما جعلني أرد وأقول:

- مساء الخير.

- مساء النور.

- كيف حالك؟

- لو كان حالي يهمك لكان اهتمامك أكثر، وما كنت لتهمليني بهذه الطريقة. أمل، أنا لا أستحق منك كل هذا العقاب.

- كل هذا العقاب؟ وكأننا نعرف بعضنا منذ عشرات السنين، أو ربما كنا زملاء صف.

- السنون ليست مهمة. أمل، أنت اختصرت لي السنين، وأنا لا أريد من السنين إلا وقتي الذي أقضيه معك.

- مطلوب مني أن أصدق كلامك؟

- رغما عنك ستصدقينه، فأنا لا أكذب. أمل، لن تتخيلي كم أنا مشتاق إليك، وأتشوق لأسمع صوتك! حرام عليك أن تعذبيني بهذه الطريقة. يكفيني الظلم والحزن اللذان عشتهما في حياتي، كوني سببا لسعادتي، ولا تزيدي أحزاني.

- سعد، أنا لا أقصد أن أسبب لك أي ضيق، ولا أعلم إن كنت سأكون فعلا سببا لسعادتك أو العكس. وإن كان وجودي في حياتك سيتعبك بهذه الطريقة، فأنا أفضل الانسحاب.

- حرام عليك، أمل. أطلب إليك البقاء فتختارين الانسحاب، أعبر عن حاجتي إليك فتظهرين عدم تمسكك بي، وكأني لا أعني لك شيئا.

- حسنا سعد، أنا لا أعرف عنك شيئا. أخبرني عن تفاصيل حياتك، ودعنا نحاول أن نكون أصدقاء، فأنا أيضا بحاجة لأتحدث معك عن أمور كثيرة فيما لو بقينا أصدقاء.

- هذا رقمي 66667266 اتصلي.

- حتى رقمك مليء بالستات!

- أمنحك حصريا حق مسح كل الستات من رقمي

وحياتي، ابدئيها باتصال، اتصلي في أي وقت.

- كيف أتصل في أي وقت، وأنت لديك زوجة وارتباطات عائلية؟! لا أعتقد أن زوجتك ستقبل أن تتصل بك صديقة.

- هذا أمر يخصني وحدي، وأنا أعرف ماذا أقول.

- مستحيل.

- دعينا نتحدث صوتيا على الماسنجر. أحلم بسماع صوتك.

- لا أستطيع الآن. ربما عندما أصبح وحدي نتحدث صوتيّا.

- أرسلي إليّ صورة من حفلة رأس السنة، لقد أفقدتني صورتك الأولى صوابي.

- أخبرني عن حياتك سعد. أريد أن أعرف عنك أكثر.

- انتقالك إلى موضوع آخر يعني قلة احترام لكلامي أمل، وأنا لا أحب أن يقلل أحدٌ من احترامي.

- انتقالي إلى موضوع آخر يعني أني لا أريد إكمال الحديث نفسه، ويجب أن تتعود أسلوبي.

- أمل، أنت متعبة.

- وأنت غامض.

- ولكني معجب بك.

- حاول أن تتقرب مني.

- أحاول ولكنك تبعدينني بكل الطرق؛ لا صورة، لا اتصال، ولا أتجرأ على أن أطلب أن ألتقيك.

- لن نلتقي حتى يتعرف كل منا إلى الآخر. أخبرني عن الجانب الغامض في حياتك.

- حسنا أمل، أنا لست سعيدا في حياتي ولم أكن يوما، وهناك تفاصيل إن تذكرتها فستؤلمني كثيرا، لذلك أهرب من تذكرها، بالإضافة إلى أنني لا أحب أن يطلع أحد على خصوصياتي.

- براحتك، ولكن لا تطلب إليّ أن أكون قريبة منك، وأنت لا تثق بي. هل تعتقد أني سأتاجر بأسرارك مثلا أو أستخدمها ضدك في يوم من الأيام؟ لن أعيش قصة حب قبل أن نصبح أصدقاء، وأعتقد أني واضحة بما يكفي.

- أنا بحاجة إلى حبك، أمل. أحتاج إلى حبّ يغمرني، ومع الأيام أنا متأكد أنك ستحبينني، وسأفعل أي شيء لإسعادك. أشعر أنك مختلفة، وعندي القدرة على التمييز؛ أنت فتاة واعية ناضجة متعلمة مثقفة ابنة عائلة محترمة، وأشعر بإنسانيتك وطيبتك، وهذا ما أبحث عنه.

- ما سبب حزنك، وأنت تمتلك أسباب السعادة:

(شباب، وسامة، مركز علمي واجتماعي، دخل ممتاز، عائلة وأولاد)، ألا تكفي هذه الأسباب لتجعلك سعيدا؟

- إن شئت نخذي أولادي وأعطيني حريتك. أمل، أنا وحيد، أعاني من الوحدة رغم وجود الناس حولي، أشعر أني لا أنتمي إلى هذا العالم، أشعر كأني في حفلة مليئة بالناس، والكل يتفاعل، يرقص ويغني ويضحك، وأنا الوحيد الجالس على كرسي كتمثال من حجر.

- ربما لأنك لا تحاول الاندماج معهم، ربما المشكلة داخلك وليست فيهم. سامحني إن لمست قسوة في كلامي، ولكني صريحة في آرائي ولا أجامل.

- بالعكس، كوني كما أنت ولكن لا تقسي علي. أمل، أنا ولدت يتيما، ولن تفهمي ماذا يعني أن تكون يتيما.

- أنا آسفة، سعد. يتيم الأب أم الأم؟

- توفيت أمي بعد ولادتي بثلاثة أيام فقط، ولك أن تتخيلي.

- أنا آسفة. شيء محزن فعلا. هل لديك إخوة؟

- لدي أخت وحيدة من أمي أكبر مني، ولدي إخوة من زوجة أبي.

- قامت زوجة أبيك برعايتك؟

- لا، ربتني عمتي. عشت بدون أم ولا أب، وعندما كبرت قليلا بدأت أختي تهتم بي، لأن أبي تزوج وأصبحت حياته لزوجته الجديدة وبعدها لأولادها.

- شيء صعب جدا. لا أستطيع أن أتخيل كيف يعيش طفل بلا أم ولا أب.

- لا تتأثري أمل، فهذا الموضوع يخصني، ولم أكن أرغب في إخبارك لولا إصرارك.

- بالعكس، سعد، أنت لا تعلم كم أحدث هذا الموضوع فرقا عندي، وأنا أقدر ما أنت فيه وأقدر أنك رغم هذه الظروف تعلمت واشتغلت وحققت مكانة مميزة.

- نعم، تعبت كثيرا. وكل ما أنا عليه الآن من تعبي ومجهودي وحدي. لم يساعدني أحد على الوصول لما أنا عليه الآن، حتى ماديا أنا من تكفلت بنفسي فأنا لست ذلك الغني ولا ابن الغني، كل الأولاد في عمري عاشوا حياة مرفهة ومريحة إلا أنا، حتى بعد السفر للدراسة أنا الوحيد الذي كنت مضطرا للعمل في الليل والدراسة في النهار، وهم يعيشون شبابهم بكل حرية ومتعة، وهذا كان سببا لانعزالي عنهم وعن غيرهم. كنت أشعر بحظي السيّئ ونصيبي في هذه الحياة، وأمضيت أوقاتا طويلة أبكي وحدي في غرفتي كما يبكي الأطفال، أبكي لإحساسي أني الوحيد الذي حرمته الدنيا من كل شيء، لماذا أنا؟

حصلت على أعلى نسبة في الثانوية بقدر اجتهادي وتعبي حتى إنني لم آخذ درسا خصوصيّا واحدا في حياتي ليس ذلك لأني لست محتاجا، وإنما لأني لا أملك المال. كل زملائي كانوا متميزين، يملكون السيارات الفارهة لهم أو لآبائهم، يخرجون ويسهرون ويعيشون طيش الشباب بكل أشكاله وألوانه، وأنا كاليتيم بينهم، لست كاليتيم فأنا فعلا يتيم.

الشيء الوحيد الذي كان يميزني بينهم هو تفوقي الدراسي وأدبي والتزامي حدودي، ولا أخفيك أني فكرت مرارا وتكرارا بترك الدراسة وأحيانا بالانتحار، لأن الحياة بما رحُبت ضاقت أمام عيني. ولكن الله كان معي، وربما دعوات أمي من السماء كانت تعينني لأكمل طريقي. إحساسي بأني وحيد منذ أيامي الأولى استمر معي إلى هذه اللحظة، وأخشى أن يرافقني إلى آخر عمري. هل أدركت الآن كم أنا بحاجة إليك؟! وهل علمت لماذا لا أريد التحدث عن حياتي...؟ أنا أتوقع منك الرحيل، فما الذي يجبرك على علاقة مع شخص حياته بائسة مثلي؟!

- يكفي سعد، الشخص لا يقيّم بما يملك من المال فقط أو حسب ظروف حياته، الرجل يقيم بما حقق وبما يمتلك من قيم وطموح وإصرار على تحقيق المستحيل، وبالنسبة إليك ما زال المستقبل أمامك، وحان وقت قطف الثمار،

ثمار تعبك واجتهادك. والله، إنك مصدر فخر لأولادك وعائلتك.

- هذا بنظرك أنت وربما بمجاملة منك، أما عن المستقبل فعن أي مستقبل تتكلمين؟ وأي فخر يشعر به أبنائي وعائلتي؟ بالله عليك، اسكتي، يكفيني بؤسا اليوم.

- صدقني، سعد. كل شيء سيكون أفضل مما نتوقع، وسيكافئك الله على صبرك واجتهادك.

- هل ستتركينني بعد أن علمت بعضا من ظروفي، أمل؟

- ولماذا أتركك؟ بالعكس، حديثك زادك قربا مني، وزادني رغبة في التواصل معك، وهذا ما كنت أرجو حدوثه بيننا.

- سترسلين إليّ صورة؟

- حاضر.

- صورتك ستمسح أحزانا كثيرة عن قلبي، في وجهك دواء لتعبي، وابتسامتك تحيي روحي.

- سأطلب إليك طلبا؟

- اعتبريه أمرا.

- هل تعدني أن تكون حريصا على سعادتك، وأن تعيشها كل يوم؟

- عديني أنك ستبقين معي، وسأكون أسعد شخص في العالم.

- لا تربط سعادتك بشخص، كي لا تخسرها مع أول رحيل له.

- هل سترحلين يوما؟ هل سأستيقظ ذات يوم، ولا أجدك في حياتي؟ فقد تعودت فقدان كل ما يسعدني في هذه الحياة.

- اطمئن، ليس لي مكان أذهب إليه. ومن أسوأ عاداتي أني أطيل البقاء!

- سأنتظر الصورة.

- وأنا سأفكر فيك! تصبح على خير.

- تصبحين على حب.

لم أتوقع أن ينتهي يومي بهذه الدراما القوية، لقد أثر في نفسي حديثه كثيرا، وأشعر أنه صادق في كل كلمة قالها وفي كل إحساس عاشه. أنا حزينة جدا عليه، أتساءل: كيف انتقته الحياة، واختارت وجهه لتصفعه هذه الصفعة القوية؟ كيف اختارت روحه لتغتال أنفاسها؟ كيف وجدت قلبه لتزرع فيه أوجاعها؟ كم تحدى؟ وكم بكى؟ وكم عاش ساعات من القهر وحيدا مكسورا لا سند

له في هذه الحياة، لا مصدر لحب يقويه ولا صدر حنون يضمه ويعطف عليه؟ ماذا تفعل، وأنت تائه وحيد في صحراء الحياة؟ عليك أن تجد طريقك وحدك أو تستسلم لموت محتم، عليك أن تستجمع قوة العالم لتغادر ملعب ضياعك، وأن ترجو قوى السماء لتصل إلى بر الأمان، وأن تركع عمرا لتبدأ حياتك من جديد؛ هذا إن كتب الله لك حياة بعدها!

أشعر أني تورطت في مسألة لم تكن في حساباتي، علاقتي بسعد بدأت تأخذ طابعا جديا -على الأقل من طرفه- وسيكون هناك نوع من الالتزام والمسؤولية، وأنا لم أقصد أن أدخل في علاقة كهذه؛ لها حساسيتها ومن غير اللائق الانسحاب ليس لأنه سيظن أني لا أحب أصحاب الظروف الصعبة أو أنه لا يستحق وقتي، وإنما طبعي لا يسمح لي أن أتخلى عن شخص أدرك تماما أنه بحاجة إليّ، وأدرك أنّ من الممكن أن أكون طوق النجاة الوحيد لحياته. ربما وضعني الله في طريقه مصادفة لأساعده، لأنقذ روحه التالفة، لأكسب ثوابا قد يكون المنجي من محنة خبأها لي الزمن؛ فأنا مؤمنة لأبعد حدود الإيمان بأن المعروف لا يضيع، وأن جزاء الإحسان دائما إحسان. ورغم هذا قررت أن أبتعد قليلا، لا أريده أن يتعلق بي أو يعتاد وجودي في حياته، لا أعتقد أنه يحتمل مزيدا من الخيبات، ولا أريد أن أكون خيبة في حياة أحد،

وأعلم أنه يرسل الرسائل الكثيرة وأنه بانتظاري، ولكن سامحني، سأنشغل عنك بعملي؛ فلعملي أولوية على كل شيء وكل شخص.

بقصد أو بغير قصد، فقد تبدلت ملامح الحياة العصرية؛

أصبحت حياة لا تشبه الحياة الطبيعية،

حياة لا تكترث لجوهرها،

حياة تقترب من الوهم، حياة مزدحمة بلا شيء، تفقد معناها ساعة بعد ساعة.

الكل مشغول، الكل معزول، الكل مقصر.

الآباء يتساءلون: متى كبر الأبناء؟ والأبناء لا يطيقون الرد على آبائهم أو الحديث معهم.

أصبح الناس غرباء تحت سقف واحد!

رفاهية، نعم، ترف، ولكن الحياة مأساوية!

أصبحت صداقة الإنترنت أهم من الصديق نفسه، وتوثيق اللحظات أهم من اللحظات!

تجمد في المشاعر، فقر في التواصل الحسي، وتصحر في الأرواح!

بدائل الأشخاص والماديات دائما متوفرة، ولا مسؤولية،

سكن الملاك والشيطان بسلام تام ووئام في نفس كل شخص،

ففقدنا القدرة على التصنيف!

ربما كانت إحدى ضرائب التكنولوجيا، وربما كانت صفات عصر، ...

وأيا كانت..

فلا شيء يتفوق على الملامح الإنسانية التي مازال البعض متمسكا بها، وما زلنا بهم متمسكين.

مرت الأيام، كنت منهمكة في العمل، والتعرف إلى أساسياته وتفاصيله والتعرف إلى الأشخاص في محيط عملي، وليس بالأمر السهل أن تطبق معرفتك النظرية، وتحولها إلى خبرة عملية في وقت قصير أو بجهد بسيط. ساعدني بعض الزملاء في العمل، وتجاهلني البعض الآخر ولا ألوم أحدا، فلكلّ أسبابه، ولكن من كان له الفضل الأكبر في المساعدة هو الأستاذ عزيز سواء في المساعدة الميدانية أم في تحديد الكورسات التدريبية التي يجب أن أحضرها أم في التوصيات التي بلّغها لأصحاب الخبرة في الشركة للوقوف بجانبي وعدم التأخر في أي مساعدة أحتاج إليها أو أطلبها. وهكذا تسهلت الأمور في وقت قياسي نسبيا.

ثلاثة أسابيع مرت، دوام في الشركة من الصباح حتى

المغرب ودورات تدريبية في المساء، ولا أعرف شيئا عن العالم المحيط بي، ولكنها تجربة أعتز بها؛ فالجانب العملي في الحياة يعطيك ثقة بالنفس، واستقلالية في الشخصية، ورغبة في بناء مستقبل خاص بك يناسب إمكاناتك ويرضي طموحاتك.

في سهرة الخميس جلست مع أبي وأمي، وكلمت أخي فيصل وتحدثنا عن الشغل والحياة الجديدة، وعبرت أمي عن شدة افتقادها لي رغم وجودي معهم، ولكن غيابي اليومي الطويل كان صعبا عليها، فهي لم تعتد غيابا متواصلا مثل هذا، وقال لها أبي مازحا:

- يجب أن تتعودي، فبعد الشهادة والعمل حان وقت التفكير في موضوع أكثر أهمية، وأضاف موجها لي الكلام: أعتقد أنه آن الأوان لنفرح بك، ونراك عروسا جميلة. فوالله، إني مشتاق أن أصبح جدا، وأرى أحفادي يملؤون البيت فرحا.

اكتفيت بابتسامة ولم أجب وكذلك فعلت أمي، فكلانا يعرف أنه ليس أمرا سهلا، فلست ممن يتزوج عن طريق المعارف وخطبة الأمهات، وفي الوقت نفسه لم أتعرف إلى أصدقاء أو أشخاص لتنشأ بيننا قصة إعجاب أو ارتباط، ولا أتجرؤ أن أقول قصة حب.

تركتهم وذهبت إلى غرفتي غير قادرة على إخفاء

مشاعري، فكل فتاة تتمنى أن تكون في الوضع الصحيح اجتماعيا، أما أنا فوضعي الاجتماعي مختلف قد يكون متميزا ولكنه ليس الأمثل، أنا فتاة عربية نشأت وترعرعت في كندا من أبوين من جنسيتين مختلفتين وديانتين مختلفتين أيضا، وكان القرار قد اتخذ دون الأخذ برأيها أن تعود لتكمل حياتها في بلدها الأم الكويت، وهي مدركة رفض عائلتها الكبيرة لها ولأمها. أمها لن تكرر معها تجربة عانت منها طوال حياتها، فهي لا تشجع زواجها من جنسية أخرى أو من ديانة أخرى؛ ليس لقناعتها بالفكرة وإنما لأنها لا تريد لابنتها أن تعيش أي شكل من المعاناة هي في غنى عنه، تريدها أن تتزوج كويتيا مسلما لأنها كويتية مسلمة، لتنعم بالاستقرار. فما قدرت عليه كاترين السورية لن تقدر عليه نعمة الكويتية/ وما تبيحه الحياة في كندا تحظره الحياة في الكويت وبقوة، وما يتميز به فهد الجليلي قد لا يتوفر في رجل آخر.

وأنا نعمة الله التي أحلم ككل فتاة في نفس عمري بالحب والزواج والاستقرار، أرى نفسي تائهة في بحر ليس له مرسى. جمالي، شهادتي، مؤهلاتي كلها لن تخدمني في إيجاد شريك حياة مناسب على الأقل في الوقت الراهن، ومع ذلك شكرا أبي لأنك ذكرت الموضوع، فكثرة الملافظ سعد.

سعد!!!!

ترى ماذا أنت فاعل يا سعد؟ ماذا فعلت بك الحياة مجددا أيها المسكين؟

أفتح الماسنجر، فأجد رسائله التي باتت تشبهه على مدى عشرين يوما.

- أمل، أين أنت؟

- أمل، أنا بحاجة إليك، ردي علي.

- أمل، لماذا لم ترسلي صورتك وتفي بوعدك؟

- تركتِني كما تركتني الحياة، وتركني كل من في الحياة.

- أمل، مشتاق إليك، ولا أكاد أتحمل شوقي، ردي علي أرجوك.

- أمل، حتى لو أنك لا تريدين التحدث معي فأخبريني، قوليها لي، ولا تخشي الصراحة، قولي: "لا أريد تعاسة في حياتي، ولا أريدك".

وآخر رسالة...

- "لقد أصبحت شيئا مهما في حياتي، تعيشين معي في كل لحظة، في الليل والنهار في النادي والمحاضرات مع قهوتي وأمام التلفاز، في كل معزوفة أسمعها وكل أغنية، حتى وأنا أمشي على البحر أحلم بيوم يجمعنا قرب الأمواج،

حتى في أحلامي تشاركيني. أمل، أعطيني فرصة، وإن لم يعجبك الوضع فلك مطلق الحرية، وأقسم لك إني لست شخصا سيئا، ولن أسبب لك أذى في يوم من الأيام، بانتظار ردك مهما كان".

كان لرسائله أثر كبير علي، أحسست أني قاسية معه بلا أي مبرر، وأني تعمدت إهماله بلا سبب، لست أنا من يتسبب بألم لأحد، فكيف إذا كان لشخص مثقل بالآلام!

إن كنت حنونة معه فسيتعلق بي أكثر، وإن كنت قاسية فسأزيد جراحه، وإن تعاملت بشكل عادي فلن يقبل. سأخبره أني مشغولة، ولن أستطيع محادثته كل يوم، سأنسحب بالتدريج من حياته، فهو شخص واع ذو خبرة، سيقدر موقفي وأنا أصلا لم أعده بشيء لأشعر بذنب تجاهه، سأرسل له إيميلا الآن، فهو يتأخر بالسهر في عطلة نهاية الأسبوع، والإيميل أفضل من الماسنجر كي لا أفتح معه محادثة طويلة قابلة للأخذ والرد، وسأخبره أني... يا إلهي!

لا أصدق ما يحدث مع هذا الشخص، فقد وصلني منه إيميل في هذه اللحظة، كيف يستشعر وجودي؟ كيف يعرف مكاني؟ كيف يتوافق معي بكل هذه الدقة؟ لا أصدق هذا التخاطر العجيب، فتحت الإيميل، وكانت

كلماته مختلفة:

"أمل، صباح الخير،

لا تتصورين كم أنا مفتقد لك، لماذا اختفيت فجأة؟ كنت أتوقع أنك ستفعلين شيئا، ولكن لم أتوقع كل هذه الغيبة، فلا ترسلين إيميلا ولا تردين على رسائلي؟

أنا مسافر غدا ليلا أمل، إن كنت اتّخذت قرارك أن تتركيني، فأخبريني لأن كل إنسان له كرامة، وأنا لا أقبل أن أستمر في إزعاجك وأنت غير متقبلة لي، لا أريد أن أفرض نفسي عليك أكثر، وأرجو أن تكوني معي واضحة، صارحيني ماذا تنوين؟ هل ستتركينني؟ هل ستختفين من حياتي؟ هل تصعب عليك حالتي وتهربين من مصارحتي؟ لا تقلقي، فقد تعودت الأسى والحزن، ولم أعتد يوما على إحساس فرح و، أمل!

صارحيني قبل سفري إن كنت ترغبين في قول أي شيء،

كل التوفيق

سعد"

كان لهذا الإيميل وقع خاص على قلبي، ورددت عليه في نفسي: لا يهون علي أن أكون سببا في حزنك يا سعد، والله إني أفتقدك في كل لحظة وأشتاق إليك وأتذكرك وأنا

في قمة انشغالي، ولكني أتعامل مع عقلي وليس مع قلبي، لن أبوح لك بما أشعر به رحمة بقلبك ومشاعرك، ولا أريد لمشاعري أن تمادى أكثر فأفقد السيطرة عليها، ولكني سأرحم شوقك وأعوض انتظارك هذه الأيام، وسأفعل ما يسعدك لعلّك تتذوق طعم السعادة فتدمن عليه.

اخترت من صور الفنانة إحدى الصور، وهي تجلس على كرسي في إحدى الحفلات، كانت الصورة بالطول الكامل وبكامل أناقتها وجمالها وابتسامتها الساحرة، تشبه صوري كثيرا وحتى صديقتي المقربة سارة اعتقدت أن هذه الصورة لي، وقمت بإرسالها على إيميله الخاص، وأرسلت إليه رسالة على الماسنجر:

- سعد، أشعر أني أفتقدك أكثر من كل مرة، اذهب وافتح إيميلك الآن.

- (لم يجب، ولكنه أرسل وجها يبكي وقلبا محطما)

- كيف حالك، سعد؟ أنا آسفة، ولكني كنت مشغولة جدا.

- مشغولة إلى درجة لا ترسلين كلمتين "أنا مشغولة" بنصف دقيقة فقط؟

- أنا آسفة وأعتذر، وجاهزة لأي شيء يرضيك.

- أي شيء؟

- أي شيء أستطيع فعله.

- اتصلي بي.

- ليس الآن.

- أعلم أنك لن تفعلي شيئا يرضيني، لن أسمع صوتك، وأنا أحلم حلما مستحيلا أن أراك أو ألتقيك.

- تريد أن تراني الآن؟

- إن كان لقلبي أمنية، فهي رؤيتك.

- افتح الإيميل، وأنا بانتظارك. (وفعلا انتظرته خمس دقائق)

- أموول (قلوب حمراء تنبض) أنت ملاك، أنت أجمل من كل جمال، لا أصدق عيني.

- صورة عادية. سعد، لا تبالغ.

- عادية!!!! كل شيء فيك خاص وغير عادي، كلك رقي ورقة ونعومة، ما شاء الله! أنا غير قادر على أن أرفع نظري عن الصورة. والله، إني أخاف عليك من عيني، ما شاء اللهّ! تبارك الرحمن! لم أتوقعك بكل هذا الجمال!

- أترك لك الصورة، وأذهب للنوم؟

- نعم، فقط في حال سمحت لي بالذهاب للنوم معك.

- سعد، ما هذا الكلام؟

- وماذا تتوقعين مني أن أقول؟ وماذا تركت لي أن أقول؟ قبل سفري، تبعثين لي هذه الصورة، ولا تريدينني أن أفقد عقلي؟

- إلى أين السفر، سعد؟

- أبو ظبي. عندنا معرض للجامعة، وأنا مسؤول عنه. سأغيب هناك أسبوعا، ثلاثة أيام مهمة المعرض، وباقي الأيام سأقضيها هاربا من كل مكان وزمان.

- بالتوفيق إن شاء الله.

- ما رأيك أن تأتي معي؟

- ههههه عندي دوام، وما زلت جديدة في العمل ولا يمكن أن آخذ إجازة.

- يعني لو كان بإمكانك أخذ إجازة، هل كنت ستأتين معي؟

- ههههه لا، بالتأكيد.

- شكرا على الصراحة، ستبقين في بالي طوال فترة سفري، وسأشتاق إليك كثيرا وأكثر مما تتخيلين. هذا أسعد يوم في حياتي، وصورتك جملت الحياة في عيني، أشكرك أمل من كل قلبي، وأوصيك أن تهتمي بنفسك

وأرجو أن نبقى على تواصل أثناء سفري.

- وأنت سعوود اهتم بنفسك، واعتبرها إجازة استجمام وراحة من العمل.

- اللللله!!! سعوود!!! قوليها مرة أخرى، أنت مصرة على أن أنام في أحضان كلماتك الدافئة، وأحلم بشفتيك تهمسان باسمي وتذيبان ما تبقى من قلبي الصغير، وتلومينني إذا فاضت عندي أحاسيس الحب.

- لن أكررها يا سعد.

- قولي سعوود مرة أخرى، لقد أغرقتني هذه الكلمة في ينابيع حب تفجرت من برق سماعها.

- لا.

- قوليها، لن أذهب حتى تقوليها، لا تقتلي ما أشعر به الآن، أتوسل إليك أموول، ارأفي بالطفل الذي بداخلي.

- تصبح على خير،، سعووودي.

- حيااااتي أمووووول، أنت صباحي والخير يا فرحة قلبي الذي لم يعرف يوما معنى الفرحة، وشفاء روحي بعد الأنين، شكرا لأنك معي حتى ولو من خلف شاشة، فأنا على يقين أن الأونلاين سيتحول إلى حقيقة أنا من سيمتلكها، وهل هناك شيء يضاهي الحقائق جمالا مثل

امتلاكها؟!

نتحدث مثل مراهقين تائهين على ضفاف اشتهاء، يلبسهما العري ويخلعهما الحياء، يرتشفان حلما على حساب رغبة، ويرسمان سرا على ألواح حلم، يكتمان نفسا خشية اجتياح، ويستقيان شغفا من رضاب الأمنيات، نقاوم الوقوع في الحب دون أن ندرك أن للاستسلام طعما آخر، وندرك أن الحب لا يحتاج إلى دعوة رسمية للقدوم...

الحب يأتي واثقا متيقنا أنه الحقيقة الوحيدة في الحياة التي لا يغلق بوجهها باب!!!!

لا أعلم إن كانت حاجته إليّ أكبر أم حاجتي أنا إليه أكبر، يجذبني، نعم، يجذبني بمغناطيسيته الرجولية وكأنني ذرة أنثوية محاطة بإلكترونات مشحونة عاطفيا دائمة الحركة قادرة على إنشاء مجال مغناطيسي عاطفي التكوين، أعلم أن ذراتي حديدية قوية، ولكن لسوء حظي أو لحسنه أن قوتها هي سبب ضعفها. إن ذراتي تماهى مع المغناطيس القادم من الخارج، وكلما زاد اقترابه يزداد الانجذاب وتنعدم المقاومة، فقطبي شمالي وقطبه جنوبي، واختلاف أقطابنا يوحدنا ويزيد في الالتحام!

***

ربما أحب كلماتي، ربما أبهرته الصورة فغالبا ما يبهَر

الرجل الأسمر ببيضاء البشرة خضراء العينين، ربما أحس بدفء وحنان كان يحتاج إليه في فترة برود زوجية كما جرت العادة؛ إذ يصل الزوجان إلى عقدة في طريق المنشار يصعب إكمال الطريق بعدها إلا لمن كان منشاره قويا مصقولا قادرا على تغيير المسارات بالتفاتات ذكية أو خدع موروثة، وأيا كانت الحالة، فأنا لست في أحسن الأوضاع، حتّى أبدأ علاقة ولو كانت وهمية وغير جدية مع رجل متزوج، فهذا شيء لا يشبهني، وهو رجل متزوج لن يقيم علاقة صداقة بريئة مع فتاة جميلة قضى وقتا طويلا وقدره في البحث عنها.

الفرق بيننا أنه واضح فيما يريد ولم يتردد في إعلامي بنيته وهدفه رغم وجود ما يمنعه، وأنا التي لا أمتلك من أسباب المنع رقما لا أستطيع إخباره أن وجودي مؤقت، وأني أريد أن أكون صديقة لا حبيبة، ولكنّني مدركة في أعماق ذاتي أني أخاف من اختفائه من حياتي في حال صارحته، وهذا شيء لم أعد أمتلك القدرة على احتماله، ولن أواجه نفسي وأحرجها بسؤالها: "لماذا؟!"، لماذا أريده في حياتي؟ لماذا لا قدرة لي على فراقه؟ لماذا أنا مستمرة معه وأنتظره وأنتشي بكلماته ووجوده، ولا أشعر لحظة واحدة أن هناك شاشة تفصل بيننا، بل أشعر أننا نجلس مقابل بعضنا، وأشعر بنظراته وحركة شفتيه في كل كلمة، وأكتشف أن مشاعر الكبار لا تختلف في براءتها وطيشها

عن مشاعر المراهقين، ولكن الكبار يجيدون إخفاءها أكثر؟!

جميل أن نستطيع رسم أحلامنا... والأجمل أن يأتي من يلونها لنا، وربما اختاره القدر هو ليلونها! لا أريد أن أغتال أمله أو أقتل أحلامه التي بدأ يعيشها، ولا أريد أن أخذل أحاسيسه المتورمة بالخيبات. معلوماتي المزيفة قد تجعل وضعنا سيّئا، والأسوأ هو اكتشافه أن الصورة ليست صورتي، فهو يتعامل معها بمنتهى الصدق والتصديق، وأنا أتعامل بلهو؛ لأني أعلم في قرارة نفسي أني لن أكمل طريقي معه. ولكنه الآن قادر على دغدغة مشاعري بكلامه ولونه الأسمر القوي الآسر، وماهر في إسعاد وقتي بانتظاره لي كل يوم، وهذه هي حاجتي الوحيدة وقد استطاع سدها...

أشعر أني أتعبت رأسي بالتفكير، سأترك الأمور تجري كما كتب لها، وعند الضرورة لن أعيا بإيجاد مخرج لما سأكون فيه، فليس هناك أكثر من حجج الوداع!

***

وجودنا صنع السماء، حياتنا صنع الظروف، ومستقبلنا صنع قدرنا المكتوب!

أشعر أن حياتي بدأت تمتلئ فجأة، عمل، معارف، عائلة،

بدر، سعد، وعزيز! عزيز هذا الشاب الأخطبوطي النظام، البهلواني الحركة، المتصيد للفرص، والذي لا يترك لي مجالا لالتقاط أنفاسي، شاب خارج التقاليد وربما خارج الحدود؛ نعم، هو لا يعرف الحدود ولا يريد أن يعرفها، ولكنه يريد ضمي إلى حدوده ودون استشارتي أو إعطائي فرصة للقبول أو الرفض، جريء كجواد أصيل يعرف مكانته، مستبد كصاحب هذا الجواد الذي يعرف تماما ما يمتلك، وواثق كفارس لم يعرف في حياته إلا الفوز في كل السباقات!

لقد جعل حياتي في العمل ممتلئة بكل ما يكشف فراغها، متجددة بما يفضح روتينها، دائمة الحركة كفراشة أتاها الربيع على غفلة من الزمن، ففاضت سعادتها في زوايا طريق.

اهتم بي وبعملي وعلاقاتي وأضاف حياة إلى حياتي، تبادلنا أرقام الهواتف لضرورات العمل، ولكن في أحيان كثيرة كانت تطول المكالمات للحديث عن أشياء خارج إطار العمل، دعاني مرة لتناول القهوة في أحد الأماكن خارج أوقات الدوام، ولكني اعتذرت متذرعة بارتباطي مع أمي للخروج في الوقت ذاته، ولم يلح عليّ كثيرا ولم يختر موعدا آخر للدعوة وترك لي تفسير ردة فعله، فربما فهم أنه اعتذار غير مباشر، وعزة نفسه منعته من التكرار، أو

ربما اعتقاده أن مثله لا يجب أن يرفض له طلب، أو لعلها محاولة جسّ نبض ليقيس مدى استجابتي لعروضه المغرية!

في صباح اليوم التالي، اتصلت به ونيتي ألّا أترك في نفسه أثرا من اعتذاري ليلة أمس، وسألته إن كانت دعوته لشرب فنجان القهوة ما زالت قائمة، فنشربها معا في مكتبه أثناء مناقشة أحد عقود الشركة، وكعادته في ردات فعله غير المتوقعة قال:

"يتبارك مكتبي من وطأة قدمك على بساطه في أي وقت، وبمناسبة وبلا مناسبة".

أعترف بانهزامي الدائم أمامه، فله من القوة ما يجعلني أحسب حتّى حساب النظرة إليه، تغمره جرأة تشبه جرأة الأسود وخصوصا عندما يتربع على عرين مكتبه، رجل حر بكل ما تحمله الكلمة من معنى، والقوة تعشق الأحرار المتحررين من خوفهم، وهل من شيء يضعف الإنسان أكثر من خوفه؟! خوفه من قيوده مثلا؟! أو خوفه من إصدار الأحكام عليه؟!

عزيز لا يقيم اعتبارا لمعتقدات أو تقاليد أو أعراف مجتمعية، يشبه إلى حد كبير أخي فيصل مع فارق أن فيصل لم يبذل ذلك الجهد أو يقدم تضحيات للوصول إلى هذا الوضوح في الفكر، فقد نشأ بثقافة كندية، وعاش في انصهار حضاري وثقافي واجتماعي متعدد الأجناس،

بالإضافة إلى أنه ثمرة اندماج ديني يشهد له بنجاحه.

عزيز لا تواجهه مشكلة مقابلة موظفة في مكتبه وتبادل الحديث، ولكن لسبب ما أنا واجهت هذه المشكلة، فأنا أهتم لما سيقوله الطابور الخامس في الشركة، ولكن عزيزا يمتلك من قدرات الإقناع ما يفوق إقناع قرد أن الآيس كريم ألذ من الموز!!

- صباح الخير، أستاذ عزيز.

- صباح الخير، يا أستاذة عزيز وأبو عزيز.

قالها وهو يخبر الفراش أن يغلق الباب خلفه، وهو خارج وألّا يتأخر في إحضار ما طلبه منه.

- أنا أحضرت عقد الشركة الجديد، وأنت عليك إحضار القهوة.

- أي أوامر ثانية؟

قالها وهو ينظر إلى وجهي نظرة لم أرها من قبل، نظرة أربكت كياني، وجعلتني أقول:

"ما عاش اللي يأمر عليك، كل ما قصدته..."

ولم يترك لي مجالا للمتابعة واستمر بنفس النظرة، وبنبرة صوت هادئة على غير العادة، قال بما يقارب الهمس:

- أستلذ بإحساس الطاعة عندما أتلقى أوامري من بين

شفتيك الجميلتين.

مرة أخرى يشعرني بضعفي أمام نظراته الثابتة، لا أعلم كم من التجارب خاض لكي يصل إلى هذا المستوى العالي من الحرفية في اختراق أسوار محصنة، كل ما فيها يوصي بعدم انتهاك حرماتها المبنية على تنشئة حرة، ولكن بشروط مختصرها: عدم القبول ورفع الحواجز وكبح الاستجابة!

- أستاذ عزيز...

- لا أريد الأستاذ، أريد فقط أن أكون عزيزا.

كم مرة يجب عليّ أن أتلعثم في الكلمات ولا أجد إجابة وأستغرق في تلعثمي، ليأتي جوابه منقذا لي:

- دعينا نرَ الأوراق، فلا أريدها أن تلهينا عن شرب القهوة، ولعلمك لدي سر مع القهوة.

- ؟

- أحب أن أشرب قهوتي ساخنة وساخنة جدا!!

أشعر أنه يتقصد إرباكي بإيحاءاته المتكررة، أو ربما يستفز جانبا يعتقد أنه خافٍ في حياتي، أنا لا أمتلك جرأتك يا عزيز، وأرجو ألّا يخونني ذكائي وأهزم أمامك، أستخدم عقلي للرد كمن لا يعي ما يدور حوله:

- لهذا يجب أن تطلبها في وقتها المناسب.

- أفكر أن أطلبها رسميا، وأنا فعلا أنتظر الوقت المناسب!

وقبل أن أستجمع حروفا أرد بها، يدخل الفراش بالقهوة ويرحمني من فشل مؤكد.

فيغير عزيز الحديث لسبب لا أعلمه:

- كيف كانت حياتك في كندا، نعمة؟

- حياة عادية.

- عادية!!

- أرجو أن تخصص السؤال أكثر، فأعطيك جوابا أكثر دقة.

- وأنا مغرم بالتحديد،، هل كانت حياتك كندية مسيحية متحررة أم عربية مسلمة محافظة؟

أكاد أفقد وعيي من طريقته الجريئة اليوم، ماذا بك يا عزيز؟ ما الذي يدور في خلدك؟

- أشعر أن حوارنا سيكون أسخن من قهوتنا.

- إذا لم يكن عندك مانع، لحسن الحظ اليوم نحن غير مضغوطين بالعمل، أنا راغب في فتح بعض الأحاديث معك، وما فهمته أمس أنك تتحفظين على الخروج مع

شاب والجلوس في مكان عام.

- ليس تماما. وبلا شك أنت تعرف أبعاد قرار خروجي مع شاب لتناول قهوة في مكان عام.

- لعل جوابك هو سبب سؤالي الأخير.

- من الواضح أن لديك معلومات كافية عن حياتي الشخصية.

- إطلاقا، لمحة موجزة فقط.

- أنا في النهاية مسلمة، سأكمل حياتي في الكويت، ومجتمعي الجديد هو الكويت بعاداته ومعتقداته. وكون أمي مسيحية، فهذا أمر يخصها وحدها، وأنا أحترمها على قرارها كما احترمت قرار أبي في تنشئتنا أنا وأخي على الديانة الإسلامية، ولم نعان من أي تعارض طوال حياتنا.

- وهل تستطيعين بسهولة التخلي عن أكثر من ربع قرن من الحياة الحرة في كندا واستبدالها بحياة محافظة هنا؟

- أنا لم أكن حرة في كندا يا عزيز، لم أعش كما يعيش الكنديون أو الأوربيون أو الأمريكيون، عشت فتاة مسلمة لا تؤمن بمظاهر التدين، وإنما تهتم بجوهر الدين أكثر، وتؤمن بأن الأخلاق لا تقف عند ثقافة بلد أو ديانة محددة. أؤمن أن عفتي بسلوكي وليس بشيء آخر، أؤمن أن المسيحين هم أقرب الناس مودة للمسلمين، وهم أول

من حمى المسلمين الأوائل أثناء هجرتهم إلى الحبشة هربا من بطش قريش، وحماهم النجاشي الذي أقام له الرسول الأعظم صلاة الغائب بعد وفاته، والآية الكريمة تثبت عدم استكبارهم: "ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون".

- وجهة نظر، ولكن هناك آية تقول: "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم".

- في كل الأحوال، أنا لا أحب الدخول في تفاصيل هذا الموضوع، فكل ما أركز عليه أن غاية الديانتين هي الإنسانية والتسامح والخير، وأصلا، المكان والزمان غير مناسبين لمناقشة موضوع كبير مثل هذا.

- أعتذر إن كان الموضوع سبب لك أية حساسية، توقعت إجابة سؤالي أبسط مما وصلنا إليه.

- سؤال يطاردني منذ وصولي إلى الكويت، ولكنّ سؤالك وحده الذي استطاع اللحاق بي!

- نعمة.

- ؟

- باختصار، هل كان لك صديق في كندا، أقصد boyfriend ؟

- باختصار.. لا.

- وفي الكويت؟

وقبل أن تصله إجابتي، وصل مندوب أحد فروع الشركة، فاستأذنت بالانصراف.

لماذا تبعثر أوراقي المرتبة يا عزيز؟ لماذا تستفز صمت مذكراتي؟ لماذا تداهم نقاط ضعفي في كمين ودي الملامح؟ هل تستخدم قوتك لاستدراج كبريائي إلى ساحة غرورك بتحد يحلم بالانتصار؟ لو تعلم كمّ السلام المتربع في داخلي يا عزيز!

قلبي مدينة محبة بيضاء النوايا، وعقلي وطن خال من الثوار، وروحي زنابق حب على عتبات الحدود، وجسدي تلال ثلوج عذراء الملمس نقية الممرات. يا عزيز، أنا لست معنية بقضايا لا تزيد العمر أكثر من هم ولا تنقصه أقل من خيبة، لا أنهار من أجل موقف ولا أسعى لإثبات حالة، ما زلت أنظر من زوايا الصفاء وأرى من عين المحبة، ولا أريد لعيني أن تتبدل ولا لقلبي أن يتورم بما لم تغفره مراحل معتوهة في جغرافية الكون أو لم تعفُ عنه محاكم الفكر في تاريخ البشرية.

وضعني عزيز في مواجهة أخرى صريحة تضع ثوابتي على حافتي موقد، تختبر صلابتها، تستفز وجودها الحقيقي،

تحاول تعكير نقائها وصفائها، وتضع قناعاتي تحت القرار.ضـــاد

تذكرت عندما عرضت عليّ أمي منذ أيام الذهاب معها إلى أحد الأنشطة النسائية الخيرية، وأنا على يقين أنها دعتني لتعرّف بعض الأمهات وسيدات المجتمع بابنتها أكثر منه لاطلاعي على تفاصيل هذه الأنشطة. وهناك واجهت حالتين لا تخفيان على مترقب لردات فعل غير معلنة، ردّات فعل قد تلخص توقعاتي وتضعها في إطار حقيقة لا يخفى وضوحها؛ انبهار بشابة اكتملت فيها كل المواصفات من جمال وأدب وغنى وعلم، بالإضافة إلى كونها ابنة عائلة محترمة تحمل لقبها وجنسيتها، وهمسات جانبية مع نظرات عميقة وتعابير وجهية لم يتمكّن من إخفائها تجاه الشابة وأمها، ولسان حالهن يعلن رأيهن المستتر خلف بعض المصالح أو ربما بين طيات بريستيج اجتماعي يتردد في قبول عمل خيري أو لا، تماما كما يقترب من قبول صاحبته أو عدمه، ويظهر نوعا من التأسف على أمر أحدث تشوّها في صورة جميلة مكتملة لورد شامي لا عيب فيه إلا حمرة خديه!

***

في كل مرة أشعر فيها بضجيج الصمت داخلي، أفتش عن مكان آمن يسمع صمتي ويخفف ضجيجي، وفي كل مرة يجذبني حضن أمي وقلبها وعقلها، ولا أغادرها إلا

والضجيج هادئ والصمت مستباح والحياة في عيني أجمل.

اليوم أمي ليست كعادتها أو ربما قبل اليوم، وأنا الابنة التي لم تنتبه بسبب انشغالي الكبير في العمل وفي حياتي الجديدة، ولكني أستطيع قراءة فكرها المشغول واستقراء القلق في عينيها، أسألها وأنا على يقين أنها لن تجيب بما يريح قلبها، بل ستجيب بما يريح قلبي ويبعث في نفسي الطمأنينة.

يا أمي، أنا لم أعد تلك الصغيرة التي تنطلي عليها الحيل الجميلة في مثل هذه المواقف.

أبي مسافر غدا، لا جديد في الموضوع، فقد أمضيت عقودا تودعينه وتترقبين عودته، وأنت قلقة بشأن ما يجري في الدول العربية من ربيع عربي جديد. لا أعتقد أنه سبب كاف لتحزن عيناك الجميلتان ويفيض قلبك بهذا الألم، فأنت لم تعيشي في وطننا العربي أكثر من ضيفة، واعتاد كيانك بلاد الغربة.

لم تنصهري في المجتمع الجديد كما يحلو لك. أشك أكبر الشكوك أن يكون هذا هو السبب الحقيقي الكامن وراء حالتك هذه، فمن تمتلك ذكاءك الاجتماعي وميزاتك لن تأبه لسفاسف لا قيمة لها.

تشتاقين إلى فيصل، أعذرك ولكن بإمكانك السفر إليه متى شئت.

تشعرين بوحدة، هذا مستحيل، فأبي عالمك الخاص وأنت المكتفية به، وأنا النصف المكمل لحياتك منذ ثمان وعشرين سنة كما قلت وتقولين.

لا أرى سببا واضحا وحقيقيا لما شعرت به اليوم، وربما كانت كل هذه الأسباب مجتمعة قد تغلبت على جانب من قوة أمي، فكلها حقائق تسترق من لحظات السعادة جوهرها، وتعرضه في مزادات الألم والخوف.

وأمي امرأة لم تصنع من فولاذ ولكنها فقط بالحب والفكر والرضا تفوقت عليه صلابة، أمي امرأة متفردة بشعورها وعقلها وحنانها وترفعها وإصرارها على النجاح وإنجاح كل من حولها، ومهما كان احتياطي الطاقة عاليا فسيأتي يوم يشارف فيه على النفاد إن لم يجد من ينقذه ويغذي منابعه، أمي وقفت إلى جانبنا جميعا وقفة سد منيع ضد أي شكل من السقوط أو الخذلان، وقفة أساس قوي جعل شأننا يرتفع علما وحبا وعملا، ولم يتوقف إحساسنا بالعرفان لحظة؛ فأبي وأخي وأنا جاهزون لاستبدالها بالعالم وما فيه، فهي بالنسبة إلينا شخص بحجم العالم وما فيه!

قرب النافذة المطلة على البحر، رأيتها واقفة ترنو بعينين تبحران في أفق الحياة وفكر يطفو على أمواج تفاصيلها، لا أعلم في أي بحر من الأفكار تعوم الآن ولا من يرافقها في

رحلتها الشاردة، اقتربت منها واحتضنتها بحنان لم أرثه عن سواها، أقبّلها من خلف كتفها، وأتنشق رائحتها التي طالما أسكنت آلامي، وأهمس في أذنها:

"كم أنا أحبك!".

ودون الإجابة بأي كلمة أو تغيير في مكانها، ترفع يديها لتضم يدي وترفعها إلى شفتيها لتطبع عليها قبلة طالما أحببتها وأحببت ردة فعلي عليها، ولكن هذه المرة لا تشبه مئات المرات السابقة، هذه المرة لم تتبعها ضحكتها الممتلئة حنانا وغبطة، هذه المرة ابتلت يدي بدمعتين لم تتسع عيناها الجميلتان لحملهما، دمعتين انسابتا من عينيها ولكن مستقرهما لم يكن على يدي كما أحسست، دمعتين أحسست بهما جمرتين تجريان في شريان قلبي وتستقران في شغافه.

ألتف ناحية وجهها وأنظر إليه، أنظر إلى هاتين العينين اللتين طالما فاضتا بحب جارف أغرق العالم، فأراهما مغمضتين لكي لا تكشفا سرا أمامي، أو ربما لكي لا تراني حزينة لسبب أتى منها من غير قصد، وهي التي أفنت عمرها لكي لا ترى الحزن على وجهي في يوم. اقتربت أكثر وحضنتها بقلبي وروحي وجسدي، وأنا أبكي كما لم أبك في حياتي، وأسألها بتوسل: "ما الذي حدث ماما؟ أهون علي ألف مرة أن يحترق العالم ولا أرى دموعك، أفديك بقلبي وعيوني يا أغلى من روحي وعيوني".

ضمتني بقوة، ولم تجبني إلا بعد دقائق عندما استعادت بعضا من تماسكها، وقالت:

- لا شيء حبيبتي. ولكن الحياة تهزمنا في بعض المراحل التي نصبح فيها ضعفاء، وكل ما في الأمر أنني أشعر بضعف هذه الأيام، وأعترف أنه لا يجب أن نعاند الحياة في حقوقها إن كنا منصفين. اطمئني، فكل شيء سيصبح جيدا مع الوقت.

- أجبتها بخوف وريبة، ولكن بكثير من التحدي:

- يجب أن يصبح كل شيء جيدا ماما، أنت من علمنا أن نجعل كل شيء جيدا مهما كانت الظروف قاسية، أخبريني ما الموضوع؛ فأنا كبرت بما يكفي لأكون معك كما كنت معي طوال عمري.

- وأجمل ما في الموضوع أنك كبرت بما يكفي، وأنا مطمئنة عليك!

وتحاول تخفيف كآبة الموقف:

- وسأطمئن أكثر، وأنت بين يدي فارس يحبك ويخاف عليك أكثر مني ومن والدك، ولن أقحم فيصل في الموضوع، بل سأتركه احتياطي دعم وأمان لك. هيا نجهز الشاي، فقد وصل والدك.

جلسنا مع أبي نشرب الشاي في صمت، لم يكن حال أبي

أفضل من حالها، ولم يتبادلا نظرة واحدة أثناء الحديث، وبعد ساعة من الوقت يقول أبي موجها الكلام إلى أمي:

- ما رأيك أن أؤجل سفري إلى ماليزيا، ونسافر إلى فرنسا؟ وأضاف: "فيصل لا يرغب في القدوم بسبب دراسته، وأعلم أن تلك الفتاة الفرنسية قد خططت لقضاء عطلتهما معا، وبصراحة أنا أخاف أن ينسانا مع الوقت، وتابع موجها الكلام إليّ: "أنا أعلم أن ظروف عملك لن تسمح لك بالسفر حاليا. ربما ستتاح لك فرصة أفضل، ولكن إن أحببت فسنجد لها مخرجا".

لم تجب أمي بكلمة، وكأن الموضوع لم يفاجئها وفي الوقت نفسه لم يغرها... وأنا شعرت من خلال طريقة أبي أن الدعوة غير موجهة إليّ، ولذلك قلت:

- إنها فرصة رائعة بابا، ترون فيصل، سيسعد كثيرا بوجودكما معه، وأعتقد أن أمي بحاجة إلى تغيير جو، وأنا المسكينة الوحيدة التي تحرم منكم في كل مرة.

نعم في كل مرة، أكتشف أن الخطة وطريقة التنفيذ جاهزتان عند أبي وأمي ومتفق عليهما مسبقا، ولكن هذه المرة لا أشعر بالخوف أو الوحدة، وعلى العكس أنا سعيدة لأجل أمي لعلّها تمضي وقتا سعيدا وأكثر متعة.

بدأت أشعر أن ملاذي الحقيقي هو غرفتي بجدرانها

وأثاثها ورائحتها، هي المكان الذي يشهد على تقلبات مشاعري، يعيش معي أفراحي وأحزاني، ويشاركني في أسراري، أتساءل: ما الذي يحزن أمي بهذا الشكل؟ وما سبب توتر حديثها مع أبي؟

شيء ما تعدى حدود الجرأة وعكر جو العشق المستمر بينهما، شيء مضاف إلى خزانة أسرارهما الكثيرة، ولا يسعني إلا قول: "إن شاء الله خيرا".

في الصباح الباكر، نظرت من النافذة، فوجدت أبي في الحديقة على غير العادة جالسا يشرب القهوة ويدخن سيجارته بأنفاس طويلة متتابعة، ولا تبدو عليه راحة البال التي اعتدت رؤيتها.

لم أتردد في النزول إليه بحجة مشاركته في القهوة قبل ذهابي إلى الدوام، وسألته إن كان هناك شيء مهم قد حصل، ولكنه أكد لي أن الأمور طبيعيّة ولكن الحياة لا تخلو من منغصات، وأن كل شيء سيصبح أفضل، وأنه استيقظ مبكرا ليذهب إلى مكتب الطيران ويحجز. لم أشأ أن ألح عليه، ببساطة لأنه لا يحب الإلحاح وقد يثير إلحاحي غضبه، لذلك تركته وصعدت إلى أمي في غرفتها، فجلست جانبها في السرير، وقبلتها مرتين، وقلت لها بمنتهى الحب:

"جاء دوري لأسألك: هل نامت عيناك الجميلتان جيدا؟".

فأجابتني بحب أكبر بآلاف المرات:

"نعم، نمت جيدا يا ملاكي الجميل"، وغمرتني بحنان لم أشعر بمثله من قبل، فهي في كل مرة تمتلك المزيد من كل شيء.

لا أصدق كم كانت فرحة فيصل كبيرة عندما علم أنهم مسافرون إليه، أذهلته المفاجأة إلى درجة جعلته لا يسأل عن سبب الرحلة المفاجئة، وأكد أنه سيكون بانتظارهم قبل الوقت بساعات، وهذا ما حدث فعلا.

أنهيت دوامي وعدت إلى البيت، ونمت نوما عميقا طويلا، لأني لم أنم طوال الليلة التي سبقت سفرهم. وفي المساء اتصلت عمتي لتطمئن عليّ، وعبرت مرة أخرى عن رغبتها الشديدة في أن أذهب وأنام عندهم، ولكني اعتذرت لأنه يوم خميس من جهة، ومراعاة للوضع العام من جهة أخرى، وطمأنتها أن شيري وراجو سيهتمّان باحتياجاتي.

اتصل فيصل عبر مكالمة فيديو، وجلسنا نتحدث جميعا لمدة تقارب الساعة، وكل الأمور تبدو جيدة للجميع، وطلبت إلى شيري تجهيز بعض الطعام بناء على رغبة أمي في ألّا أنام دون عشاء. وجلست أشاهد التلفاز وجلست شيري معي حتى أنهكها السهر، ولكنها لن تذهب للنوم قبلي،

ولذلك صعدت إلى غرفتي رأفة بها، فيكفيها ما تعانيه طوال النهار.

وهناك في غرفتي، غرفة الاشتياق، كل شيء يتغير وخصوصا في أواخر الليل. تتخلى عني ذاتي، وتتملكني أنوثتي؛ هذه الأنوثة التي لا تستيقظ إلا وأنا أمام شاشة تخفي وراءها شخصا قادرا على إيقاد جمرة الأنوثة المخفية خلف أسوار ما يجوز وما لا يجوز...

أنوثة تنتظر من يكمل نضجها، أو بشكل أدق، من يعلن نضجها. شخص قادر على سلب كل أشكال الرفض داخلي، وكل أشكال الامتناع، هذا الشخص يجعلني أعشق نفسي، وهو وحده القادر على مخاطبتي كأنثى وليس كامرأة،

وحده القادر على تجريدي من كل ما يخفي رغبتي بدءا من قميص نومي إلى قميص قيمي. أنا لست قادرة على إخفاء سري أكثر، ولكن السر المكشوف لن يتجاوز جدران غرفتي ولا عتبة بابها الرصين؛ إنّه سر مختبئ بين الأمل والسعد!

أفتح الإيميل، فأجد صورته تتصدر شاشتي بطوله الكامل وأناقته المعهودة، مذيلة بكلمات أستشعر صدقها: "هذه صورتي في المطار، وآخر كلمة وداع لك أنت وحدك دون غيرك ممّن أعرفهم، وكم أتمنى أن تكون صورتك آخر ما

أراه قبل إقلاع طائرتي، فأنت زادي في سفري، وأنت حلمي ومشتهاي".

كانت هذه الصورة والكلمات في يوم سفره. وأنا الغافلة في غمرة الأشغال والأحداث، دائما أعيش معه في كل لحظاته وهو يجيد التعبير، أما أنا فلا أمتلك الجرأة على التعبير عمّا أشعر به، لذا دائما أجد الهرب حلا ولكن إلى متى... و هذا ما لا أجد له جوابا.

اليوم أستطيع محادثته بارتياح، بحرية لم أنلها من قبل، وحيدة في غرفتي ليلة خميس وهو في عتق من أفراد عائلته وزوجته، يعيش رفاهية خمسة نجوم في غرفة فندقية فخمة، مما سيجعل مزاجه نعيما أنا وحدي من سيعيش فيه ويستمتع بلذة خلوته. وأنا على يقين أني سأكون معه أكثر لطفا وطاعة، وأبدأ حديثي معه متجاهلة إهمالي له طيلة الأيام السابقة، وكلي ثقة بانتظاره المؤكد لإطلالتي.

- كل هذه الأناقة في المطار يا أستاذ؟ هل أنت متأكد أنك ذاهب وحدك؟

تمر خمس دقائق، ولا يجيب.

- سعوود.

أيضا لا يجيب.

وأنتظر عشر دقائق أخرى بلا رد، فأشعر ولأول مرة

بإحساس غريب ينتابني من رأسي إلى أسفل قدمي مرورا بكل ما ينبض بحس داخلي، لم يكن في الحسبان غيابه حين أريده، فمذ تعارفنا وهو بانتظاري وانتظار أبسط كلمة أتواصل بها معه، والآن أكلمه فلا يجيب!

خيبة تتسلل في جروح كياني، وكآبة تعتري لحظة استعدادي. لا شيء يستدعي التوضيح، غرفة الفندق التي تخيلتها لم تكن مغرية لأفكاري وحدي؛ الإغراء يستحوذ على خيال الجميع، والفائز دائما هو الأقرب إلى نقطة الإغراء.

سعد الممتلئ رجولة ورغبة لن يضيع إغراء وقت أو مكان، ومن من النساء تراها تضيع إغراء سعد في فندق دافئ في مدينة ساحرة كدبي؟! أحسست بعاصفة تعبث بتلافيف دماغي وتفقدني صوابي، وأحسست بدوران يصيب قلبي وكبدي، يأخذني إلى عوالم بعيدة، ثم يعيدني ويسقطني فراشا أمام شاشة تشع شكا، وتخفي خلفها ما يمكن أن يحولني إلى امرأة كسائر النساء تنفجر غيظا، إذا ما اكتشفت أن رجلها تلفه أحضان لاهية في فراش البعد.

ولكن سعدا ليس رجلي ولا تربطني به حبال النساء، فلماذا أتوهم إحساسا لا حق لي فيه؟ لم كل هذا الأزيز في رأسي؟ فقط لأنه لم يرد خلال بضع دقائق على رسالة تحمل

جوابا لرسالته التي نامت في صندوقي الوارد ستة أيام!

ومع هذا، أشعر برغبة في البكاء، أكاد لا أميز إن كان ما أشعر به في داخلي عاصفة أم عاطفة، أريده بجانبي وأفتقده، وأكره مجرّد فكرة أن تشاركني فيه امرأة أو أن تكون بجواره، أرفض أن يستبدلني وأصر على رفضي؛ فهي مسألة كرامة.

من قال لكم إنّها مشاعر غيرة؟!

غيرة! هل حقا أشعر بالغيرة؟! وأنا الواثقة بأنّ الإحساس بالغيرة لا يولد إلا بعد حب صادق، لا يمكن أن أكون قد وقعت في حبه، فالقضية بدأت وما زالت قضية إشغال وقت، كيف استغلها الوقت دون أن يخبر قلبي بما يحفر فيه طيلة شهور؟!

لن أسمح لقلبي بالتهور ولا لمشاعر الحب بالتغلغل، بدأتها علاقة صداقة وسأستمر فيها لتبقى صداقة، ليست نعمة من تقدم على حب رجل متزوج، ومن خلف شاشة.

أقولها وعيناي تترقبان رده، وروحي تتضرع إلى الله أن يجيب، وصورته تلهب دمي وتشعل فيه نارا لا تشبه نارا أخرى، سأرسل له للمرة الأخيرة.

- سعد.

- نعم؟

- لماذا لا تجيب؟

- أخيرا، تذكرت أن هناك إنسانا اسمه سعد. بعد ستة أيام، ولا سلام ولا كلام ولا تعليق على الصورة! ما هذه القسوة في قلبك؟ سألتك عدة مرات إذا كنت لا تريدينني في حياتك فأخبريني دون أن تقللي من قيمتي واحترامي، فأكثر ما أكرهه هو قلة الاحترام، وأن يكون وجودي وعدمه سواء، فكلّ يوم أنتظر منك إيميلا أو حتى كلمة، وفي آخر الليل تصيبني خيبة الأمل نفسها.

- أنا آسفة سعد. ولكن صدقني هي الظروف في الأيام التي مرت، كنت في حالة لا أحسد عليها. أقل ما في الأمر أنني وحدي في البيت فأبي وأمي سافرا، وهذا أول يوم أمتلك فيه الوقت لمحادثتك.

- أنت وحدك في البيت؟ وكيف تبقين وحدك؟

- لست وحدي تماما، لا تقلق.

- أغلقي الأبواب جيدا وأقفلي باب دارك، واتركي الموبايل قريبا منك.

تحيرني يا سعد، تظهر كل هذا الخوف من أجلي وأنا متأكدة أنك صادق، وفي الوقت نفسه أنت مصدر خوفي الوحيد! أخاف على نفسي منك، ولن يتسبب أحد بإيذائي سواك، مضحك أن تكون المجرم والحارس في الوقت ذاته.

منك أخاف، وإليك ألجأ، وعليك اللعنة!

وأتابع تحت هيمنة انجذابي العاطفي:

- أنا لست طفلة سعد، لا داعي للخوف، فقط أخبرني عنك وعن كل التفاصيل.

- أنت طفلتي التي أخاف عليها من نسمة تعبر أمام عينيها، طفلتي التي أشتاق لها إلى حد الجنون، حبيبتي التي أحلم بها والتي تؤنسني وترافقني في كل مكان وفي كل حدث طوال الأيام الماضية، حبيبتي التي تنام على ذراعي كل ليلة، وأحلم بكل ما تسمحين به ومالا تسمحين.

- سعد تذكر، نحن مجرد أصدقاء، لا تذهب بذهنك بعيدا.

- لا أريد أن نكون أصدقاء. أنت حبيبتي وامرأتي وحلم قلبي، كيف أصادق امرأة أشتهي كل ما فيها؟! في كل مرة أنظر إلى صورتك لا أصدق عينيّ، وعقلي لا يصدق جنوني، قلبي يتراقص على أنغام بسمتك، ويثمل من نظرة أعتقت الرغبة الكامنة داخلي سنينا.!

- سعد، أنت تحرجني، يجب أن أنام الآن.

- تنامين؟ مستحيل، والله لو تركتني الآن فلن أكلمك بعدها، لو تركتني الآن فسأموت قهرا، لم يعد شيء في

الحياة يعني لي شيئا سواك. أمووول، بلييز أريد أن أسمع صوتك. هذا رجاء، وهذه فرصة لن تتكرر، هيا بيبي.

- لقد تأخر الوقت، ومن غير اللائق أن أحادثك بعد منتصف الليل. ربما في وقت آخر.

- سأتصل على الماسنجر.

- لا.

- ردي.

- مستحيل.

- ردي.

- ...

- ردي، لن أتوقف عن الاتصال حتّى تردي.

- ما بك سعد، تتصرف مثل المراهقين؟ لا أعتقد أن هذا التصرف يليق بمدرس جامعي أو بمن هم في مثل عمرنا.

- ضحكوا علينا بقصة العمر، فما نحن إلا أطفال ومراهقون بعمر الكبار، أحتاج إليك أموول، أحتاج إليك أكثر مما تتصورين وأشتاق إليك شوق الحياة في الصباح وفي المساء، أرغب في التحرش بطيفك لعلّني أصل إليك في ليلة باردة، فأوقد في تضاريسك الباردة نيران النعيم،

وأعلمك إدمان السعادة في الحب. سأتصل وأستحلفك بالله أن تردي، خمس دقائق فقط أسمع صوتك وأغلق، وهذا وعد مني.

- انتظر لحظة. أنا لن أتكلم، سأستمع فقط.

- موافق، يكفيني سماع نفس خرج من صدر حبيبتي.

قمت لأتأكد من أني أقفلت الباب وأن شيري نائمة، وكأنني على وشك ارتكاب جريمة. فقط معك يا سعد، أشعر أني فتاة غير جيدة وغير جديرة بالثقة، أنت تحملني وزر خطيئة لم ولن أرتكبها، تبعثر ترتيب عواطفي وتحرق نفَسا يخشى الحرية، تجردني من كل عناصر قوتي بمهارة، تسلبني الـ "لا"، وتحولها إلى استجابة مكللة بالرضا، فمن منا لا يفتقد أحاسيس الشوق.، والدلع.، والحب.، و، الفرح؟!

- هل أتصل؟

- أوكي.

وأسمع أول رنين ماسنجر من شخص يتفنن في اقتحام خبايا نفسي، من يصدق أني لا أجرؤ على الرد؟! أشعر أن ردي سيسحب حجاب العفة عن رأس التزامي، ويحل أزرار مبادئي، ويستبيح حرمة داخلي.

يا للسخرية! أخشى رجلا من خلف شاشة!

يعيد الاتصال ويكتب "ردّي"، لهجته الآمرة تسبب لي الشلل ومعها رضوخ عديم الإحساس بما يجري، فأضغط "قبول المكالمة"، وتأتيني كلماته وصوته الآسر الجاذب الخافت:

- ألووو.

- ألو.

- أمووووول، أمووووولتي.

- هههههه.

- فديت الضحكة يا كل الحب، يا بعد الروح والقلب. أموت في دلعك.

- ...

- تكلمي أمووول، أريد أن أسمع صوتك أوضح.

- كيف دبي؟ وكيف الإجازة؟

- ينقصهما أن تكوني معي وينقصني، بل كنت معي أيتها المدللة المتربعة على عرش أيامي. افتحي الكاميرا، أريد أن يكتمل جمال ليلي بأحلى قمر.

- لا، أصلا لا يوجد عندي كاميرا، فهي مكسورة، ولا أحب مكالمات الفيديو.

- حتى ولو قلت لك إنّه سيكون سبب سعادتي التي حرمت منها عمرا.

- سعد، لقد تحدثنا وسمعت صوتي. سأغلق الاتصال الآن.

ومن دون أن أنتظر رده، قطعت الاتصال.

فيسألني: ماذا حدث؟ وأجيبه أني قطعت الاتصال لأني سمعت صوتا أمام الغرفة.

فيتابع كتابة.

- هل تندمين على أشياء حدثت بيننا؟

- (وتمنيت لو أجبته أني أندم على أشياء لم تحدث بيننا!)

- أموووول... حياااااتي، يا أحلى لحظاتي، يا ماضيّ وحاضري وفيك أشكّل ذكرياتي، يا أحلى اختياراتي، أنا فقير الحب، متسول الأمل، أركع على عتبة قلبك مهديا إيّاكِ دقات قلبي لتخبرك أنك أنت من أنتظر ومن أشتاق، وأنك أنت من يخط تاريخ ميلادي ويخلق الحياة في عمري، أشعر أن مفرداتي تضيع وتتوه أمام بهجة الحضور التي أعيشها الآن، هل أحسست أننا أقرب؟ أخبريني كيف تشعرين الآن؟

- أحببت صوتك وطريقتك في الكلام، وأنت؟

- أنا.، أنا الآن الأسعد بين البشر، أنا الخدر بسماع صوتك، أنا المحتاج إلى وجودك والخائف من عدمه، أنا بخير، وحي بوجود الأمل.

- سعوود، ألا ترى أنك متسرع؟ أو أننا متسرعان؟ ما تعرفه عني لا يكفي لتهديني كل هذه المشاعر.

- ما أعرفه يكفيني، وما يزيد لا أريده. سنلتقي وسأراك ليس من أجل التعارف وإنما من أجل الحب، أريد أن أختزل في شفتيك كل فنون الحب التي عرفتها، وأزرع في جسدك أوراق عشق نسجتها لامرأة بمثل جمالك ودلالك.

- أخاف كلامك سعد. للمرة الألف أكرر، دعنا أصدقاء، وإذا ما تطورت العلاقة بيننا فلكل حادث حديث عندئذ.

- مشاعر الحب لا عودة فيها يا حبيبتي، فما بالك إذا كانت قد تجاوزت مراحل الحب؟!

سأرسل إليك صوري في غرفتي الآن، وأتمنى أن تكوني معي في رحلتي القادمة.

وفعلا أرسل إليّ خمس صور مختلفة. إنّه متهور لا يخشى شيئا أو ربما واثق لا يحب الشكوك، يريدني أن أراه في كل حالاته وأرى وجهه وشعره وجسده، لا بد أنّه متمرس في هذا المجال، فلا شيء يمنحك الجرأة كما تمنحها

الخبرة والتمكن!

- صورك جميلة سعد.

رد علي بخبث واضح:

هل تمنيت لو كنت معي؟

- لا، وكيف أكون معك؟

- ليس مهما كيف، ولكن فقط تخيلي لو كنت معي تماما كما أفعل أنا كل يوم!

- جرأتك غير عادية، أنا لم أعتد مثل هذا الكلام.

- ستعتادين معي، سأعلمك ما يجعلك تحلقين في فضاء اللاوعي وأنت في قمة الوعي، سأجعلك تنسين نفسك وتتذكرين شخصا واحدا فقط وإحساسا واحدا فقط. هل سأراك عندما أعود إلى الكويت؟

- سنلتقي في يوم من الأيام.

- أجوبة ضبابية دائما، حسنا هل سترسلين إليّ صورة جميلة أعيش معها الليلة؟ صورك قنابل موقوتة، وأعلم أنها لا يجوز أن تقترب من مصادر الحرارة، ولكن جمالها يهون علي كل أنواع الموت، لم أر في جمالها يوما.

- يجب ألّا تهتم كثيرا لموضوع الصور وخصوصا معي، فالصور غير حقيقية وقد تكون مختلفة عن شخصية

صاحبها... صوري عادية، فقط مكان التصوير يضع بعض اللمسات عليها فتبدو جميلة، بالمناسبة اسمه فوتو ماجيك، إن أحببت فعندهم قسم رجالي.

- أرسلي إليّ صورة، وارحمي شوقي.

- غدا صباحا ستجدها في بريدك الوارد.

- أعتقد أن حسين الجسمي غنى أغنيته "قول إني ما أهمك يا برودك والله دمك" خصيصا لك! أهون عليك يا مجرم الإحساس أن أنام وحيدا؟

- ههههه، سعد أنا سعيدة بالحديث معك، واليوم له خصوصية في علاقتنا، أنت شخص مريح ودمك خفيف.

- و أنت يا ثقل دمك، ناقص أن تقولي "نرا كم على خير مشاهدينا الأعزاء".

- هههههه لا، سأقول تصبح على خير.

- مممم أعدك أنّي في يوم من الأيام سأنتقم، يا ظالم الإحساس، تصبح على خير، "وأتمنى لك أحلاما ساخنة"، أقصد.، "أحلام سعيدة".

- وأنا أتمنى لك "أحلام إماراتية"، أقصد "أحلام وردية".

ضحكنا وتبادلنا إيموجيات حب وقلوب وقبل كمراهقين يعيشان اللحظة للمرة الأولى بأعلى درجات الأوكسيتوسين.

أرسلت إليه صورة جديدة، وما أسهل الكرم من جيوب الآخرين!

وهل يمكن لصورة أن تهب رجلا جناحين، فيحلق في فضاءات الخيال، ويقطف السعادة باقات من نجوم الهيام، يشتمّها عبيرا شافيا لجروح نقشتها الحياة في جسد روحه، جروح سببت أنينا ما زال يسمع صوته كلما لمست ذاكرته سببها وزمانها ومكانها؟!

أقترب منك في عالمنا الافتراضي بقدر ابتعادي عنك في الحقيقة.، هذه هي الحقيقة!

أدرك كل الإدراك أني لن أكون حرة معك لو التقيتك حقيقة، ولن أتخلى عن قيودي المتمثلة بالصورة المثالية التي ترضي مجتمعي وجميع من فيه، معك في عالم الحقيقة لا أمتلك الحرية، ودائما أؤمن بأن لا إبداع في أي مجال دون حرية! معك سأقول "لا" لأنها ستعطيني برواظا لافتا وقويا لصورتي سواء أكانت صورتي سليمة أم مشوهة، في عالمنا الحقيقي ستحاسب وتلام وتقال من عرش مكانتك إذا ما عشت حريتك وخاصّة العاطفية...

لن تُغفَر لك فصاحة تعبيرك عن شعورك في لحظات النشوة، ولن يعفى عنك فيما لو قلت: "أنا أرغب"!

ما زالت علاقتي معك في البدايات، ولكني بدأت

أقارن بين الزوجة والعشيقة، وأستكشف الفرق بينهما! حتى العشيقة ستنتحل شخصية أخرى فيما لو أصبحت زوجة، وهذا حتما ينطبق على الزوجة! لو تسنّى للزوجة أن تنسى أن شريكها هو زوجها، ولو تسنّى لها أن تلعب دور العشيقة، فستصبح أكثر احترافا ومهارة في تقديم الحب وأنواعه للشريك نفسه الذي جفت مرارته من جفاف زوجته العاطفي وجهلها أسرار الحياة الزوجية، وذلك لحدة ذاكرته أن من بين يديه هي زوجته وأم أولاده العفيفة!

لا يمكن لامرأة أن تكون في نظر زوجها أمّا مستأمنة على تربية وتنشئة أولادها إذا حدث وباعت له هواها على فراش الغرام ليلا أو نهارا، خفية أو تحت أضواء الحلال، رغبة أو تفاديا لافتراشه سريرا آخر مع من هي ليست أمّا لأحد من أبنائه!

العلاقة مع العشيقة أشهى لأنها أكثر حرية، لأن العشيقة تتميز كلما عبرت أكثر، وكلما تفننت في الشذوذ العاطفي المباح والتخلص من فشل الحياء والتحرر من الكتمان أكثر، غياب الخوف من محاكمة شريكها الأخلاقية لها يحميها من ارتباكات تفسد دلع اللذة في لحظة توقف النفس! وكلما دخلت في المحظور وتجاوزت الحدود الأخلاقية أكثر، فستحظى بتقدير شريكها على امتلاكها

مفاتيح الإثارة في عالم الحب والعاطفة، وستكافأ على توظيف احتيالاتها الأنثوية، وستحظى بامتيازات رجولته وإعجابه الفكري والفطري، فالكلّ يبحث عمّا يرضيه، وعمّن يرضيه!

كل ما أفكر فيه جعلني أصمم أن أكون مجرد حبيبة افتراضية أونلاين، فما يحدث خلف الشاشة لا يمكن أن أجعله حقيقة أمام الشمس!

وهكذا تكررت المراسلات والمحادثات والمعاكسات التي تطمح لتتحوّل إلى ممارسات، ولكن ما زال طريقها معرقلا بإشارات ضوئية حمراء، وقوانين مرور صارمة العقوبة على المبتدئين في قيادة مركبات النقل العاطفية المحرمة مجتمعيا!

***

الفصل الخامس

الحب هذا الانجذاب غير المحكوم، غير المفهوم، غير المتوقع، هذا الإحساس الإيجابي اللذيذ المبهم المليء بالود والحاجة والرغبة في امتلاك الفرح.

الحب إحساس فوق كل القوانين، يقترف مرتكبوه الجرائم بإرادة راغبة ويد واعية ودوافع صادقة وموافقات أصدق!

ثمة اختلاف كبير بين حب المرأة وحب الرجل؛ المرأة تطيل التفكير والتأويل، تستحضر الماضي والحاضر والمستقبل وكل من عاش ويعيش في عالمها، تنتظر الوصول إلى حد الإشباع في الإعجاب والثقة بمن سيكون أو من ستجعله حبيبها، تتأنّى في كشف مشاعرها بل وتحكم إغلاق أبوابها، تدرس قرارها في الحب وكأنه قرار إعادة تشكيل للكون، تستحضر أرواح الرومانسية من كل حرف وكل تلميح، وتفتش عن كيفية استقرار عاطفتها معه والاكتفاء به إلى الأبد... تختلق الأحداث وحواراتها، بداياتها ونتائجها، عواقبها وسير مجراها، تخاصمها العفوية وتحتلها الريبة، تضع لنفسها الاختبارات وتقضي أياما تحضر وتبتكر الحلول والإجابات، كل هذا لتجرب قبول الوقوع في الحب وليس الوقوع فيه!

أما الرجل فحبه سريع، مادي الهدف، واضح القصد، يكفيه أن يعجب بمظهرها وكلامها وباقي مفاتنها ليغرق في بحر الحب، يتفنن في تفجير العاطفة فلا وقت عنده للتردد أو الهدر، ولا أسهل من قوله: "أنا أحبك"، يتبع رغبته غير آبه بما بعدها، ولماذا يهتم بما بعدها؟ فلا مشكلة عنده في تجاوز الخيبة فيما لو حدثت، والبدء في حلم جديد!

***

في كل مرة يحادثني، يستوقد إحساسا خاليا من القيود، يسترضي مبدأ متمردا، يستنفد مخزون مقاومة متخاذلة، نعم أشعر بتخاذل أشيائي معه، فكلٌ يحب ما ومن يرضيه!

في كل مرة يكلمني فيها قبل المغرب، يشعل نارا ولهيبا وكأنه وقت تأجج المشاعر لديه، وقت شربه القهوة ووقت راحته، يرمي إليّ كلاما في الحب كطُعم لذيذ المذاق يجعلني أتسمر أمام شاشتي، يشبكني بحبال الهوى، ثم يستأذنني في الذهاب للصلاة، ويعتذر سلفا عن التأخير لأنه يطيل قراءة الكتاب المقدس!

أي مزايدة في التعبد والتقوى أيها الغريب؟ كيف تستطيع الانتقال بين وسطين مختلفين تماما بفارق دقائق؟ هل تقواك مظاهر أم حقيقة؟ ستار أم عادة؟ فرض أم يقين؟ وأنا -بنفس الغرابة- أنتظره!

نعم، لا أقل عنه غرابة.

أنا أميرة العفة، ملكة الالتزام، سلطانة الأدب والتربية، ألحظ قبولي وبداية تحولي إلى جماعة الليل وآخره مع هذا المحترف غراما، الثري حظا، والمشتعل عاطفة!

كلنا يحتضن في داخله هذين الجانبين المتناقضين؛ جانب نطل به على العالم الخارجي، وجانب نتلحفه إلى حين توفر أسبابه!

تغريني كلمات حبه الملغومة، وما يرسل من أغان وأشعار منتقاة تتحرش بهشاشتي العاطفية.

يضرم نارا تصل إلى أطراف أصابعي، ويربك ممرات أحشائي بصدى ما يشعر به كلما خاطب جانب الأنوثة داخل جسدي.

رجل متمرس بإثارة الفتن بين المسموح وغير المسموح، بين حسن الاستجابة ورغبة المشاعر النائمة،

رجل يبث سم الخطيئة في عسل الالتزام. لديه من الثبات ما يهزم ترددي في كل مرة، ولديه من الطيبة ما برق له قلبي وعقلي.

اقتراف محبوس داخل جدران غرفة، والباب موصد، واللابتوب يشاركني غرفتي وربما سريري؛ الحقيقة لست متأكدة من يشاركني السرير هل هو اللاب أم

من في داخله؟ أشعر كأن جريمة تتكرر في المكان نفسه، والأصعب من هذا إدراكي أني شريكة في الجريمة!

كل الجرائم يمكن تلافيها بكلمة "لا"، ولكن يبدو أني نسيت هذه الكلمة معه أو أنه يرغمني على الـ "نعم" تحت تأثير أسلوبه الشهي.

كلماته تتأجج شغفا كل يوم، رغبته مستميتة لفتح كاميرا والاستمتاع بكل ثانية، توسلاته لا تتوقف ترجو لقاء حقيقيا، وأنا الراضية الراضخة المنتشية بتوسلاته، البارعة في تأجيلها، والمستجيبة يوما بعد يوم لأوامره العاطفية، بعد أن فقد كل سيطرة على مكابح رغبته الجنونية وتعلقه غير المشروط بكل تفاصيل من أصبحت حبه و"أمله"!

تجذرت علاقتنا في دلتا خصبة تكوّن وجودها من ثلاثة عناصر لا رابع لهم: أنا، هو، وشبكة إنترنت! لا هو يملّ تواصلا، ولا أنا أرتوي حبا، ولا شبكة الإنترنت تشتكي تعبا!

تمر الأيام والشهور، والمنغص الوحيد في هذا الموضوع هو إلحاحه المستمر على تطوير العلاقة؛ يريد علاقة حية أكثر، فلم تعد الرسائل واتصالات الماسنجر تطفئ نار أشواقه، يريدني أن أتحدث، أن أظهر، أن نلتقي، وكفانا تضييعا لوقت يذهب من شبابنا وشغفنا اللامحدود، هو موقن أن إدماننا العاطفي سيقرب موعد اللقاء، وأنا الأدرى أن هذا

الإدمان نفسه سيجعل لقاءنا استحالة!

يومان بقيا لعيد الحب، وأول مرة في حياتي سأستقبله ومعي شريك!

وخصوصا أن أمي بعد عودتها من فرنسا تلازم غرفتها معظم الوقت، وأبي إما في عمله أو يلازم أمي وكأنهما يتباحثان في إيجاد حل يضمن السلام في كل أنحاء العالم!

وأنا في كل ليلة على موعد مع حبيبي الذي لا يستطيع النوم، قبل أن يشبعني حبا وغراما وكلاما دافئا يذيب ثلوج القمم فيما لو لفحها عابرا.

- أمموووللي، هل اشتقت إليّ؟

- حتى بلغ الشوق منتهاه.

- تحبينني؟

- اسأل قلبك، سيجاوب بكلمات تتفوق على سذاجة كلماتي.

- جاوبي.

- أحبك، ولو كان هناك كلمة تعبر أكثر عما أشعر به تجاهك لما ادخرتها، وأتمنى أن تضمني في أول أيام العيد، وأنت ماذا تتمنى؟

- أنا أتمنى لو كان العيد في هذه اللحظة.

- ههههه.

- هل ستبقين معي، ولن تتركيني يوما أقاسي وحدة جديدة؟

- ما بك سعد؟ لماذا تتكلم بهذه الطريقة؟

- لأنني لم أعتد مثل هذه السعادة، ولم أعش مثل لحظاتي معك، وأنت إلى الآن مجرد سراب، مجرد صوت من وراء شاشة، أحيانا أشعر أني معتوه أحب وهما، أعشق شاشة، أخجل من حماقتي، وأخاف أن أعيش بلا أمل.

يؤلمني صدقه في الكلام، توجعني طيبة قلبه، شخص يتحدى المستحيل ليكون ناجحا مميزا، يقضي وقته بين العمل وقراءة الكتب والاهتمام بصحته، شهور ويحصل على شهادة دكتوراه في الهندسة، فنان حب وغرام، ملتزم بحدوده، وصامت معظم الوقت، له عالم خاص يكشفه ما يرسله إليّ من صور لبيوت ومقاهٍ ولوحات قديمة تحتوي الكثير من الجمال، ولكن في الوقت نفسه تخبئ جانبا من الكآبة والصمت.

أريد أن أخرجه من عالمه الحزين، وبعدها أخرج من عالمه نهائيا دون ترك أثر مبرح، فأنا يا سعد لا أستطيع أن أكون حقيقة في تاريخك، وأنا راضية أن أكون محطة

تترك فيها حقيبة آلامك وتغادر، فأنا لدي ما يكفيني لأكون سعيدة في حياتي.

أتابع إرسال كلمات صادقة تحمل بين حروفها رسالة غير مباشرة:

- لا تستكثر السعادة على نفسك سعد، أنت تستحق سعادة العالم كلها، لا تفكر فيما سيأتي وبالذات معي، أنت الآن تعيش أوقاتا جميلة وحياتك الأخرى تسير أمورها تماما، يعني أنت لا تضيع وقتك في انتظار أحد نتوقف عنده حياتك، أنت قمت بتكوين أسرة رائعة، وأولادك يكبرون مع الزمن نفسه الذي نقضيه معا. باختصار، أنت لم ولن تخسر شيئا فيما لو بقينا معا أو لم نبق.

- وكأنك تنفذين ما أخشى حدوثه في يوم من الأيّام، ما هذا الكلام القاسي أمل؟ كيف تقيسين الحياة والمشاعر والزمن بمقاييس ظالمة كهذه؟ هل هذه مكانة علاقتنا عندك؟ هل تظنين أن لحياتي طعما من دونك؟ هل تفكرين في تركي يوما ما؟ أرجوك أخبريني، أتفكرين بالانسحاب بعد أن أصبحت كل الحنان في حياتي وكل الأمل؟ قولي "لا" أرجوك.

- لا، أنت حبيبي وأنت عشقي، وقد أصبحت جزءا من كياني، وأشعر بسعادة عميقة لأني أصبحت جزءا من سعادتك، ولا أفكر في الانسحاب من حياتك إلا إذا كان

هذا خيارك،

وإن كان هذا خيارك، فسأذبحك بسببه يومها.

لا أدري ما الذي يجعلني أجامل مشاعره إلى هذه الدرجة، وأجيب بكلام معاكس لما أنوي قوله.

- أنت تعلمين أنك حبيبتي وأنك مجرمة غرام، وأن ضعفك أمامي يفقدني صوابي، وتعلمين أن بين عشقك والإجرام أصيب عقلي بالجنون، تعلمين ماذا يقول جبران:

" 'أشعر أنني أريد أن أقول لك فقط أحبك، ومن ثم أبكي؛ أبكي لأنها تعبر عن الكثير ولأنها تختصر الكثير، ولأن الأطفال حين يعجزون عن التعبير يبكون ويرددون كلمة واحدة غير مفهومة ومبهمة".

- هل تناولت عشاءك؟ قلتها لأغيّر بوصلة الحديث، فأمامي طفل يحتاج إلى اهتمام وحنان، ويبدو أن حرمانه من هذا الحنان يرافقه طوال عمره.

- ما رأيك أن نخرج ونتناول العشاء معا؟

- لا طبعا، لا. أمي تجهز التبولة، ما رأيك أن أقول لها أن تحسب حسابك فيها؟

- لا، قولي لها أن تحسب حسابي ببنتها.

- ههههه.

- أمل.

- ؟

- متى سأراك؟

- لا تلح على اللقاء، من الممكن أن نلتقي ونخسر إحساسنا الجميل الذي نعيشه، ومن الممكن ألّا نعجب ببعضنا حقيقة.

- وهل يخطر ببالك أننا لن نلتقي أبدا؟ ما هذا الكلام؟ وما هذه العلاقة؟ بعد هذا العمر أقع في قصة حب مع جهاز كمبيوتر؟

- سنلتقي مصادفة، وكل مصادفة في وقتها جميلة.

- ما رأيك أن نحتفل في عيد الحب، ونجعله ذكرى تعارفنا وخصوصا أنه يصادف يوم جمعة، وأعدك أن نمضي يوما لا تنسيه طوال العمر؟

- أتمنى أن نكون معا، ولكن تذكر يا سعد أن لديك من هو أحق مني بهذا اليوم، لن أكون يوما دخيلة على حياتك الخاصة وحياة عائلتك بجميع أفرادها.

- عائلتي شأن يخصني وحدي لو سمحت، ولا داعي لاختراع حجج. يجب أن نلتقي، هناك كثير من الأشياء يجب أن أخبرك بها، أريد لصباحي أن يبدأ بك، ولليلي أن

يسدل ستائره مع إغماضة عينيك، أريد أن أشعر أنك معي في عملي وبيتي وأحلامي وفي كل لحظة تمر من عمري، صورك دوائي وأحاديثك محور حياتي، لم ألتق في حياتي شخصا أثر في نفسي وفهم أعماق ذاتي كما فعلت، أنا جاهز لتلبية كل طلباتك وشروطك، وإن أحببت أن تكون لقاءاتنا سرية أعدك ألّا يعلم أحد بها ولو دفعت حياتي ثمنا لذلك، ثقي بي، ثقي بحبي، ثقي أن القادم أجمل وأن النعيم ذاته ينتظرنا.

- لو سمحت سعد فلا تلح علي في هذا الموضوع، أنا متشوقة إلى لقائك أكثر منك، ولكن دعني أحدد الوقت المناسب.

- لا أحب أن أكون لحوحا، ولكن أتمنى أن تحددي الوقت قبل بلوغنا الثمانين من العمر!

- لا داعي للتهكم، وأرجو ألّا ينتهي حديثنا بخلاف.

- اطمئني، أنا لا أختلف مع أمورل حبيبتي، ولكنّي أطلب طلبا بسيطا.

- ؟

- سنقضي عيد الحب معا.

- نعم.

- سنلتقي أخيرا.

- لا.

- لئيمة، حتى بلغ اللؤم منتهاه.، ستفتحين الكاميرا؟

- .،

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

- هل تعدينني؟

- أعدك أني سأحاول.

- فكري في الموضوع وفكري كم سيكون ليلا جميلا، نتحدث فيه وجها لوجه، أتغزل بوجهك الجميل، وأسمع صوت ضحكتك الآسرة، دعيني أشعر أنك قريبة مني وأنك الحقيقة التي أبحث عنها وأستحقها، وتذكري أنك الشخص الأهم في حياتي لأنك صادقة ورقيقة وحنون، وأنك هدية السماء مكافأة لي على صبري وألمي.

- أتمنى أن يكون نصف حياتك الثاني بلا آلام، ومليئا بالحب والفرح والنجاح الذي تستحقه، وأن أكون معك منبع الحب الذي لا ينتهي ومصدر راحتك القادمة.

- حبيبتي أموول ستكونين، لن أطيل أكثر فوالدتك بانتظارك، وأنا مدين لها بشكر بحجم السماء لأنها أنجبتك إلى هذا العالم وبالذات إلى عالمي. تصبحين على خير، حبيبتي يا أجمل أيام عمري.

- وأنت من أهل الخير، حبيبي.

كانت أمي جالسة تشاهد فيلم "Autumn in NewYork" عندما ذهبت وقبلت خدها بحيوية وسعادة كانتا واضحتين أو على الأقل لم تخفيا على أمي، نظرت إلي نظرة كلها تساؤل واستغراب، وقالت:

- اعتقدت أنك نمت.

- لا، كنت أنهي بعض الإيميلات للشركة.

- جميل، واضح أن الإيميلات كانت ممتعة جدا.

- ههههههه ليس تماما.

- ؟

- الحقيقة أني تعرفت إلى صديق أونلاين دمه خفيف، ونتحادث من فترة إلى أخرى.

الغريب أن أمي لم تعلق على الموضوع ولم تسأل عن أي تفاصيل، نظرت إليها وأحسست بأنها حتى لم تسمع ما قلته أو لم يعنِها، وهذا عادي إذ ليس مهما التعرف إلى شخص أونلاين على الإطلاق. لم يكن هذا المهم؛ إذ رأيت أمي شاحبة وكأن إشراقة الحياة التي كانت تزين وجهها توشك على الغروب، وكانت عيناها تحملان من الحزن ما لم تحملاه عمرا.

- ماما، هل أنت بخير؟

- نعم بخير، سأنادي شيري لتحضر طبقك المفضل حبيبتي. ما رأيك بعصير الرمان بعدها؟

- يمي، رائع.

أشعر وكأن أمي تتهرب مني أو ربما تتهرب من شيء لا تريد مواجهتي به، وأنا لن ألح في سؤالي لأني متأكدة أن لا جواب سيشفي فضولي.

***

لقد خلق لي سعد جوا من الأنس والمتعة، ملأ لي فراغا كان سيزداد أكثر لولا انشغالي به، شيء ما غامض يجذب إليك شخصا دون غيره من مئات الأشخاص.

يأسرك، يجعلك تقف أمام هالته،

يعجبك، يجعل دقات قلبك تقف عندما تتحرك مواهبه في العزف على أوتار احتياجاتك، قد تكون صعب المزاج فيهوّنه، شرس القبول فيروّضك، عنيد الاستجابة فيلينك، متجمد الرغبات فيذيبك، جافّ الوصال فيضنيك شوقا، يتجاوز المسموح فيعلمك الكتمان ويخلق لك سرا بينك وبين نفسك لا تبوح به، وإنما تبتسم حياء كلما ذكرته.

يقال إنّ في الحب والحرب كل شيء مسموح، ومهما

بلغت إساءة الحبيب في ممارسة الحب لفظا أو غزله جرأة، فلن يستفز كرامة عاشق يرى حبيبه منبع الدلال والغنج ولا يرى فيه مذلة ولا استهانة، وهذا ما يجري مع سعد، يتجاوز حدود الأدب ويستبيح المحظور كلاما، ولكنه عوّدني على القبول، فالإلحاح يتغلب على الامتناع وخصوصا إذا ما وُجدت رغبة مبيتة غير متأكدة من تاريخ براءتها الافتراضية.

ففي معظم الأحيان وعند معظم العشاق، توجد نيران كامنة تحت الرماد، ولا يمكن أن تراها أو تشعر بها إلا إذا هبت نسائم الهوى وكشفت ما استتر بغطاء لا يزيد صلابة عن الرماد!

لن أستطيع التخلي عن رماد نيراني علنا، ولن أستطيع الحفاظ عليه سرا، وخصوصا أن من يبعثره سرّا يمتلك من النسائم ما يفوق الرياح عنفا!

أمام رغبات الحب، نقف كلنا عراة أو أشباه عراة؛

لسنا عراة ثياب وإنما عراة مبادئ وتربية وأخلاق ودين، نقترف كل ما نهينا عنه، ونرتكب ما كنّا نراه جريمة إن ارتكبناه!

وكيف عندما تكون رغبات الحب في الغرف السرية ذات الجدران الصماء والنوافذ الكفيفة؟!

كيف تكون رغبات الحب بلا شاهد يُدين ولا قاضٍ يحاكم...؟!

كيف تكون رغبات الحب، وعيون المجتمع لا تراك؟!

كيف تكون هذه الرغبات، وأنت مجهول الهوية بهيّ الطلة؟!

رغبات حبي تتأجج في أول عيد للحب، سأقضيه مع حبيبي سفّاح الغرام، محترف الحب، مجرم الإثارة. سيكون ليلا لا يشبه باقي الليالي ولا يكرر في تقويمها، ليلا عاصفا ماطرا هادئا دافئا آمنا حنونا واعدا بكل ما حلمت به عيون روحي وشفاه جسدي.

أشعر ببعض الذنب لما سوف أفعله مع هذا الغريب القريب، وفي الوقت نفسه أبرر لنفسي بأنّنا لا نخطئ فيما نمضيه، ولا نرتكب معصية اجتماعية أو دينية أو أخلاقية...

غرام افتراضي ينتهي من تاريخنا بزرّ (مسح أو تخطي)، غرام ليس على الملأ، غرام لا تحاسب عليه القوانين، غرام لا يغضب من تحت الأرض ولا من في الحياة.

سأعترف له بحبي، وأتجاوب مع حبه، وسأكون أكثر قربا منه، فلا ضير في رؤيته لشيء لا يثبت من أنا ومن أكون، أو سماعه صوتي وعدة كلمات قد تنفخ فيه روحا

جديدة تحمل بعضا من سعادة لم يتسنَّ له أن يتذوق طعمها، جبرا لمشاعره واستطبابا لجراحاته.

سألبس الأحمر وأبالغ بما سيتبقى، سأشعل البخور وأبالغ بما سيتبقى، سأرتدي العطور وأبالغ بما سيتبقى، سأكمل زينتي وأبالغ بما سيتبقى، سأمنحك حبي، ولكن لن أبالغ بما سيتبقى.

أنت اليوم لا حدودي ولا وعيي، معك اليوم بلا قيود وبلا خوف، معك إيمانا مني بأنّ لكل إنسان شريك روح يلقيه القدر مصادفة في طريق حياته، وقدري أن ألتقيك في عالم افتراضي أراك فيه أمام عيني ومن خلف شاشة تمنحني كل ما أحلم به إلا الحقيقة!

بداية قصتي سأرسمها لحنا على مفاتيح قانون شرقي، وسألون مفاتيح هذا القانون بكل ألوان ثغراته، والثغرات تحكم للمتهم بالبراءة أو الإدانة على هوى نغمات العازف الذي يتبع شكل "سكوت القانون"؛ هذا السكوت قانونيا يساعد الجاني على الإفلات من الجزاء طبقا لمبدأ "لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص سابق"، وحالتنا لا نصوص لها في سلم القانون!

كل شيء يسعى لتوفير جو ملائم لاكتمال علاقتنا، كم أنت جيد الحظ يا سعد، وأنت تدعي سوءه!

أبي قرر- ورضخت لقراره أمي - أن يذهبا في رحلة بحرية في يخت جميل ويعودا بعدها إلى الشاليه، وسألاني إن كنت أرغب في مرافقتهما، وبكل تأكيد اعتذرت وتعددت أسباب اعتذاري؛ ليس فقط لرغبتهم الواضحة في الذهاب وحدهم، أو رغبتي في البقاء في غرفتي وأحلامي، وإنما لأني أدرك أن أمي بحاجة إلى مثل هذا اليوم الممتلئ بما يسر النفس ويزيل الغم.

وحدي في البيت، في غرفتي، مع ملابسي وعطوري وبخوري وأجمل موسيقى، أستحضر جوا رومانسيا يليق بهذه المناسبة بكل ما سيحدث فيها من تفاصيل مرتبة، ستجدني أملا مختلفا هذه الليلة، أملا بنكهة حبيبة عاشقة، أملا تنتظر حبا أقل ما يقال فيه: إنّه حبٌّ قاتلٌ بجرعة زائدة!

أمل تنتظر جرعات عشقك، وأنت تمتلك أحسن الأصناف! وهي تعلم أنك ستخنق أنفاسها وترهق قلبها بكرمك العاطفي وهجومك الغرامي، وتكتبها بطلة افتراضية في قصة "حب أونلاين".

نمت ثلاث ساعات بعد الظهر لأكون في كامل استعدادي للقائه، بدأت أشعر بحبه داخل قلبي، أنتظره وأشتاق إليه وأفتقد وجوده بحق، سأعبر لك عن حبي الجمّ وعن اهتمامي الشديد بحبك لي واهتمامك بي،

سأعوضك عن جراح حياتك وأستبدل بها فرحا طويل الأمد، سأختارك مثلما اخترتني، وسأتعلم كيف أسقيك حبا كما تسقيني حتى أرتوي في كل مرة، سألملم خجلي وأستبدل به جرأة تخصك وحدك وترضيك وحدك، وإني على قناعة أنك تستحق!

السابعة وخمس دقائق، وأنا في كامل جمالي، أسرع إلى سريري وأفتح اللابتوب، وكما توقعت ترك لي رسالة على الماسنجر يخبرني أن هناك مفاجأة خاصة لي في هذا اليوم المميز أرسلها على الإيميل لتكون ذكرى أبدية تبرهن على صدق عواطفنا وعلاقتنا، وطلب إليّ أن أفتح وأراها.

قلبي ينبض كعروس في غرفتها، تتأهب لدخول رجلها الذي انتظر حتى تاه صبره ليختلي بها، مزيج تشوق وخوف، خجل وارتباك، رغبة ورهبة.

ماذا تخبئ لي يا حبيبي؟ هل تتوقع أنه يعادل ما أخبئه لك؟ هل تتخيل حجم المفاجأة التي تنتظرك؟ الليلة سيتحقق أول حلم من أحلامك، حلم سيغرقك حبا وإيمانا بأن لا شيء مستحيل، وأن الأمل يتحقق فقط مع أمل، أمل حبك وأمل حياتك وأمل السعادة.

لن أتأنى في إيقاظ جنونك ولن أتردد في جعلك ترى من الجمال ما يذهب ما تبقى من عقلك.

لن أحتمي بنفسي لتنقذني من الموت حبا على حضن من علمني الحب، ولن أستجير بعقلي ليمنع غياب وعيي انتشاء.

سأترك لك فيضا من المشاعر تغرق فيه الليلة وكل ليلة، فقد تأكدت أني لا أريد من الرجال سواك. وأنا على يقين أن رسالتك في بريدي ما هي إلا فتيل سيولع نارا في أوراق حبي، يليه إعلان نصرك عليّ وإعلاني لك استسلامي!

في داخل البريد الوارد رسالة وعدة مرفقات...

رأيتها... قرأتها... تلقيت صدمتها!

وفي رأسي اشتعلت شياطين الجحيم، ورقصت أمام عيني وتمايلت حتى مدت كل أيديها، ومن كل يد نلت صفعة موقف محرج مفاجئ إلى درجة اشتهاء الاختفاء من الوجود، وتتالت الصفعات حتى أحسست بأني غبت عن وعيي في أول دقيقة، من أول موعد قررت فيه أن أغيب حقا عن وعيي!

***

كانت عدة صور للفنانة "رزايا"، ومن بينها الصور التي أرسلتها مسبقا!

ورسائل بجمل مختصرة تقول:

"تصوري أموووول - سبحان الله- أن المصور فوتوماجيك قد صمم نفس الصور لـ "رزايا"!

"يعني من اليوم فصاعدا لا داعي لإرسال الصور، أستطيع تنزيلها بنفسي!"

"عشت قصة حب مع جهازي، والحمدلله ليس له عيون ولا آذان ليرى خيبتي أو يسمع أناتها!"

"قصير يا درب سعادتي، وأصلا ما اعتدت يوما أن أراك طويلا!"

"لماذا أنا؟ ما الذي فعلته معك لتحطمي قلبي وروحي؟ والله، إنك الوحيدة التي اخترتها من بين آلاف النساء، وإذا بك تختارين لي حزنا يرقص على أوجاعي وأحزاني، ويهزأ من حلمي بالفرح الذي أصابه الشلل ووقف عاجزا أمام الشامتين".

وأتبعها بكثير من الإيموجيات لقلوب محطمة ووجوه محبطة.

جلست ما يقارب الساعة، وأنا في حالة من الذهول وفقدان التوازن، ذهول من نفسي ومما فعلته، لا أصدق كل ما فعلته وما كنت سأفعله.

كيف لنعمة أن تكون بهذا القدر من السوء؟ كذب، غش، خديعة، خروج عن كل الأصول؟! أحاول أن أنزل

من سريري لأتفادى صراخا تطلبه روحي ولكني لا أقوى على النهوض، جسدي غير متوازن، رأسي يدور، والدم جف في وجهي.

أشعر أنني في عالم آخر وأنني شخص آخر، أكوام تأنيب ضمير تحاصرني، وتجلد ذاتي أسواط غاضبة، أنا من وضعت نفسي في شبكة الإحراج هذه، ووضعت هذا المسكين في خانة خيبة.

أشعر أني سقطت من عين نفسي ونزلت عن عرش أخلاقي، أنا التي لا تؤذي شعورا أحطم مشاعر إنسان محطم من كثرة الآلام، غارق في بر من الخذلان، وكنت أنا أمله الوحيد في النجاة!

***

مر يومان ذقت فيهما أسوأ أنواع العذاب إلى درجة أنني لم أذهب للدوام بحجة التعب، يجب أن أكلم سعدا وأن أخفف من خيبته التي كنت سببها، لا أعلم بأي عين أواجهه ولكن يجب أن أفعل، وأصلا كنت أتوقع أن يحصل ما حصل في يوم من الأيام، ولكن الفرق أني في الماضي كنت جاهزة للوداع، أما اليوم فلا قدرة لي على فعل ذلك؛ لقد تعلقت به وربما أحببته، ولا أستطيع تخيل حياتي بدونه.

سأستجمع قواي وأكلمه، من خلف الشاشة سأكون أقوى فلن أحتاج لأنظر في عينيه، فيهزمني بنظرة تحمل كل أشكال اللوم والعتب. ولأني لا أريد لقيمتي أن تبدو صغيرة في عينه،

أرسلت له إيميلا لأني محرجة إلى درجة أني غير قادرة على فتح محادثة، الإيميل يساعد على التخفي أكثر.

"والآن، هل تريد أن تعرف مع من كنت نتكلم طوال تلك الفترة حقيقة؟"

ويأتيني جوابه حاضرا: "لا، لا أريد منك شيئا ولا أريد أن أعرفك".

- هل تحدّد صورة عمق علاقتنا؟ هل كل ما أحببته طوال فترة تعارفنا هو صورة؟

- لا أريد أن أعرف من خدعتني واستهزأت بمشاعري شهورا طويلة، شبعت من دور المغفل، ولو سمحت فلا ترسلي إليّ مرة أخرى، فأنا لا أتحمل خديعة أخرى ولن أرد على إيميلاتك.

- إن كنت ترى أني خدعتك وأن الصورة خسارة كبيرة فسأوضح لك شيئا مهما، توقعت أن تبحث عن الصورة في غوغل وخصوصا أنني كنت ألمح دائما إلى أن الصورة تشبه فنانة أو أنك على الأقل تعرفها. الصورة لا

تعبر عن شيء، ونحن تعرفنا على النت ونجحنا في التقرب من بعضنا، ولا تستطيع نسيان اللحظات الجميلة والأوقات الرائعة التي قضيناها معا، وكانت تمر بسرعة تزعجنا أحيانا، وهذا الإحساس نادرا ما يحدث أو يتكرر.

لا تكبر الموضوع يا سعد ولا تجعل الصورة تنهي علاقة مميزة، أنا متمسكة بك، وكل مشاعري التي أحسستها معك صادقة. لا تقلق، أنا أجمل من الصورة التي رأيتها ولكن كل ما يهمني هو انسجامنا كشخصين، فلن تجد شخصا يلامس مشاعرك ويؤثر فيك ويفهمك كما حدث بيننا، وهذا ما كنا نحتاج إليه معا، فأنت شخص جميل في حياتي مثلما كنت أنا فتاة جميلة في حياتك.

- كان كل كلامي وحبي موجّها إلى صاحبة الصورة، كيف سأتقبلك بصورة جديدة؟ صورة الشخص الذي نتحدث معه لها بالغ الأهمية، والجمال ليس مقياسا للحب رغم أهمية الجمال عندي، ولكنّك لم تحترمي عقلي ولم تقدري مشاعري، أسأل نفسي: كم عدد المرات التي سخرت فيها مني ومن عقلي؟ وما حجم السخرية؟

- ما الذي يرضيك؟

- ...

- ؟؟

- أن أراك حقيقة.

- لست متأكدة، إذا أحببت يمكن أن نستمر بعلاقتنا أونلاين حتّى أقرر متى تراني حقيقة، وإن كان لا يناسبك فلك الخيار، وتذكر أنك ما تزال الشخص الذي كلما ذكرته ابتسمت... لنعطِ أنفسنا فرصة أخرى.

- فرصة؟! في أي عالم تعيشين؟ تخطئين وتكابرين، ضحكت على عقلي وخدعت قلبي وتقولين فرصة! والله، هذا عيب، لم أخطئ في حقك بكلمة واحدة؛ ولو حصل لاعتذرت مباشرة، وأنت الآن تخطئين وتضعين شروطا، وحتى لم أسمع منك كلمة "آسفة" أو "سامحني" وكأنك لم تفعلي شيئا.

يا أمل، أنا عندي كرامة لا أساوم عليها بكنوز الارض... وإذا كنت تبتسمين عندما تتذكرينني؛ فلأنني كنت معك صادقا عاشقا مخلصا، أما أنت فلو خطرت في بالي - وأتمنى ألّا تخطري- فمستحيل أن أبتسم، على العكس سأشعر أنك بلا قيمة يا امرأة تفننت في خداعي، يا من خانت الثقة وغاصت في مستنقع الأنانية، سخرتْ من شخص أحبها أكثر من حبه لعمره، ولم تراع مشاعره أو تحترم أحاسيسه.

أمل، لا أريد أن أذكرك في حياتي، اذهبي من عالمي، فأنا ولدت وحيدا وأعيش وحيدا وسأموت وحيدا.

كلمات كصاعقة حدثت بين شحناتي السلبية والإيجابية على سطح خاطري، وامتد وميض من أسفل قدمي إلى أعلى رأسي كبرق لمع وخط شرخا طوليا قسمني إلى نصفين، تبعه رعد قادم من سماء فكري جعلني حطاما مرميا مكوما على أرض خيبتي.

الخطأ الأول في حياتي، الخطأ الذي لا يشبهني فيما لو قررت أن أرتكبه، الخطأ غير المقصود الذي أشعل خيبة في نفسين لن يطفئها زمن أو ثقة مستعادة، لم أتوقع أن يكون شخصا صادقا وجادا إلى هذا الحد، كنت أتوقع أنه يستطيع التعرف إلى كل نساء الكويت، ومنهن طالباته وزميلاته وقريباته ومن يلتقيهن هنا وهناك.

أصحو كل يوم أفكر، أرى حالتنا تشبه انهمار مطر تائه في ظهيرة يوم صيفي على أرض متعطشة لكل نقطة ماء، لو لم تكن الأرض عطشى لما تغلغل داخلها المطر، هذا الشخص كان يعيش غربة حقيقية تفوق غربتي، وكان وحيدا أكثر من نعمة الفتاة الهجينة القادمة من بلاد الثلوج، والتي تبحث عمّن يؤنس وحدتها، ودون أن تدري وجدت نفسها مجرمة متهمة بجرح المشاعر، وهي المنسوجة من كتلة المشاعر نفسها!

"لترافقك السلامة والسعادة يا سعد، لا أعتقد أن بعد كلامك شفاء، أنا من وضعت نفسي في هذه المنزلة، وأنا

من يتحمل مسؤولية خطئها. سامحني يا سعد... سامحني يا حبيبي".

وبقرار لم يكن سهلا، حذفته من قائمة أصدقائي على الماسنجر، ولكن قلبي لم يطاوعني على حظره من الإيميل، فهناك ترقد ذكريات قد تداوي جرحي يوما ما.

الفصل السادس

وحده الزمن كفيل بنقلنا من حالة فكرية وجدانية إلى أخرى قد تكون مختلفة الصفات، نتابع كمشاهدين حياة بأحداث جديدة إلى أن نصل إلى مرحلة المشاركين في كل المشاهد.

نعيش الكثير من الحقائق، ونتعايش مع بعضها الآخر،

ودائما أقول: يجب علينا القبول، فما لا نقبله بإرادتنا سنقبله رغما عن أنوفنا، يجب أن نتظاهر بالقبول إرضاء لشيء ما داخل ذاتنا، شيء يعشق التمرد، شيء يريد أن يقول: أنا موجود، ولا أحب لأحد أن يتجاهل هذا الوجود!

لم تعد علاقاتنا الافتراضية تقل أهمية عن علاقاتنا الواقعية، ولا علاقة الأشخاص الافتراضيين أقل قوة من الأشخاص الحقيقيين.

أصبح لدينا الكثير من الأصدقاء خلف الشاشات وربما الأحبة، كنت أعتقد أننا لا نملك سوى الكثير من الوهم والكثير من المجاملات، كنت أعتقد أننا نعيش عزلة اجتماعية بسبب ما يسمى "التواصل الاجتماعي"، كنت أخاف الصمت الذي يسيطر على معظم الناس في معظم الأماكن.

في إحدى المرات أحسست بحزن حقيقي إذ كنت أجلس في إحدى الكافيهات الفخمة، وعلى الطاولة المجاورة شاب وفتاة بعمر الورد يبدو أنهما مخطوبان أو زوجان حديثان لم ينته طعم العسل بينهما، يعني هي الفرصة شبه الأخيرة ليشعرا ببعضهم ويتفاهما على قضاياهما المستقبلية، فرصة ليتقربا من بعضهما عاطفيا، ويعيشا جمالية نظرة العيون ولمسة اليد الأولى وخجل التعبير، ولكنهما جلسا وكل واحد منهما غارق في نقّاله، شربا العصير، حاسبا وخرجا، ولم يتبادلا كلمة واحدة ولا نظرة، نعم لقد شاركا الطاولة في صمتها وشاركا غيرها أحاسيسهما الخرساء!

جلست أتساءل، وأنا في غاية الاندهاش: "ما هذه الدعوة اللطيفة؟!".

هل بات هذا نوعا من الإدمان، وشكلا من أشكال مواكبة الحياة العصرية، والناس يتسابقون لاحتلال المرتبة الأولى؟! قد أستوعب ما يحدث في معظم الأماكن، ولكن حتى على الطرقات السريعة، الناس في سياراتهم، يد على مقود السيارة ويد على مقود الموبايل، شباب، فتيات، كهول، عجائز، شيء لا يصدق، ما هو الشيء الذي لا يحتمل الانتظار؟! تعرضون أنفسكم وغيركم لأسوأ الحوادث من أجل محادثات لن ترى الشمس؟ هل

تعتقدون أن بإمكانكم أن تتواصلوا مع آلاف من كل أنحاء العالم وألّا تهملوا طلباتهم؟ هل حقا هذا النوع من التواصل لا تمتلكونه في حياتكم الواقعية، فيسبب لكم الرضا في حياتكم الافتراضية؟ ما هو الشيء الذي لا ينتظر؟ هل تكتبون بياناتكم الختامية مثلا؟ أم إنكم توقعون على نهايات أقداركم بأيديكم؟!

كحقيقة حيّة، لم يعد يعنينا مخاطبة الآخرين والنظر في عيونهم،

لم يعد يثيرنا الاستماع إلى دقات قلب من نحب وحديث العيون،

أصبحت مشاعرنا إلكترونية مثل ثقافتنا...

لم أكن أتوقع أن قراءاتنا الإلكترونية لها نفس فائدة القراءة الورقية، بغض النظر عن الرابط الحميمي بين القارئ وبين ورقات الكتاب الصفراء، الرابط الذي قد لا يتوفر بين القارئ وبين الصفحات الملونة الأخرى.

حياتنا بدأت تضيع ونحن عالقون في الشبكة، ثمة طعم لذيذ يجذبنا إليها، فنعلق فيها جسدا وروحا، ويتم اصطيادنا من باب التسلية، ومن باب الإدمان نستمر!

إحساس الحرية الذي تعيشه في عالمك الافتراضي يمنحك ثقة أكبر في التعبير،

وضمان عدم المحاسبة يجعلك تستثمر هذه الحرية بكل ما تمتلك من رصيد فكريّ ومشاعر.

حاولت إقناع نفسي أن كل ما حصل مع سعد كان تمثيلية افتراضية، اقتضاها وقت الفراغ ومستجدات الحياة في بلد جديد، وأنها لا تتجاوز وهما للحب عشته معه لقلة الأشخاص في حياتي، وقررت التخلص من تأنيب الضمير بسبب خديعته غير المؤدبة، وغير المؤذية إلى ذلك الحد الذي يأخذ مني جهدا وزمنا للتخلص من آثارها، ومتابعة حياتي بما يليق بي وبعائلتي ومبادئي.

أجمل الأحداث حصلت لتساعدني على تخطي إحساسي بالذنب والخطأ، وخصوصا خلال أسبوع العيد الوطني المصادف للأسبوع الأخير من شهر فبراير، كان أسبوعا مليئا بكل ما يسلي النفس ويجمّل الحياة، تفاعلت مع مجتمعي أكثر وتقربت من الناس وتقربوا مني، وبدأت أشعر بانتمائي إلى وطن هو وطني، وارتباطي بأناس هم مجتمعي.

شاركت في كل المشاهد التي تبرز حب الكويت وتعزز حبها في قلبي، أبي وأمي في غمرة فرح يسترجعان لقاءهما الأول في مثل هذا الوقت منذ حوالي تسع وعشرين سنة، عمي عبد الله يشارك بصفة رسمية كدبلوماسي سابق، عزيز وعائلته احتفلوا وبالغوا بحفلات وطنية تحت اسم شركاتهم

إظهارا لولائهم وحبهم للبلد، وكذلك أفراد عائلة الجليلي وكل العائلات التي تربطنا بها صلة قرابة أو معرفة.

من خلال استعراضاتنا على شارع الخليج، انتابني إحساس أن شارع الخليج وجد لأجلي، لأجل سعادتي وتعديل مزاجي، لرسم ذكرياتي وترميم تصدعات نفسي، يشاركني هذا المكان في كل حدث يمر في حياتي منذ لحظة وصولي، وإني أؤمن إيمانا مطلقا بأن لا شيء يحدث عبثا!

ولكن العبث كان في تخيلاتي. في كل مكان أمر به، يخيل إليّ أني أرى سعدا، في كل حدث أجري معه حوارا خياليا، وفي كل مرة أشتاق إليه أكثر!

وأي مصادفة تستحق الإهمال؟! عادتي أن أعيد مشاهدة الصور والفيديوهات القديمة، وأي مصادفة تجعل صورته تظهر في أول فيديو، على شارع الخليج، وهو يمارس رياضة المشي على بعد أمتار مني؟!

***

بدأ بدر مشاركتي في كثير من تفاصيل حياتي، مكالمات متكررة وزيارات وتبادل كتب، وكنت سعيدة بتواصلنا القريب، ولكن شيئا لم يتغير في موقف أهله، ولم تنشأ أية علاقات عائلية جديدة رغم قوة علاقة بدر معنا.

كتب لي ذات مرة:

"هل فكرت مرة في معان أخرى للحياة لا تشبه ما اعتدناه من المعاني؟

فنحن اعتدنا أن الحياة هي عيش سنوات العمر، وتنفيذ قوانين الطبيعة والكون من مأكل ومشرب وعلم وعبادة وتكاثر وانتظار للمجهول.

كل ما نفهمه من الحياة أنها ضدّ الموت! وبالنسبة إليّ كنت أراها رحلة الاقتراب من الموت، أفعل كل ما يطلب إليّ لأعيش ولأكون مستعدا لحياة أبدية بعد الموت، ولكن ما حصل بعد وصولك إلى الكويت وتعرفي إليك أن مفاهيمي تبدلت،

وبات للحياة معنى آخر،

هل تدركين معنى أن يرى شخص الحياة من خلال شخص آخر؟ رؤية تذكرني بالكاميرا السحرية التي كانت تظهر محتوى الصور على الحائط عندما كنا أطفالا، ولا قيمة لتلك الصور بلا كاميرا.

هكذا الحياة، عنصر واحد فيها ممثل بشخص واحد يعطيها معنى وقيمة،

وفي الحياة عنصر يمثل أبجديات العالم في التعبير عما يقال وما لا يقال.

بدأت أدرك بساطة الحياة وسر السعادة فيها، حين وقعت في حب الدقائق التي تجمعني مع هذا الشخص، وغرقت في عشق ضحكاته وحركاته، عشت على فتات كلماته ولفتاته، واكتفيت بنعمة وجوده لأشعر بوجودي.

شخص أبصرت طريقي على أنوار وجوده، عرفته فعرفني الخير والفرح، تقربت منه فاحتضنتني الحياة وضمني الحلم!"

أجبته بمرح:

- أقسم إنك في حالة حب يا بدر، ولن يكفيك كرسي اعتراف، أنت تحتاج إلى عرش اعتراف ليليق بما ستبوح به من أسرار.

فردّ بكلمات عاشق يخشى الخيبة في الحب قائلا:

- نعم، أحتاج إلى عرش اعتراف؛ لأن من أحبها ملكة ويليق بها اعترافات الملوك، وأما أنا فأشعر أني عبد يستجمع قواه من خلف جدران، وتسجن مطالبه وراء باب مقفل لا يجرؤ على إدارة مفتاحه، فربما كان فيها رفض مطالبه أو ربما حان اغتيال حلمه بأكمله بتوقيت ساعة فتح الباب، وإشارة عقاربها إلى لحظة إعلان المطالب!.

- لا توجد أبواب مغلقة في الحب يا بدر، وكل الأبواب الموصدة والطرق المسدودة ستفتح بقوة الحب وإصرار

الحبيبين. صدقني، لا صوت يعلو على صوت الحب، ففضاءاته فضاءات الحرية والاستجابة.

- ربما كان للحب فضاءات حرية واستجابة في مكان آخر، في عوالم أخرى لا تُغتال فيها الكلمات والمشاعر ولا توأد فيها الأحاسيس حية، لا يحكم فيها على مقترف إثم الحب ولا يقاضى في محكمة الرفض، عالم آخر تبرئه مشاعر الحب من كل التجاوزات!

- هل تعلم أني لأول مرة أشعر بالفضول والرغبة في معرفة صاحبة الحظ الكبير التي فازت بقلبك المحب؟ هل ستعرفني إليها؟ على الأقل، صفها لي، كلمني عنها، واعتبرني كاتمة أسرارك كما ستكون كاتم أسراري في يوم من الأيام.

- هل لديك أسرار تريدين إخباري بها؟

- الآن لا، ولكن ربما في المستقبل.

- هل تثقين بي فعلا؟

- أثق بك وأستند عليك، ولك في نفسي مكانة لم يشغلها أحد مثلك، حدثني وكلي آذان صاغية، أعشق قصص الحب وأتشوق إلى سماع تفاصيلها.

أتاني رده جاثيا على ركبتي اعتراف، ثملا بكؤوس عشق مفرغة في جوف مشاعر لم تقتتْ شيئا من الحب منذ

صباحات الحياة الأولى،

ردَّ قد اتخذ قرارا لا عودة فيه لارتكاب جريمة شغف فيمن احتلت قلبه واستولت على أنفاس روحه.

أخبرني أنه سيكتب في الظلام كي لا تشهد الأنوار أدلة حبه التي لم تكتسب صفتها الشرعية بعد، فالاعترافات أسهل عندما لا يراك أحدٌ!

وبدأ الكتابة...

- أحببتها دون سابق ميعاد ودون زمن، أحببتها مذ وجدتها، وكأنني كنت أبحث عنها في دروب خيالي وفي أعماق آمالي، أحببتها دون قرار ودون تردد، وأنا الخجول في حضرة المشاعر، المرتبك في وجود الحب، أحببتها وأحببت يوم لقائها، أحببتها وأدركت أني كنت أتناول أيام عمري فقط لأكبر لا لأستلذ بطعمها، كنت أتناول أيام عمري لأبقى على قيد الحياة لا لأعيش إكسير الحياة.

أحببتها حب النظرة الأولى وكأن عيني كانتا جالستين ترقبان وصولها في محطات الانتظار، تبدد قلبي، وعقلي تبدل، تبعثر فكري، تشتت، ووجدتني تائها في خضرة عينيها.

وجدتني تائها في جرأة الفكرة في أن أكون نصفها الآخر، ليس لأنها نصف وليس لقدرتي على الإكمال، ولكن

لأمنيتي أن أكون جزءا منها لا تستغني عنه فيما لو توفر المكان.

هي كلٌّ كامل مكتمل، وأنا الناقص حبا، الراغب قربا، والمولع بالكمال!

حررتني، أعتقتْ مشاعري، وفتحت لي أبواب الحياة المطلة على أجمل المشاهد.

حدثتني عن إحساسها بغربة وضعها الجديد، ففضحت غربتي التي أعيشها في أوطان كياني.

صارحتني بمفهومها عن الحرية، فأزاحت آخر ورقة توت عن عورة تقاليدي.

غيرتني، نعم غيرتني؛ لا لقدراتها العجيبة، وإنما ظمئي للتغيير جعلني أتشرب كل نقطة تسربت من يقينها ومعتقداتها الثابتة، من صدقها مع نفسها وتصالحها مع ذاتها، نعم غيرتني، شحنتني بما كان ينقصني - من طاقتها - لأكمل ما يجب أن يكتمل...

نعم، أكملتني وأكملت هلالي لأصبح الآن بدرا كاملا، وجلّ ما أتمناه أن أكون بدرا فقط في نظرها، بدرا مكتملا يروق لعينيها، ينير دربها، يليق بجمالها حتى ولو لم يضاهِ رومانسيتها المتفردة.

علمتني أن النعم تصل فجأة، والنعم تمر على الجميع،

والمحظوظ من يحافظ على نعمته إن حصل عليها، وأنا أرى نعمة الله أمام عيني، ومنذ اللحظة الأولى وقع عليها اختياري، وأنا أصلي وأبتهل إلى الله أن تختارني كما اخترتها، لأني أصون النعمة وأقدرها وأكتفي بها، وأعدها أن أتخلى عن العالم وما فيه في سبيل أن تكون نعمتي وحدي التي أكرمني الله بها.

أنا لا أجرؤ على مصارحتها برغبتي خوفا من زوالها، وإني أنتظر رأيك ونصيحتك، وكوني على يقين أني سأعمل بها مهما كانت في سبيل أن تبقى نعمة دائمة في حياتي.

لا أعلم لماذا أجد نفسي دائما في مواقف لا أجيد الرد فيها أو التعامل معها، اعتراف شبه صريح من بدر بحبه لي، كيف حدث هذا؟ ومتى؟ ولماذا؟

لم أتخيل يوما أن تكون علاقتي ببدر أكثر من علاقة قريب أو أخ نظرا لغياب الأخ، علاقة قربى كنت أحسب حساب تبعاتها في كل يوم أتواصل فيه معه، فكيف بعد اليوم؟! شبه حرب ستشن علينا، وشرخ جديد في العائلة سيحدث ولا أريد أن يوقّع هذا الشرخ باسمي، لا أريد أن أكون سببا لاستذكار الماضي أو سببا لمشاكل جديدة في الحاضر، بدر سيبقى صديقي وأخي، ويجب ألّا أسمح لمشاعره بالتطور، وهذا قراري!

وهكذا جاء ردي سريعا وحاسما، وأرسلت له:

"كم أنت شخص لطيف ومحب يا عزيزي! وهنيئا لكل فتاة سترتبط اسمها باسمك، وتلبسها تاج الأميرة المتربعة على عرش قلبك، وسأكون أول المباركين لعلاقتكم والفرحين لحبكم؛ فأنا أختك التي لم تلدها أمك وصديقتك المخلصة التي وضعتها الأيام في دربك، وأقسم إنك تليق بقلب أجمل الفتيات وأروعهن، وكلي ثقة أن السعادة والحب سيملأان حياتكما".

لم أتلق أي رد من بدر وكان هذا أفضل ما حدث، فأنا لا أمتلك الجرأة الكافية للتبرير ولا لفتح الموضوع علنا، ولا قوة القلب لأرى وجع القلب لمن قدم إليّ حبه الكبير، وكنت مجبرة على رفضه حتى قبل التفكير فيه...!

مرت أيام وأسابيع، وبدر مختف تماما ليس عني فقط بل عن أبي وأمي، حتى سألني أبي ذات يوم عن أخباره إذ كان لا يراه في جلسات الديوانية الأسبوعية، وجاوبته بأني لا أعرف عنه شيئا، وأكدت له أنه على الأغلب مشغول في عمله، وقال لي أبي إنه سيكون باستطاعته التواصل معه والاطمئنان عليه.

كان عملي في الشركة يستهلك معظم وقتي وجهدي؛ مرحلة التأسيس في أي مجال تتطلب تركيزا وإتقانا وتفانيا من أجل إنجاح العمل من جهة، ومن أجل إثبات الوجود من جهة أخرى، وهذا ما حدث فعلا، بدأت

النجاحات تحالف فرعنا بفضل الكفاءات وروح العمل الجماعية والدعم المالي والإعلامي من مالك الشركة، وكذلك عبد العزيز الذي يعشق عمله ويبذل المستحيل لإنجاحه.

كانت فترة مزدحمة بكل ما تحمله الكلمة من معنى؛ ندوات، مؤتمرات، معارض، فعاليات، عقود، أسفار عمل، ثمانية شهور متواصلة من العمل الدؤوب المخلص، وقد حان الوقت للحصول على إجازة طلبا للراحة وتهدئة الأعصاب، وقمت فعلا بتقديم طلب إجازة إلى الأستاذ عبد العزيز لمدة أسبوعين.

اتصلت معه، وطلبت لقاءه في المكتب إن كان لديه الوقت وخصوصا أنه أبلغني سابقا أن أتواصل معه مباشرة في حال كنت بحاجة إلى أي طلب أو أي موضوع يخص العمل، وكعادته عندما لا يكون غارقا في العمل، يتحول إلى شخص مرح متحرر من كل قيد وبروتوكول، وأتتني إجابته على الفور:

- وهل تحبين السجاد الأحمر أكثر أم الورود؟

- لم أفهم؟

- هل أفرش لك الأرض سجادا أم ورودا؟ أم تريدين الاثنين؟ إن كنت لا تحبين الاثنين، أنصحك بالخميس!

- ههههههه لا تتعب نفسك، فنجان القهوة يكفيني.

- أفهم أنك راغبة في الجلوس معي، صدقت الأبراج أن اليوم يوم حظي، عندما تصلين ستكون القهوة بانتظارك، ولكن امنحيني نصف ساعة من الوقت لأنتهي من بعض الأعمال وأتفرغ لك.

- شكرا.

وفعلا اتصل بعد أقل من نصف ساعة، وأبلغني أنه بانتظاري، فتوجهت إلى مكتبه وفي يدي طلب الإجازة.

- مرحبا، وأخيرا مكتبك خال من الاجتماعات والناس.

- أهلا أهلا، هل تفضلينه خاليا؟ (قالها بشقاوته المعهودة)

لم أرد عليه، ولكنه لا بد أنه لاحظ حمرة وجهي وارتباكي، وقلت محاولة تجاوز هذا الارتباك غير المبرر:

- مستر عزيز، أرجو أني كنت عند حسن ظنك طوال فترة عملي، وأود شكرك من كل قلبي على كل ما قدمته إليّ من مساعدات في العمل. الحقيقة لولاك لم أكتسب هذه الخبرة في العمل في مثل هذا الوقت القصير.

- من كل قلبك يا نعمة؟! أقدر بزيادة واضحة كل ما

يخرج من قلبك يا نعمة، هل تسمحين لي بمناداتك نعمة دون ألقاب؟

- بالتأكيد.

- حسنا، إياك أن أسمع منك كلمة مستر أو أستاذ قبل اسمي، ناديني عزيز أو عزيزي إن شئت.

- ههههههه

- هل ستفعلين؟

- حاضر، عزيز.

- لا، قصدت "عزيزي".

- هل أفهم أنك تحب الصفات والملكية أكثر من الأسماء؟

- ربما، ومن المؤكّد أني أحب أصحاب الأسماء أكثر! هل أنت مثلي؟

- لكل من اسمه نصيب.

- أشكرك، أنت نعمة، وأنا عزيز!

- ...

- جاوبيني، هل أنت مثلي؟

- ؟

- هل تحبين صاحب اسم عزيز أكثر من اسمه؟

قالها وقد قام من كرسيه، وجاء ليجلس على الكرسي مقابلا لي.

حاولت الإفلات من سؤاله الجريء، وسألته عن القهوة:

- هل القهوة جاهزة؟

- هل تحبين القهوة أكثر من اسمها مثلا؟!

كالطفلة أتساءل: من أين يأتي بكل هذه الجرأة؟ وكيف يلعب بالكلمات كأنها أبجديته الخاصة؟ هل أبدو له ضعيفة وخجولة، فيتفنن في الاستقواء علي؟ ولم أكمل تساؤلي حتى تابع قائلا:

- قلت لك مرة إنني أحب القهوة ساخنة. ورفع سماعة الهاتف، وطلب فنجانين من القهوة غير المسكوبة.

مرت لحظات من الصمت لا أعلم سببها، بدا وكأنه يقرأ أشياء على نقاله أو يتفرج على بعض الصفحات والصور، وفجأة رفع رأسه، وقال بجدية كاملة:

- سألتني إن كنت عند حسن ظني، وأود أن أخبرك أنك فقت كل حد لظني، وجدت ظني متواضعا أمام مهارتك وإتقانك العمل، أعترف أنك أبهرتني بعملك ولأكون أكثر صراحة لم أتوقع من فتاة مدللة وبمثل

جمالك أن تجيد عملها بهذا الشكل اللافت، لا أخفيك أنني كنت قلقا في البداية عندما رشحك والدي للعمل معنا وكنت معترضا؛ لأنني أفضل أصحاب الخبرة والحمدلله أن قلقي لم يكن في محله، أنا من يود شكرك على كل ما بذلته وكل ما أضفته إلى العمل. ونحن نميز المخلصين في الشركة، وأنت بلا محاباة أجدرهم.

- كم أسعدتني بهذا الكلام عزيز! وأنا فعلا سعيدة بعملي معكم ومرة ثانية أشكرك على مساعدتك لي واهتمامك بنجاحي.

عندما دخل الفرّاش بالقهوة، طلب إليه عزيز أن يضع القهوة على الطاولة وينصرف، فسكب عزيز القهوة بنفسه والصمت يخيم على المكان، وناولني فنجاني الساخن لأستلمه بيدي بدلا من وضعه أمامي، مددت يدي لتناوله، فقال عزيز بصوت هادئ دافئ: "انتبهي، القهوة ساخنة وأصابعك الناعمة لا تحتمل". ولم يترك الفنجان حتى تأكد أنني أمسكته جيدا، وقبل أن يسحب يديه ضم يديّ اللتين تحملان الفنجان بكفيه ليساعدهما على وضعه فوق الطاولة.

لم يدر أن خوفي من حرارة يديه أنساني خوفي من حرارة القهوة.

لم ينظر عزيز إليّ في هذه اللحظة، بل رأيته يسحب يديه ويسند ذقنه إليهما مغمضا عينيه، لا أدري إن كان يتجنب

إحراجي أو يتجنب ردة فعلي أو ربما يغلق عينيه منتشيا بإحساس يشبه حلما قد ينتهي فيما لو خاطر وفتحهما!

بدأت أشرب قهوتي، وكل أمنياتي أن يبقى مغمضا عينيه وفعلا ظل مغمضا نصف إغماضة، ولكنه قال:

- هل أتيت إلى مكتبي لتشكريني على المساعدة فقط؟

- في الحقيقة، هناك سبب آخر.

فتح عينيه ببطء وبتثاقل، ونظر إلى فنجاني مطولا ثم إلى وجهي، وسأل:

- هل أعجبتك القهوة الساخنة؟

- نعم، لذيذة، شكرا.

- أتمنى أن تكون القهوة الساخنة هي السبب الآخر لزيارتي!

- في الحقيقة، إن سبب زيارتي هو حاجتي إلى إجازة لمدة أسبوعين أو أكثر، سأسافر خارج الكويت. وناولته الطلب.

ويا ليتني طلبت إليه أي شيء آخر، استرجع نشاطه كاملا ونهض من كرسيه وكأن خبرا صاعقا نزل على مسمعه، ورمى الطلب على الطاولة.

- تسافرين؟ لماذا؟!

- ما بك، عزيز؟ منذ حوالي سنتين لم أرَ أخي المقيم في فرنسا، وأنا بحاجة إلى إجازة أستجم فيها، أعرف أنني موظفة جديدة، ولكنني لا أظن أن أسبوعين سيؤثران في سير العمل.

- هل يمكن تأجيل الإجازة؟

- هل هناك سبب؟

- حاجة الشركة إلى وجودك، لن يستطيع أحد أن يحل مكانك.

- سأرتب كل شيء قبل سفري، لا تقلق.

- أسبوع واحد فقط. وسيكون خلال الشهر القادم أو لن أوافق على الإجازة.

نهضت من مكاني، وقد بدا عليّ الضيق وقلت: "عن إذنك".

اقترب مني، وقال بلهجة لا تخلو من ود:

- نعمة، أنا بحاجة إليك في الشركة، إن لم يكن سفرك ضروريا أتمنى أن تؤجليه.

- إن شاء الله. أنا أحترم حاجة العمل وأحترم القوانين. لا تقلق. عن إذنك.

استأذنت من العمل، وعدت إلى البيت يخالطني شعور من الإحباط والضيق، لا أحد في المنزل، صعدت إلى غرفتي، وخلدت إلى نوم عميق، ولم أشعر إلا وأمي توقظني وتقول: "هل أنت بخير حبيبتي؟ الساعة السادسة الآن، وأنت لم تتناولي غداءك بعد، هيا فأنا أنتظرك لنأكل معا".

قمت متثاقلة، ونظرت إلى الموبايل وإذا بخمس مكالمات فائتة من عزيز، ورسالتين يطلب فيهما أن أرد على اتصاله أو أن أعاود الاتصال به إن كنت نائمة. أجبته برسالة مقتضبة: "سأتصل لاحقا"، فقد كنت أشعر بالجوع والرغبة في الجلوس مع أمي وأبي، فوجدتهما ينتظرانني، وقال أبي: "سنجعله عشاء، فقد تأخرنا جميعا اليوم"، وأثناء العشاء أخبرتهما بما حصل بشأن الإجازة، فطمأنني أبي وقال:

- مصلحة العمل مهمة، ولكن راحتك وسعادتك أهم من كل الأعمال، أنا سأتصرف.

- لا، يا أبي، لا أريد أن يفهم عزيز أن الموضوع تحدٍّ، أسبوع إجازة - قبله وبعده عطلتا نهاية الأسبوع - يعني عشرة أيام ستكون كافية، وبعد إكمال السنة آخذ إجازاتي المستحقة رسميا.

- كل ما يهمني أن تكوني مرتاحة.

- الحمدلله، كل شيء على ما يرام، واليوم شكرني عزيز بامتنان على كل قدمته للشركة.

- عزيز شاب طموح، وأحلامه كبيرة جدا. أنا معجب جدا بشخصيته العملية.

- هو يعلم ذلك، ولا ينقصه الغرور.

- هي ثقة زائدة بالنفس ليست إلا، وهي أحد أسباب نجاحه.

قضينا سهرة جميلة حتى الساعة العاشرة، وبعدها صعدت إلى غرفتي، كنت مترددة في الاتصال بعزيز، وأنا متأكدة أن ترددي لم يكن بسبب رفضه الإجازة، ولكني اتصلت، فأجاب من الرنة الأولى، وأكّد لي أنه بانتظار اتصالي:

- أنتظرك منذ السادسة.

- آسفة، ولكنّي كنت مشغولة.

- لا عليك، المهم أن تكوني بخير.

- أنا بخير.

- الحمدلله، نعمة، أنا لم أقصد أن أتسبب بإزعاجك، واعتبري أن طلب الإجازة مقبول، ولمدة أسبوعين وفي الوقت الذي تريدين.

- ...

- نعمة، هل الوقت مناسب للتحدث أم أنهي المكالمة؟

- مناسب، ولكني لم أفهم سبب التراجع.

- لا يوجد سبب أكثر من أنك شخص أهتم برضاه وسعادته.

- شكرا.

- أنت تعلمين أن غيابك لا يؤثر في العمل في حال وجودي.

- إذا ماذا كانت المشكلة؟

- غيابك لا يؤثر في العمل، ولكنه يؤثر في صاحب العمل. نعمة، أنا اعتدت وجودك كل يوم، وعندما أخبرتني بسفرك شعرت بضيق شديد، فلا أتخيل أن يمر أسبوع في الشركة من دون أن أراك، هل تقدرين هذا النوع من الشعور؟

- أقدّر، وأعذرك، فأنا أفهم معنى التعود، وفي كل الأحوال سفري ليس شيئا ملحا.

- هل تعتقدين أن الموضوع موضوع تعود فقط؟

- ...

- هل فكرت يوما ما معنى أن يفكر فيك شخص في كل ثانية؟ أن يتمنى رؤيتك في كل لحظة؟ أن تشاركيه في كل حضور وكل غياب؟ أن يسعد برؤيتك ويتألم من غيابك؟ أن يحب كل شيء تحبينه ويتجنب كل ما لا تحبينه؟ هل فكرت يوما ما معنى أن تشاركي شخصا في أحلام يقظته قبل أحلام نومه؟ أن ترافقيه في كل خطوة في كل طريق؟ أن يعمل ويعيش ويفرح ويحزن لأجلك؟

- عزيز.

- هذا ما فعلته بي يا نعمة!

- عزيز.

- الآن اكتسب اسمي معناه، الآن اكتشفت أن اسمي يفوق الأسماء جمالا، صوتك يحيي قلبي، وكلماتك تنعش روحي.

- عزيز، هل يمكن أن نؤجل الـ...

- لا تكملي، لقد أجلت وقتا طويلا، واختبرت مشاعري مرات عديدة، أعلم أنّ هذا التوقيت ليس مناسبا للكلام، ولكني أشعر بثمالة منذ أن لمست يديك في الصباح، ثمالة تجعلني غير قادر على كتم مشاعري أكثر. نعمة، هناك كثير من الكلام أود قوله لك، حددي لي موعدا فقط، وسامحيني إن كنت تجاوزت حدي واعذري لهفتي غير

اللائقة.

- عزيز، أنا...

- لا تقولي شيئا الآن. أنتظر منك موعدا للتحدُّث، وأنتظر بشوق أن تبلغيني به، تصبحين على خير.

أنهى المكالمة دون انتظار ردي وكأنه يجنبني لحظة لا أقوى عليها.

هو يدرك بخبرته الرجولية شدّة نجلي في مثل هذه المواقف، لقد جنبني الخجل، وجنب نفسه عشوائية جواب ناتج عن مشاعر كبّلها الارتباك واستفزها الاقتحام. عزيز شخص ذكي وهذه صفة أحبها جدا، قوي، ناجح، يعرف تماما ماذا يريد، شخص مكتمل الصفات التي تثير إعجابي.

في اليوم التالي، ذهبت إلى الدوام، وتعمدت الوصول باكرا، وعدم الخروج من مكتبي كي لا ألتقي عزيزا، وعند الظهر أتاني الفرّاش بطلب الإجازة موقعا بالموافقة، وعندما سألته عن الأستاذ عزيز، قال لي: إنه خرج ولن يعود اليوم، وفي اليوم التالي بلغنا أن عزيزا سافر إلى أبو ظبي للمشاركة في إحدى الدورات حتى نهاية الأسبوع.

إذا عزيز يتعمد الغياب، وربما يعطيني وقتا للتفكير، وفي كل الأحوال فقد فعل خيرا!

أنا أعطيت نفسي وقتا كافيا للتفكير، وسألت نفسي:

هل حقا يعجبني عزيز؟ وكان جوابي "نعم".

هل أرتاح له وأتقبله؟ وكان جوابي "نعم".

هل يناسبني للارتباط؟ وكان جوابي"..."

أصلا هو لم يتكلم عن الارتباط، هو عبّر عن بعض مشاعره فقط، كيف لي أن أستبق المواضيع؟!

فعلا لا يجب أن أستبق المواضيع، ما يجب أن أفعله هو التجهيز للسفر، فأنا في غاية الشوق إلى فيصل، وفي غاية الحاجة إلى الراحة. وهذا ما حصل فعلا.

قبل سفري بيوم، قررت أن أخبر عزيزا أنني مسافرة ومن دون أي تطرق إلى موضوعنا، ولكن هاتفه كان مغلقا طوال الوقت، فاكتفيت بإرسال رسالة وخصوصا أن الإدارة في الشركة تعلم بموعد السفر...

في المساء لم يكن عزيز الشخص الذي يشغل بالي وأفكر فيه، وكذلك لم يكن بدر الذي ما زال مختفيا من عالمي، كنت منشغلة بترتيبات القدر وكيف نعيش تفاصيل مصادفة مرت دون تخطيط في مسيرة حياتنا، نقبل المصادفة ونجعلها ركنا أساسيا في هيكل حياتنا، كان في داخلي شوق ورغبة في التحدث مع سعد، أريد أن أكلمه قبل سفري، أريد أن أكرر اعتذاري غير المعلن له، وقمت بإرسال إيميل متناسية تجاهله لي، ومتخطية ما سيظنّه بي.

أرسلت له صورة رومانسية، وذيلتها بكلمات باللغة الإنجليزية:

- ألا تفتقدني؟

وبعد قليل أجابني:

- ولماذا أفتقدك؟ ربما أفتقد الصورة!! أما أنت فلا تعني لي سوى امرأة خدعتني، وعندما أعطيتها فرصة أصرت على المكابرة والاستمرار بالغلط والاستهانة بي، فلا فكرت أن تعترف ولا فكرت أن تعتذر.

- الموضوع ليس اعترافا ولا مكابرة ولا اعتذارا وليس إثبات غلط، فقد أخبرتك أنني لم أكن لأتوقع أن نتطور العلاقة، وكنت سأخبرك ولكنك لم تعطني مجالا، أنا لم أقل إنك أنت المخطئ، بالعكس أنا المخطئة ولكن لم يكن غلطا مقصودا، لم أتوقع أن ننسجم إلى هذه الدرجة، أنا لا أريد منك شيئا ولكني بالفعل أحببت فيك أشياء كثيرة، وسؤالي عنك اليوم لا يتعدى أن يكون شكلا من الاعتذار ودليلا على أني لم أقصد إهانتك، وأتمنى ألّا يغضب مني أحد وخصوصا أنت يا سعد.

- أنت غير جاهزة لتقديم شيء جديد، وأنا غير مقتنع بعلاقة محادثة وإيميلات، في البداية كنت أوجه كلاما إلى صورة شخص في بالي، أما الآن فأنت شخص أجهله

تماما، أصلا لا أعلم إن كنت أكلم شابا أم فتاة، وربما كنت أكلم امرأة في الثمانين من عمرها! هل من المنطق أن أتبادل المشاعر مع امرأة في عمر الثمانين؟ وعلى أحسن حال، أعيش قصة غرامية مع جهازي، وهذا شيء مرفوض تماما!

- اعتقدت أن ما جمعنا هو مشاعر وحاجة وتفاعل الأفكار والآراء وربما للحظة توهمت أنه حب، اعتقدت أن الشكل غير مهم وأن التوافق الروحي أكثر تأثيرا وأهمية، ولكن ما اكتشفته مؤخرا أنه يستحيل أن يحب رجل امرأة لسبب غير جمالها، لا أريد أن أضغط عليك أكثر، أتمنى لك التوفيق والحب.

- إن كنت جادة وصادقة بمشاعرك افتحي الكاميرا الآن، أضيفيني على سكايب، وهذا عنواني. أثبتي لي أنك حقيقة ولست سرابا، وعندها سترين إن كنت أهتم بالشكل أم بالمضمون أكثر.

- غدا أنا مسافرة، وعليّ أن أجهز أغراضي، ربما لاحقا سأفعل.

- وعليّ تصديقك مرة أخرى! لو سمحت فلا تعودي مرة ثانية، أنا لست لعبة ولا مادة للتسلية، اتركيني وشأني أمل.

لا ألومه إن لم يصدق موضوع سفري، ولا ألومه إن طلب إثباتا فيمن أكون... ولكني لا أستطيع الإفصاح عن هويتي رغم مشاعري العميقة تجاهه، ولا أستطيع إخراجه من نفسي ومن قلبي، كيف السبيل لإقناعه أنني لا أعبث بمشاعره، وأنني لم ولن أكون سببا في زيادة ألمه.

كل ما استطعت فعله هو إرسال إيميل قبل صعودي إلى الطائرة، لعل إحساسي يصله ويكتشف صدقه:

"إلى الشخص الذي أيقظ مشاعر الأنثى في داخلي،

بعد أن كادت تختفي وراء خشونة لفّت جدار قلبي منذ سنين.

إلى من أشعل نارا في شرايين جسدي..

وعزف بعذوبة على أحاسيس روحي..

إلى رجل أتقن فن الإثارة..

فجعلني أذوب كقطعة جليد وضعت على موقد ملتهب في ليلة شتوية باردة..

أحن إليك، نعم أحن إليك واستطعم الذكريات في كل لحظة..

يا رجلا بل يا رجلي المفعم بتفاصيل الرجولة...

يا سرا خبأته بيني وبين نفسي...

ستبقى في نفسي، وفي كل قطرة دم تجري في جسدي

ولا أظن أن الدم يتوقف عن الجريان لحظة..

هذه اللحظة لك كما هي كل لحظات حياتي

وهذا جزء وليس الكل.."

أمل

لم أر رده إلا بعد يومين من وصولي إلى ليون حيث المدينة التي يسكن فيها فيصل، فقد أنساني فيصل العالم ومن فيه، فكان رده:

"أمل..

أشكرك على كلماتك الرائعة، لا تعلمين مدى تأثيرها فيّ، ولكن على الرغم من كل الإحساس المتضمن في هذه الكلمات وصدقها الواضح إلا أنني لن أستطيع مبادلتك المشاعر قبل رؤيتك، دعيني أراك وحققي لي حلمي، دعيني أدخلك إلى عالمي، عالم حب لم ولن يستطيع رجل في الوجود أن يخلقه لك، عالم تكون فيه متعتي الوحيدة أن أراك سعيدة وراضية، وأعدك أنك لن تندمي على قرارك يوما..

هذا قراري الأخير، وأتمنى أن تحترمي رغبتي..

أمل..

أحتاج إليك وأحتاج إلى أن أراك، فكري جيدا.

مع خالص حبي يا أجمل ذكرياتي".

لا أعلم لماذا تتغلغل كلماته في تفاصيل ذاتي، أشعر بكل كلمة يرسلها وأصدق إحساسه، تستجيب له أحاسيسي أكثر من أي شخص آخر، ماذا يحدث لو سمع صوتي واضحا أو رآني؟ تغريني بلقائك يا سعد، وتغريني مشاعر الحب، وتغريني حرية الأحاسيس واشتعالي الأنثوي معك، ولكن عقلي يذكرني أنك لن تراني ولن ألقاك، ماذا ستظن بفتاة تعرفت إلى شخص غريب أونلاين وبادلته الحب؟ أنا متأكدة أنك لن تسامحها يوما ولن تصدق أنك الشخص الأول والوحيد الذي بادلته هذه العلاقة، يستحيل أن أضع نفسي أو أضع عائلتي في هذا الموقف، وهذا قراري الأخير.

***

تحدثنا كثيرا أنا وفيصل في كل المواضيع، وأخبرته أكثر عن الكويت وحياتي فيها وتفاصيلها، وعرفني بصديقته الفرنسية التي يحبها والتي يفكر في الزواج بها رسميا بعد إنهاء التخصص أو ربما قبل، ونصحني بل طلب إليّ أن أفكر جديا بإيجاد شريك حياتي، وأن أؤسس عائلة صغيرة لكي

تفرح أمي بأولادي واستقراري ويطمئن قلبها، وعندما سألته ممازحة: "وماذا عن أبي؟ ألن يفرح باستقراري؟". أجابني: "بالتأكيد سيفرح، ولكن الأم دائما تحمل هم الأبناء أكثر وخاصة أمّنا، حاولي إسعادها كما سأفعل أنا".

كل الأوقات مع فيصل كانت جميلة، والإجازة رائعة، ولكن ما زاد روعتها وأسعدني كثيرا هو وجود سارة صديقة عمري في فرنسا، والتي أخبرتني أنها مع زوجها لقضاء إجازة الصيف في باريس ودعتني لزيارتها، وأصرت على أن أبقى عندها أطول وقت ممكن، فوعدتها بقضاء يوم وليلة فقط نظرا لاقتراب انتهاء إجازتي، وكانت سعادتنا لا توصف عند اللقاء.

لقد تزوجت سارة، وصار عندها ولد جميل، وكلمتني كثيرا عن إيجابيات وسلبيات الزواج، وكيف أن الحياة تختلف كليا وكم هو مهم اختيار الشريك المناسب الذي يشارك في كل تفاصيل الحياة.

- مهم جدا، يا نعمة، أن تختاري رجلا مناسبا وألّا تتأخري في الاختيار.

- ماذا تقصدين بالرجل المناسب؟ وتقصدين أن التأخر في الزواج لا يتناسب مع عاداتنا التي تفضل الفتاة صغيرة في العمر؟

- أولا، الرجل المناسب هو الشخص الذي يبادلك الحب والاهتمام، الموافق لمواصفاتك وفكرك، المناسب اجتماعيا، ولا تستهيني بالناحية الاجتماعية فنحن أولا وآخرا مجتمعٌ شرقيٌّ، وسيسأل الناس عن أصله وفصله ومركزه وماله ويتعاملون معه على هذا الأساس، ففي مسألة الزواج لا نعتمد على الأشخاص الاستثنائيين وإنما على الرأي العام، وبالنسبة إلى التأخر في الزواج، نعم مجتمعنا لا يرحم المرأة، ومن تتعدَّ سنا معيّنة للزواج فستثار حولها آلاف من التساؤلات مهما امتلكت من مواصفات وآمنت بأفكار، ومن ناحية أخرى عندما تنجبين أولادا، من الأسهل والأفضل أن تربيهم وتكبري معهم، وأنت في ريعان شبابك وحتى زوجك لن يرحمك إذا ما لاحظ تقدمك في العمر.

- سارة، ما بك تتكلمين بمنطق الأجداد؟ كيف تغير تفكيرك إلى هذه الدرجة؟

- لأن الأحلام والمبادئ شيء، والحقيقة والواقع شيء آخر، ولا أعتقد أنك تقدرين على الحياة خارج الواقع، وأنت تمتلكين خير تجربة أم تريدينني أن أذكرك.

- نعم صحيح، هل تصدقين أن تبعات تجربة أمي وأبي لم تنته بعد؟

- لن تنتهي صدقيني، المهم حدثيني ما هي أخبارك

الجديدة وخصوصا على الصعيد العاطفي.

- هناك الكثير من الأخبار، وأنت الوحيدة التي أتحدث إليها بحرية.

- واو، دعينا نجهز جلسة مناسبة لسهرة طويلة، يبدو أن حديثنا سيمتد حتى الصباح.

- كنّا مغرمين بالتفاصيل ومازلنا، إنني أشتاق إلى حياتنا في كندا كثيرا.

- بسرعة أخبريني كم روميو مات عشقا، وكم قيسا جننته نعمة الله؟

- لا تصدقي أن أحدا يموت لأجل أحد هذه الأيام، يذهب الأول فينتظرون التالي، هذا إن لم يكن جاهزا مسبقا على قائمة الاحتياط.

- أنت جميلة جدا، وتمتلكين مواصفات يحلم باختيارها كل الشباب، بالإضافة إلى أنك ذكية وستحسنين الاختيار.

- سارة، أحتاج إلى أحد أشاركه في أفكاري أو يستمع فقط لما أشعر به، أريد أن يخرج كل ما في داخلي فيخف عبء حمله عليّ، لذا لا تلوميني إن تحدثت مطولا...

- ما زلت ظلك المرافق لك وصندوق أسرارك وتوأم

روحك.

وبدأت الحديث:

- كل شيء في حياتي مرتب ومنظم، والفضل يعود إلى أمي وأنت تعرفين، لم أعانِ يوما من اتخاذ قرار أو اختيار، وبطبعي أنا مطيعة لأنني متأكدة أن كل شيء يصب في النهاية في مصلحتي وخصوصا أن كل المسائل الماضية كانت ترتبط بنا جميعا كعائلة، لا شيء يخصني وحدي، والآن لا أدري إن كان موضوع زواجي يخصني وحدي أم إني سأترك القرار لأهلي كونهم دائما الأكثر دراية بمصلحتي، ابن عمي معجب بي وربما عاشق متيم وهو شخص رائع، ولكن ارتباطي به سيشعل نارا ضمن العائلة من جديد، وعبد العزيز مديري في العمل كان أكثر جرأة وهذا طبعه، يعجبني ولكنه يخيفني كأنه أسد...

- وأنت يا نعمة ماذا عن مشاعرك، وميولك، وقناعتك؟ من منهم يشعرك بالأمان والحب والقدرة على تكوين أسرة ناجحة سعيدة؟ أنت مع من تعيشين الحب؟ قلبك ملك من فيهم؟

- سارة، أريد أن أسألك سؤالا غريبا.

- ؟

- هل تؤمنين بقصة حب أونلاين؟

- لا بد أنك تمزحين أيتها المراهقة، عن أي حب مجهول تتكلمين؟ تتحدثين عن مشاعر إلكترونية يا نعمة؟

- وما المشكلة؟

- المشكلة أن كل من يقبعون وراء الشاشات أشخاص مزيفون، يتقمصون أفضل الصفات، وينفثون أحاسيسهم كالسم القاتل لاصطياد الضحية، وليس على المحادثات حكم! اللص سيظهر كرجل دين تقي، والمدمن سيبدو فنانا مرهفا، والجاهل يخدعك بكلام مستعار أو حتى مسروق ليقنعك أنه عالم فيلسوف، ولا أسهل من ارتداء عاطل عن العمل زيّ مهندس والتحدث بمهنية المبدع، عن أي حب افتراضي تتحدثين؟! زيفهم بصور مفلترة أم اقتباسات قبانية، قصص محزنة أم شعور بغربة في عالم لا يشعرون بانتمائهم إليه؟!

نعمة، هؤلاء أشخاص فاشلون، لو كان لديهم ما يشغلون به حياتهم لما أمضوا أوقاتهم خلف الشاشات يجوبون بلاد العالم لملء قائمة أصدقائهم، أشخاص هاربون من الواقع، أشخاص واهمون، أشخاص يعتقدون أن ما فاتهم في الحقيقة يمكن أن يمتلكوه بالخيال الإلكتروني، أشخاص جبناء يقترفون من خلف الشاشات ما يخشون فعله في الحياة، أشخاص ضمنوا الحرية أمِنوا العقاب الأدبي أو الاجتماعي أو الديني، فتعرّت حقيقتهم في أول فرصة لغياب الرقابة..

هل تعتقدين أنك الوحيدة التي يكلمها شبح من داخل جهاز؟ شبح أمضى أعواما ينتظرك، ثم أقفل بعدك كل النوافذ الإلكترونية المفتوحة؟ شبح يطلب صورك ثم مكالمتك ثم لقاءك ثم خيبتك؟!

هل يتجرأ أحدهم على البوح بما يفعله أونلاين أمام عائلته أو زوجته أو أمام مجتمعه؟ لست أنت من يخدع بهذه القصص يا نعمة، إنها لا تتعدى في أحسن أحوالها قصص التسلية وإضاعة الوقت، وأنت أرقى وأكبر من التفكير جديا فيها.

حاولت التبرُّؤ من الموضوع بعد ما رأيته من ردة فعل سارة وانفعالها، وقلت:

- سارة، أنا لم أقصد أن القصة قصتي، كنت فقط أناقش معك الفكرة كونها سائدة هذه الأيام، أصلا أنا أفكر في أن أفتح موضوع عزيز مع أبي وأمي بعد عودتي.

- ورأيي أن تفتحي موضوع بدر أيضا، ربما كان هناك رأي آخر.

أتاني كلام سارة وكأنه صفعة على وجهي، لا أدري إن كانت أيقظتني من وهمي أم آلمتني، إن كانت هذه ردة فعلها وتقييمها للفكرة، فكيف ستكون ردود فعل الآخرين؟! إنها لم تتعدَّ بقولها الحقيقة، ولكن الحقيقة هذه

المرة ظهرت قاسية، هل كتب لي أن ألتقي سارة في هذا التوقيت بعد اعتراف عزيز أم كتب لي أن ألتقيها وأنا أستسلم لإحساسي تجاه سعد؟ هل يقف القدر في صفك يا عزيز أم يقف في وجهك كما اعتاد واعتدت دائما يا سعد؟!

لا شك أن المرحلة القادمة ستكون مليئة بالأحداث، ولا بد أنها ستخط مسارا جديدا في خريطة حياتي.

عندما أوصلني فيصل إلى المطار، طلب إليّ الاهتمام بنفسي، ولكنه أكد أكثر على الاهتمام بأمي وصحتها وفعل كل ما يسعدها، ووعدني أنه سيأتي إلى الكويت قريبا، وهذا ما جعل ختام إجازتي رائعا.

***

بدأت أشعر أن حياتنا عبارة عن مراحل انتقالية، ففي كل مرحلة نترك سجلا مليئا ببصمات أحداث متنوعة، فيها ما يكفي من نجاحات وخيبات، انتصارات وانهزامات، قرارات وتنازلات، ضحكات ودمعات، وجعبا مليئة بالتجاوزات الممزوجة بالشوق واللوم والعتب والأسف.

نستعد لكل مرحلة بنوايا حسنة وأفكار إيجابية، ومشاعر بلغت من التفاؤل عنان السماء!

لا أدري لماذا نتجاهل الجانب الآخر، هل هو تجاهل

متعمد أم تجاهل ساذج؟ كيف نتوقع النجاح والسعادة والنصر وكأننا فرسان عصرنا ونتغاضى عن حقائق أخرى؟ هل لأن الحقائق موجعة؟ ونحن ندرك كل الإدراك أن الحقائق ليست فيما نراه ونعيشه، لماذا لا نبصر بعقلنا ونفكر ببصيرتنا لتقبل هذه الحقائق؟

بكل العقل نرى أن الأضداد تسيّر التقييمات، فلا وجود لنجاح أو نصر شخص إلا بفشل وهزيمة شخص آخر.

هي المراكز مرتبة، ولكل مركز رقم واحد فقط.

هي الحياة خير وشر، وما لم يكن خيرا فهو حكما شرّ مع وجود التدرجات، وما لم يكن أبيضا فهو حكما أسود، وما الألوان الأخرى إلا مشتقات حالة.

جميعنا نريد المشاعر الإيجابية، رباه، ماذا عن المشاعر السلبية! إذا عشنا كلنا مشاعر السعادة والرضا والنجاح والفرح والحب والتميز فمن سيعيش الحزن والغضب والخيبة والفشل والكره والخوف والتشاؤم؟!

هل سنعيش الجنة على الأرض بلا ألم ولا همّ ولا غمّ؟! هل خلق الله كل هذه المشاعر إلا لنتقاسمها؟ هل نتدخل فيما قسم الله لنا؟

ومن قال إن مشاعر الحزن مثلا أقل نبلا من مشاعر الفرح؟! والله، إن أكثر ما يبرز إنسانية البشر هو الحزن،

قدرتهم على التأثر والتعاطف، رهافة إحساسهم وصدق شعورهم، بعدهم عن التجبّر والتكبّر، كمية الدم المنسابة في عروقهم التي تميزهم عن الشجر والحجر، فكم هو سهل أن تضحك على شخص سقط في شارع مبلل بشكل طريف! ولكنه ليس من السهل أن تحزن لأجله وتسرع لمساعدته وجبر خاطره.

الأهم من كونك شخصا ناجحا أن تكون إنسانا، الأهم من أن تكون شخصا غنيا أن تكون طيبا، الأهم من أن تكون سيّدا أن تكون رحيما، الأهم من أن تكون على قيد الحياة أن تعيش حيا!

"وهذه خلاصة حياة، كلنا سنعيش كل المشاعر والألوان والأضداد، ولكن ما سيختلف هو المرحلة الزمنية فقط!"

أنا أرى أنني مقبلة على مرحلة انتقالية جديدة، ربما تكون نقطة تحول، وربما تكون مرحلة فطام، فمن قال إن الإنسان يفطم مرة واحدة في حياته؟!

في كل مرحلة تعتمد فيها على نفسك هي حالة فطام، في كل مرة يتخلى شخص عن مساعدتك هي فترة فطام، في كل مرة تنزل من عينك دمعة ولا تجد من يمسحها لك هي حالة فطام!

لا أدري ما سر هذا الإحساس هل هو حدس؟ أم استقراء لما سيأتي؟ أم إشارة من الله لأكون مستعدة لما هو قادم؟ أعلم أننا لسنا الرابحين دوما، لسنا الفائزين دوما، وأعلم أيضا أن الدهر أيام متتابعة بعضها لنا وبعضها علينا، وهذا شكل من أشكال العدل السماوي بين البشر على الأرض، ولا يليق بعاقل أن يعارض عدالة السماء.

إنه شعور غريب يراودني "كوني جاهزة لأي خيبة بأي حجم، ومن أي شخص، وفي أي وقت، وبلا سبب!"

***

بغريزة أنثوية بالغت في الاهتمام بمظهري، ارتديت أكثر ملابسي أناقة ووضعت مكياجا يليق بالجميلات، أغرقت نفسي بأفخم العطور وأطيبها، واتجهت إلى عملي أحمل هدية لعزيز أحضرتها له منتشية بحلمي ومبتهجة لما سيأتي، أرتب كلماتي التي سأقولها له كي لا تهزمني جمله أو تخذلني ردودي كالعادة.

كنت أعلم أنه ينتظر عودتي بفارغ الصبر، وكنت أشعر بالخجل للقائه، لا أستطيع مواجهة مشاعر الحب فجرأتي لا ترتقي إلى عنفوان عزيز، أقرّ أنه شخص قادر على غزوي غزوا عاطفيا لا هدنة فيه، وبخبرتي المتواضعة أراه ينتظر ساعة الصفر لإطلاق أولى صواريخ الغرام الفتاكة، وأنا العزلاء المسالمة أرفع الراية البيضاء التي ستتلون بكل ألوان

الاقتحام.

قبل دخولي مكتبي، سألت عن الأستاذ عزيز وأخبروني أنه لم يصل بعد، فوجدتها فرصة لالتقاط أنفاسي قبل مقابلته، ولكنه لم يمنحني حتى هذه الفرصة، فقد وجدت على مكتبي باقة من الورد الجوري الأحمر وبطاقة كُتب عليها "مع عودتك، *عادت إليّ حياتي*"، *يا* لجرأتك يا عزيز! تضع الورد الأحمر علنا على مكتبي وكأنك تعلن شيئا ما للجميع، لا تضيع الفرص ولا الوقت، لا تطرق الباب ولا تستأذن، ولا تمهلني لأعيد ترتيب أنفاسي، ولم أكد أرفع رأسي مسلوبة بجمال الورود حتى رأيته أمامي مبتسما يقول: "آسف، لم أطرق الباب أو أستأذن، فلم يشأ شوقي أن يقطع حديثك مع الورود، هل أعجبتك حقا؟"

للمرة الأولى أقف لا تربكني الصدمة، ولكنها أنستني ما حفظت من كلمات أمام نظراته المليئة بالشوق والانتظار، فأمد له يدي قائلة:

- صباح الخير.

- الحمدلله على سلامتك، وسلامتي أيضا.

- سلامتك؟ هل حدث معك شيء؟

- نعم، بغيابك فقدت عافيتي بالمعنى الحرفي للكلمة، اكتشفت أني أتعافى بك وبقربك وأفقدها بغيابك.

- الحمدلله أنك بخير الآن، تفضل بالجلوس.

نظر إليّ نظرة لا تخلو من عتب، أتبعها بابتسامة، وقال:

- سأنتظرك في مكتبي بعد انتهاء الاجتماع الصباحي، لا تتأخري.

لا أدري ما الذي جعل حماسي الصباحي يبرد فجأة، كبطارية انتهى شحنها فجأة بعد أن كانت ممتلئة بنسبة خمس وتسعين في المائة.

بعضهم يضرم نارا ملتهبة من شرارة ضعيفة، وبعضهم يخمد النار ذاتها رغم امتلاكه من الفتائل ما يحرق عالم النساء بأكمله، أنا لا أجري مقارنات في هذه اللحظة، أو ربما حدثت المقارنات بتلقائية كاملة دون أدنى قصد مني، هي مشاعري وأنا الأكثر دراية بها وأنا في توقيت يتطلب مني الاستجابة لمشاعري، المرأة بشكل عام تمتلك فطرة وحدسا مرعبا لما يريده قلبها، ووحدها المرأة ذكية المشاعر من تستطيع التمييز، المرأة ذكية المشاعر لا تغريها قياسية المواصفات، وإنما يجذبها مدى ملاءمة هذه الصفات لما تريد، علاقة المرأة بالرجل لها روح، وروح هذه العلاقة يتجسد بمنسوب القبول، منسوب القبول عند المرأة طبعا، لأن الرجل - وبنسبة عالية جدا - متبرئ من هذا المنسوب!

بعد الاجتماع حملت الهدية وتوجهت إلى مكتبه، مكللة بنظرات الإعجاب وعبارات الإطراء من كل من رآني، شيء ما بدأ يوقظ في داخلي ثقة أنثوية واضحة، ولكنها أبعد ما تكون عن الغرور، بكل مودة قدمت إليه الهدية، وبكل إحساسي الأنثوي شعرت كم هو ينتظرني، بنظراته، بمزاجه، بكلماته، بإلغائه لكل المواعيد وتأجيله لكل أعماله المكتبية، بتجاوزه لكل بروتوكولات أجواء العمل، طلب إلى السكرتير إغلاق الباب وعدم السماح لأحد بالدخول زاعما أن هناك اجتماعا بخصوص عقود مع شركة فرنسية كنت قد اتفقت معها أثناء سفري.

لم ينظر إلى الهدية أو يسأل عما في داخلها، ولكنه أطال النظر إليّ حتى إنني أحسست بنظراته تطال عينيّ ووجهي وجسدي وربما تطال شيئا آخر في داخلي، ولسوء بديهتي لم أجد طريقة أنقذ نفسي وأنقذ الجو من لحظات أوشكت على خنق أنفاسي، أنفاسي العميلة التي تخونني في كل خلوة، فتجعله يكتشف ضعفي، ويتأكد أن ما يراه من قوة المشاعر عندي لا يتعدى صلابة حلوى غزل البنات قبيل ملامستها فم محب عاشق للسكّر، فتذوب طواعية بلا حول ولا قوة مخلّفة لذة استثنائية تطيب أكثر لمن لا يحب العناء في اكتساب اللذة مع من يحب!

في لحظة من توقف الزمن، اعتقدت أني أمام شخص

لا أعرفه، شخص لا يشبه عزيزا، شخص جثا أمام كرسي رافعا رأسه إلى وجهي، وقد تخلى عن كل صفات الأسد وعن غيرها، وبكل لهفة المشتاقين قال:

- هل تقبلين الزواج بي نعمة؟

قالها وعيناه تفيضان عشقا كمن أمضى أسبوعين كاملين يفكر في الموضوع ويجهز للسؤال، ولولا أني كنت جالسة لسقطت مغشيا عليّ على الكرسي نفسه.

- عزيز...

- لا تجيبي الآن حبيبتي، خذي وقتك، اسأليني عن أي شيء، اطلبي ما تريدين واشترطي كما تحبين، وكل شيء مجاب، فبالنسبة إليّ أعرف تماما ما أريد وأنا متأكد أني وجدته، أنت وحدك من تكمل دائرة وجودي وتحقق حلمي، وكل ما أتمنى أن أكون فارسا يليق بأحلامك ويكمل سعادتك...

حدثني وعيناه تحدقان إلى وجهي، وصوته ثابت ثبات مشاعره، توهمت أنه يهم بالوقوف عندما فاجأني وأمسك بيدي رافعا إياها إلى وجهه، ورأيت كيف يقترب بشفتيه ويطبع قبلة دافئة في راحتها ثم يغلقها كصندوق أمانات، ويعيدها إلى مكانها بكل هدوء ويعيد نفسه إلى مكانه أيضا بكل هدوء.

- لا تظني أن مشاعري وليدة اللحظة أو أن قراري متسرع، منذ أول يوم رأيتك فيه تركت في نفسي أثرا لم يفعله أحد قبلك، وكنت أراقبك دون علمك، كنت أرغب في معرفة كل التفاصيل عنك بنفسي وليس بسؤال أحد؛ فأنا شخص لا أؤمن بآراء الآخرين رغم استئناسي بها. علمت أنك غير مرتبطة، فاعتبرت أن المسائل الأخرى قد لا تشكل عائقا أمام ارتباطنا، اعذريني إن خرجت عن التقاليد أو تجاوزت الأصول، ولكني أحببت أن أبلغك بمشاعري وطلبي قبل أن تأخذ شكلا رسميا بين العائلتين، فأنا حريص على استمرار العلاقة مهما كان ردك، وأحترم مشاعرك الخاصة فربما لديك حبيب في حياتك.

لم أعطِ نفسي فرصة للتفكير، وأجبته بخجل:

- لا، ليس لدي حبيب. أحترم صراحتك وإن تجاوزك التقاليد يسعدني ولا يحرجني، ولكن عزيز...

- نعم، يا روح عزيز.

- أحتاج إلى الوقت للتفكير قبل أن أرد عليك.

- خذي ما يكفيك من الوقت، ولكن لن أقول لك إنني لست مستعجلا كي لا أقع في الكذب.

- أستأذنك الآن.

أوصلني، وعند الباب سألني: "هل يمكنني الاتصال بك

مساء؟"

أجبته بابتسامة: "سأكون بانتظارك".

هو القدر يوصلنا إلى نهاية مرحلة، ثم يسلمنا بيديه إلى مرحلة أخرى جديدة دون تخطيط أو رغبة، وهذه هي مرحلتي التالية؛ كسائر الفتيات وبعد مراحل الدراسة والعمل، تبدأ مرحلة الارتباط وتأسيس العائلة، لم يتبقَّ إلا تحديد التسميات والمواعيد، تسمية الشريك وموعد العرس ومغادرة بيت العائلة، البيت الذي يهب الفتاة كل الحب والأمان والفرح.

سأخبر أبي، لا، سأخبر أمي وهي تخبره بدورها، لم أكن أتوقع أن الموضوع سيزيد من خجلي إلى هذه الدرجة، لا أعلم إن كانت هذه مشكلة معظم الفتيات أم أنا الوحيدة، موضوع الزواج بتفاصيله - بالذات للمرة الأولى- مسألة محرجة بالمعنى الحرفي للكلمة ولا سيما إذا كانت الفتاة متشبعة بعادات شرقية أصولية لم تستطع الثقافات الأخرى أن تخلصها من براثنها، ليس من السهل على الفتاة إعلانها موافقتها على الارتباط برجل غريب، رجل يقتحم عالمها، فتكشف له ما أخفته حتى عن نفسها، كيف ولماذا، فقط بورقة مختومة تثبت شرعية العلاقة؟!، رجل سيصبح لقبه "زوجها" بين ليلة وضحاها، رجل يمتلك الحق في رؤية كل تفصيل في جسدها كما خلقه الله وكما لم يره أحد.

ليس لديّ القدرة الآن على التفكير في عزيز كرجل نتشارك الحياة معا، متكافئين علميا واجتماعيا وماديا وفكريا، نتقاسم اللحظات بأنواعها، ندير أعمالنا ونخطط لمستقبلنا.

غريبة أشعر نفسي، أفكر فقط كيف سأصبح ملكه، كيف سيأخذني من عائلة وبيت هم أحقّ بي منه، أفكر فقط كيف سأكون معه في الليل والنهار، وكيف سأشاركه سريرا واحدا في غرفة نوم مظلمة، وأنا عليمة بعشقه للتحكم، وشغفه بالانتصار في كل جولة شاء القدر أن يكون له فيها قرار.

أفكاري ليست وليدة مخاوف، ولا نتيجة تجارب، وحده حدسي وحاستي السادسة، عزيز يحب نفسه ويرضيها بكل ما يرضيها، وأنا من طلبتْها نفسه الأمارة بالحب، أنا من أرادتها نفسه لتسعد، وعزيز سيلبّي لها ما تريد، ولطالما سمعته يردد: "يا رضا الله ورضاك يا نفسي!".

في المساء طلبت إلى أمي بخفة دم أن تزورني في غرفتي بحجة مساعدتي على تغيير بعض الديكورات وتنسيق الصور الجديدة، ولم يحتج الموضوع إلى إيضاح؛ فهي لمّاحة بما يكفي ويزيد لتفهم حاجتي إليها في موضوع ما ورحبت بالفكرة، عندها قال أبي: "حسنا تفعلان، إنها فرصة جيدة لي لأنام مبكرا، فإني أشعر بالإجهاد". وهكذا صعدنا إلى

غرفتي، وبدأنا فعلا بتعليق بعض الصور.

- ماما، هل أنت بخير؟

- نعم بخير، هل أحضرتني إلى هنا لتسألي إن كنت بخير؟

- لا، ولكن ألاحظ على وجهك قليلا من الحزن أو الهمّ وبعض الذبول.

- لا شيء مهمّ، فقط الجو الحار المغبر، ولا تستهيني بتقدم العمر نانا، أمك لم تعد شابة.

- الليدي كاترين تقول ذلك؟ ما هذا التواضع؟ والله، شابة وأجمل من كل الشابات، والعمر لا يتعدى أن يكون رقما وبالذات عندك، ليتني أبقى جميلة وشابة مثلك عندما أكبر.

- الأهم عندئذ أن يكون عندك بنت جميلة تراك أجمل أم في الكون.

- هل تعتقدين أني سأكون أمّا ناجحة كما أنت يا أمي؟

- ستكونين أكثر نجاحا وجمالا وحبّا، أريد أن أراك عروسا جميلة نانا.

- اممممم

- ؟؟

- وأنا أريد أن أخبرك بأمر يتعلق بهذا الموضوع.

- أجابت أمي مبتسمة: منذ زمن وأنا أنتظر هذه اللحظة، وأرجو ألّا أكون مخطئة في تقديري لما ستقولين، هل أعرفه؟

- أمي.، أحتاج إليك أن تكوني بجانبي كثيرا، أحتاج إلى رأيك واستشارتك التي طالما ساعدتني في حياتي ونجاحي.

- وأنا موجودة في الدنيا لأكون إلى جانبك، وقد نذرت حياتي لسعادتك حبيبتي. احكي لي كل شيء وعن كل شيء.

ترددت كثيرا في إخبارها بكل شيء، سأخبرها عن عزيز، ومن الواجب أن أخبرها عن بدر أيا كانت ردة فعلها، ولكن من المستحيل أن أكلمها عن سعد وخصوصا بعد سماع رأي سارة، لا أريد أن تهتز ثقة أمي بمستوى تفكيري وأسلوبي.

- نانا، ما بك؟ تكلمي حبيبتي، تكلمي بلا تفكير ولا تردد.

- ماما.

- ؟

- ماما، عزيز، ابن أبو عبد العزيز صديق أبي، يريد

التقدم لخطبتي.

ابتسمت أمي ابتسامة رضا ومحبة وحنان، وقالت:

- أخبار حلوة من حيث المبدأ.

- هل تفاجأت؟

- في الحقيقة، الموضوع لم يفاجئني، ولكنّني، صراحة، تفاجأت بالشخص.

- هل هو شخص غير مناسب؟

- لاا‌ا طبعا، ونعم الأصل والعائلة، ووالدك معجب جدا به.

- ما الذي فاجأك إذا؟

- لن أخفي عليك نانا، توقعت أن تقولي لي بدر، كنت ألاحظ اهتمامه الشديد بك، واعتقدت أنه يحبك وسيتقدم لخطبتك.

- أمي، هل تحفظين سري؟

- بالتأكيد، وهل هذا يحتاج إلى سؤال يا نعمة؟

- بدر فعلا يحبني، وقد فاتحني في الموضوع، ولكني لم أفسح له المجال للاستمرار تجنبا لكثير من التبعات التي أعتبر أنني في غنى عنها، ولهذا لم أخبرك.

صمتت أمي بضع دقائق، وكأنها تفكر في شيء أو ربما أشياء كثيرة، وبعد تفكير سألتني:

- وأنت من تفضلين؟ إلى من تميلين أكثر؟

- أمي، لا أعتقد أن لدي فرصة للاختيار، هو اختيار واحد، بدر لن يكون أحد خياراتي، وبصراحة أنا أرتاح لعزيز، ولكن قلبي غير متعلق بأحد منهما.

- إياك أن تختاري شخصا أيا كان دون اقتناع كامل ودون معرفة حقيقية، في الزواج لا تنفع المقاربات، الحب يمنح العلاقة الزوجية نوعا من الجمال والسمو ولكنه وحده غير كاف، والعقلانية تمنح العلاقة الزوجية استمرارا وعمرا أطول ولكنها أيضا غير كافية، سبق أن تحدثنا وأخبرتك بضرورة الحرص عند اختيارك شريك حياتك، نصحتك أن يكون من جنسيتك ودينك وألّا يكون لديه زوجة ولا أولاد، كل هذه عوامل استقرار لا يمكن الاستغناء عن أحدها، لست مضطرة أن تعيشي سعيدة داخل بيتك، وأن تخوضي في الوقت نفسه عشرات الحروب خارجها.

عادت أمي للصمت قليلا، وفي هذه اللحظة كنت أحمد الله أني لم أكلمها عن سعد، فمن الواضح أن موضوعه مرفوض جملة وتفصيلا، متزوج ولديه أولاد، ومعرفتي به ليست سوى بضع محادثات في آخر الليل...

أكملت أمي:

- بدر شاب رائع، وأنا على ثقة أنه سيكون زوجا مثاليا، ومتأكدة أنه يحبك كثيرا، ولكن في حال تقدم لك سنضع أنفسنا في مشاكل نحن في غنى عنها.

- وأنا لا أريد أن أثير مشاكل قديمة.

- ولا جديدة. نعمة، أنا علمت من عمتك أن ملاك تحب بدرا، وأعتقد أنها لم تخبرني بهذا السر إلا لتقطع أية علاقة قد تحدث بينك وبين بدر، وأنا أفهم وأتفهم هذه الأمور جيدا.

- الآن فهمت بعض ردود الفعل من ملاك، ولكن صدقيني أنا لم أفكر يوما في بدر أكثر من صديق وأخ.

- لا عليك حبيبتي، خذي وقتك واختبري مشاعرك تجاه عزيز، وفكري في كل الجوانب، وفي الوقت الذي تتخذين فيه قرارك سأخبر والدك، وإن لم تتوصلي إلى قناعة كافية فتذكري أن هناك الكثير من الفرص التي تليق بك.

- ماما.

- ؟

- بإمكانك إخبار أبي، لا أريد أن أكون على علاقة مع عزيز دون علمه، فإنّ عزيزا حلم لأي فتاة.

أمي الحنون الرائعة لم تجب بكلمة، اكتفت بضمي، وكل شيء فيها يعبرعن مشاعرها، كم هي سعيدة ونخورة بي!

وأنا أكثر ما يشغل بالي طيف سعد الملازم لي في كل ثانية، وكل موضوع، وكل مكان!

ورسالته في الصباح التي لم أرد عليها: "لا أعلم لماذا أشعر اليوم أني أصبحت وحيدا!"

***

للقدر كلمته الأولى والأخيرة، وفلسفة الاختيار أو القدرة على الاختيار لا تتعدى جنوحا فكريا يستدعيه بريستيج الحياة الاجتماعية، وفي أحسن الأحوال يستدعيه توق لاتخاذ قرار، ونحن من يصنع هذا القرار.

نحن لا نمتلك أدنى هامش للحرية في اختياراتنا، وحتى عندما نقرر ألّا نختار، فهذا بحد ذاته اختيار. اختياراتنا محددة سلفا تبعا للظروف، والدليل أنه في حال تغييب الظروف سيختلف الاختيار حكما، الاختيار حق لكل من وجد أمامه مفترقات خيارات وهنا يتساوى الجميع، الأقوياء والضعفاء، الأذكياء والحمقى، الأغنياء والتعساء، الرجال والنساء، ولا تقل الاختيارات الثانوية التي نعيشها كل يوم تأثيرا في مجرى حياتنا عن الاختيارات المصيرية، فاختيارك لسحب بطاقة يا نصيب قد تكون رابحة أو لا

تكون لا يقل شأنا عن اختيارك للترشح لعضوية في البرلمان قد تكون فائزا فيها أو لا تكون!

موضوع الاختيار لا يخضع لقانون التقييم، سوء الاختيار أو حسنه لا يقع على عاتق شخص حكمته المصادفة والنصيب والفرصة وربما انفعال جائر.

هنا تحضرني حكاية دخلت التاريخ ولست متأكّدة من صحتها - كسائر قصص التاريخ - ولكن فيها من الحكمة وبصمة القدر ما يجعلنا نجزم أن للقدر كلمته الأخيرة في كل المصائر.

"يحكى أن هيلاري كلينتون صافحت عاملا في محطة بنزين، وعندما سألها زوجها بيل كلينتون وكان رئيس أمريكا في وقتها: من يكون هذا الشخص؟ أجابته: إنه شخص طلب الزواج بي ورفضته، ضحك كلينتون وقال: لو تزوجته لكنت الآن زوجة عامل محطة البنزين، فردت بثقة: أو ربما كنت جعلت منه رئيسا لأكبر دولة في العالم!".

هنا يتجسد خطر الاختيار، كمن يقود سيارة في الزحام وعلى المنعطف يخطئ في الاختيار بين دعسة البنزين ودعسة البريك!

وأنا على قناعة تامة أنه في حال تغييب الظروف

سيختلف الاختيار حكما!

مثلا.، لولا الظروف العائلية لكان بدر اختيارا..

لولا ظروف العلاقة وظروف سعد لكان سعد اختيارا..

لولا ظروف بدر وسعد غير المناسبة، لما أصبح عزيز اختيارا!

لم يخف أبي فرحته بخبر تقدم عزيز إليّ؛ فهو ابن أحد أعز أصدقائه، ولطالما مدح شخصيته وأثنى على نجاحه، وطلب إليّ إبلاغ عزيز أننا نتشرف بزيارتهم حال عودة العم أبو عبد عزيز من السفر.

وبدأت بلا قصد، أقارن طريقة حياتي بطريقة حياة فيصل، الذي لم يهتم يوما بآراء أشخاص أو مجتمعات، أما أنا فتغريني الصورة المثالية التي يرسمها الآخرون عنّي.

لعل أصعب أنواع الحياة، هي الحياة المثالية!

أن تكون شخصا مثاليا، مثاليا في الصداقة، في الزواج، في الإخوة، في المجتمع، وحتى في الحب!

قد تصبح الأفضل لغيرك، ولكنك دون أدنى شك الأسوأ لنفسك!

فما ذنب نفس تسلب حريتها إرضاء للآخرين؟!

مثل ابنة بارة مطيعة بلغت عزيزا موافقة أبي على قبول

زيارتهم، وطلبت إليه بكل احترام أن يتعامل معي بشكل رسمي في الشركة خلال الأيام القادمة، وهو كطفل شقي مدلل مغرم بالتمرد وعاشق لكل ما هو ممنوع، ضرب بعرض الحائط كل اتفاق بيننا، كان حريصا إلى حد ما أمام موظفي الشركة، وكان عدو الحرص معي...!

كانسياب الماء في المنحدرات، تمت خطوبتي والاتفاق على كل التفاصيل، عائلتان تجمعهما المحبة والصداقة والمصلحة، وشابان لا مهمة لهما سوى الاستمتاع بالحياة، فالكل جنود مجندة لإسعادهما والفرح لفرحهما.

أعيش أجمل لحظاتي وأسعد أوقاتي مع عزيز عندما نتعامل كصديقين شرعت الخطوبة علاقتهما، ولكن مشاعري تخونني كلما كان عزيز حبيبا! أتحول إلى أنثى فاشلة معه، أفقد قدرتي على أن أكون حبيبة أو حتى أن أتقمص دورها، ثمة شيء يحول دون انصهارنا في شخص واحد عند اقترابنا من توقيت حب، أحدنا يا عزيز لم يستطع أو ربما كلانا.

سريع إيقاعك يا عزيز، وأنت تعلم أن الحب كالموسيقى الرومانسية تستمتع في كل ثانية بها، توقظ أحاسيسك بشكل تصاعدي، نتفرغ لسماعها وتنتشي بتأثيرها، على نغماتها تبدأ تفاصيل الحب، نعم، الحب كالموسيقا يجعلك تبحث عن كلمات تصف فيها مشاعرك فلا تجدها، الموسيقا

والحب يجمعهما حلم يتحول إلى واقع فقط عندما تتشبع أعصابك بنشوة الاسترخاء، وتفقد المقاومة... وتتنفس الحرية، وحده تأثيرهما من يحركنا، كلاهما يحتاج إلى فيضٍ من الأحاسيس... كلاهما يلبي حاجة عاطفية، وكلاهما لا ينفع أن يكون وجبة سريعة!

أنت يا عزيز رجل الأهداف! ما يهمك أكثر هو تحقيقها، الحصول عليها، تهمك النتيجة ولا تهتم بالأسلوب أو المقدمات أو الخطوات، تهتم بالوصول إلى جهتك دون الاستمتاع بجماليات الطريق، تهتم بنتيجة القهوة دون الاستمتاع بطعمها، وتلتهم حبات الكرز قبل النظر إلى جمالها وألوانها وسحر تكوينها، تحصل على كل ما تريد دون أن تعير اهتماما للتفاصيل، وأنت لا تدري أن هذه التفاصيل هي روح الإحساس التي تحيي كل علاقة، وهل يمكن لعلاقة أن تعيش دون روح؟!

روح الإحساس تتجسد في كل ثانية فقط معك يا سعد، ملك التفاصيل في العلاقات الروحية، وسلطان التأثير، قد تكون خاسرا في مجالك العملي، ولكنك دون منافس تتربع على قلب من تحب. ولأنني عادلة في إحساسي، وجدتك حاضرا في مقارنة لا داعي لإجرائها، لأنني عادلة في إحساسي، وجدتك حاضرا في عقلي ومخيلتي، لأنني عادلة في إحساسي، لن أدّعي نسيانك، وأنا أكوّن ذاكرة أخرى

مع غيرك!

لم يضيع عزيز فرصة تقربنا إلى بعضنا منذ لحظة ارتباطنا، كريم في هداياه، شهم في مواقفه، متفنن في إرضاء أبي وأمي، ولص محترف كلما صرنا في خلوة!

مرت شهور، والأمور تسير بأفضل أشكالها، سواء في العمل أم البيت، حتى بدر بارك لي خطبتي رغم حزنه وألمه الواضحين، وعمتي سعيدة، وقد فرحت ضعفين مرة لأنني ارتبطت وستفرح بي، ومرة أخرى لأنني لم أعد موجودة في حياة بدر، ولا شيء ينغص علي فرحتي إلا إحساسي بأن أمي ليست بخير وأن شيئا ما تخفيه هي وأبي عني.

وفي مرة رجوتها أن تقول لي ما الذي يشغل بالها ويؤثر فيها بهذه الطريقة، وكان ردها:

- لا شيء سوى أني في غاية القلق على أهلي في سورية، أشعر أنهم في خطر، فنحن نعلم مساوئ الحرب الأهلية وبالذات على الأقليات، كما تسمعين عن الانقسامات الاجتماعية والسياسية والطائفية والصدامات المتكررة ليس فقط بين فئات المجتمع السوري بل حتى ضمن العائلة الواحدة، وما يشكل الخطر الأكبر هو تسليح بعض الأفراد بحجة إكسابهم القدرة على الدفاع عن أنفسهم فيما لو تعرضوا لأي اعتداء أو هجوم، هذه هي السنة

الثانية ولا أرى الأمور تزداد إلّا سوءا، وكلما تأملنا خيرا عادت الأمور إلى الاشتعال من جديد، أنت لا تعلمين حجم الدمار الذي ينتج عن الحروب، وأسوأ آثارها الدمار النفسي والإنساني والفكري المرافق تحديدا للحرب الأهلية، فما بالك إن كانت الحرب عسكرية وسياسية وأهلية؟ بلدي لا يستحق هذا الدمار ولا أهله يستحقون، إنه بلد العزة والكرامة والتسامح والتعايش والحضارة الممتدة عبر آلاف السنين، وفي الوقت نفسه أشعر بالقلق على أبي وأقاربي، وأشفق على أطفال في عمر الورود يذوقون طعما مرّا لا ذنب لهم فيه سوى أن الكبار يأكلون الحصرم، وهم يضرسون.

- بإذن الله ستفرج أمي، لا تقلقي؛ فإن الله قادر على تغيير الحال بين ليلة وضحاها.

- الله نعم المعين، ولكن ألا ترين كيف يتكالب الهمجيون من كل أنحاء العالم لزرع الفتنة وإضرام نارها؟ ألا ترين كيف انقسم الشعب السوري، وكيف انقسم العالم في مواقفه تجاه البلد؟ أخشى ما أخشاه أن القادم أسوأ، وجدك لا يقبل مغادرة البلد والعودة إلى كندا أو حتى القدوم إلى الكويت، كل شيء يقلقني ويبث الرعب في كياني، لا شيء أقسى من الحرب، ولا شيء يعادل السلام والأمان يا ابنتي.

لم أعلم كيف أخفف عنها ومن قلقها ولكن حالتها أحزنتني، أشعر بالإحباط الذي يتملكها ولا ألومها، وأنا متأكّدة أنّ ثمة أشياء لم تصارحني بها بعد، قلت لها وأنا أعلم أنها لا تريد المزيد من الكلام:

- ماما، الحرب ستنتهي، وإن شاء الله فأهلنا هناك سيكونون بخير، ومن أجلي أنا، كوني بخير.

عالم المشاعر عالم غريب يخفي في مساراته زوايا سرية لا يحصّنها سوى الخوف من البوح، وحتى لو وهبنا الله حياة خالية من الأسرار فسنقوم نحن باختلاقها، لا أدري من أين تستمد الأسرار كل هذه المتعة! هل هو الخيال الذي يفوق بجاذبيته روتينية الواقع، أم إنه الوهم المتفوق على الحياة؟! أيّ تواطؤ عاطفي يملأ زوايانا السرية؟! وأي حلم آيل للاستيقاظ يزينها؟! أشفق على عقل يغلبه جسد وأحاسيس جسد، عقل صامت وجسد مشتعل، والعقل تخجله آهات الأحاسيس، والصمت يغلبه الاشتعال.

شخص يهديك الحياة وآخر يهديك متعتها، شخص تخبره أن الجو ماطر فيقول لك: كم سيكون يوما رائعا! والآخر يتأفف من حال هذا الطقس السيّئ، شخص تشتهيه فتكتم شوقك وشخص يشتهيك فتكتم سرك، شخص يريدك على ما أنت عليه وآخر يريدك لما أنت عليه، وأنت البائس العاجز عن الجمع بينهما.

سعد يلهث وراء لقاء بلا شروط، وعزيز يلتهم الحب على عجل، وأنا المغمى على قلبي في حجرات العناية الفائقة.

لم يكتفِ التخاطر بإرهاق عبثي الليلي، بل بدأت المصادفة بمساندته وفي وضح النهار، كانت الساعة الواحدة ظهرا عندما طلبني عزيز لإنجاز مهمة مستعجلة.

- نعمة حبيبتي، خرج توّا رئيس قسم في إحدى الجامعات الخاصة يريد تصميم برنامج لمتابعة حضور وغياب الطلاب في الكلية، وأنت الشخص الأمثل لهذه المهمة، ولكنه مستعجل جدا، ووعدته بتسليمه في أسرع وقت.

- مهمة سهلة، أحتاج إلى اسم الجامعة وعدد الطلبة الكلي والتوقيت المطلوب.

- هذه الورقة تحتوي كل المعلومات المطلوبة، وهذا كرت رئيس القسم للتواصل والمتابعة عندهم في الجامعة.

عدت إلى مكتبي، وبدأت بالعمل فورا، وعندما احتجت إلى إدخال اسم رئيس القسم المسؤول نظرت إلى الكرت، ويا لقوة الصدفة!

رئيس القسم: سعد عبد المحسن عبد الصادق!

من بين كل الشركات والمكاتب، وقع اختيارك على شركتنا يا سعد، ومن بين كل المهندسين لم يقع اختيارك إلا عليّ يا عزيز!!!

حسنا، كنت على بعد خطوات من لقائي يا سعد، وكنتُ على بعد دقائق من لقائك. لا أعلم من أحضرك إليّ هل هي المصادفة أم قلبك الذي لا يحتاج إلى دليل؟! أيّ مصادفة تخلق هذا التزامن العجيب؟! ماذا لو كان وصولك وأنا موجودة في مكتب عزيز؟! أنا سأعرفك، ولكن ماذا عنك؟ هل ستعرفني بإحساسك؟ هل ستطيل النظر إليّ؟

هل تم ترتيب المصادفة بتوقيت قلبك وبوصلة روحك؟ كيف وجدت لها مكانا في قدرنا؟ أخفي نفسي عنك، فيشاء القدر أن أجدك أمامي!! هل قمت بزيارة كل شركات ومكاتب تكنولوجيا المعلومات في الكويت لعلّك تلتقي أملا؟ أم إنّ شدة تفكيري فيك جذبتك إلى مكاني؟!!

أحمد الله حتى يبلغ الحمد منتهاه أنني لم أرسل إليك صورتي أو أفتح كاميرا يوما معك!! أحمد الله أنك لا تعرف عني شيئا، وحتى اسم "أمل" الذي تعرفه اسم مستعار فقط إلى حين انتهاء الأمل.

المطلوب مني الآن تصميم البرنامج ومتابعته في الجامعة التي تعمل فيها وتحت إشرافك!

قضيت النهار كله والليل أفكر في الموضوع، لا يمكنني

إسناد المهمة إلى غيري ولا يمكنني الانسحاب، اليوم الأربعاء والتسليم سيكون صباح الأحد، أفكر كيف سأقابله، كيف سيقترب مني، كيف سأستنشق رائحة عطره، سأتخيل كل ما كان يفعله معي من خلف شاشة، سينبض قلبي ويفضح سري، ستحمرّ وجنتاي وترتجف يداي، سيغمى على قلبي وتسندني ذراعاه القويتان، أفكر هل هذا ما سيحصل، أم هذا ما أتمنى أن يحصل؟!

حسنا، سألتقيه وتعرّفنا المصادفة التي كنت أحلم بها، سيعرفني نعمة وينسى أمل وسأكون حقيقة أمام عينيه، فمن أحبّ أمل فسيقع في حب نعمة، نعمة الفتاة المؤدبة العفيفة التي لم ترتكب ما يهز مكانتها أمام رجل شهد ضعفها، واستجابتها لمجون إغراءاته المتوحشة كما فعلت أمل، نعم أريد لقاءه وكأنه اللقاء الأول، وأنا بما سيأتي سأتكفل!

راضية بالقدر الذي رماه في ملعبي والذي لم يدبر مصادفة، هذا ما أراده القدر لي وله ولا يحق لنا معاندة القدر، ومرة أخرى كمراهقة، بشخصيتين، شخصية ينتهي دورها خارج باب الغرفة، وشخصية تغريها الجدران الأربعة وظلمة ليل، تضع صورة حبيبها الخفي على كامل الشاشة، تلامس ملامحه بأطراف أصابعها، وتطبع قبلة هادئة على شفتيه، وبوعي غيّبته ثمالة الحب تفك أزرار قميصها الذي

طالما أخفى خلفه عشق سعد الشهي، وحلمه الذي أشعل نار الرغبة في عروقه مرارا، تضم الصورة إلى صدرها، تنتشي بحلمها وتغرق في نوم عميق حالمة بلقاء مفتعل منصتة مصغية لصرخات روح...

تكاد نفسي تتعرف إليّ في هذا الصباح المختلف، وأنا أكاد لا أعرف نفسي، أردّ على اتصال عزيز أطمئنه أني وصلت إلى الشركة، وبلا تردد أقبل دعوته إلى العشاء الليلة وكأن شيئا لم يحدث ليلة أمس في ساحة تفكيري وداخل مسارات أحاسيسي، ألتقي عزيزا مساء وأحلم بلقاء سعد يوم الأحد، أي ضرب من الجنون أعيش؟!!

أمضي وقتا طويلا لتصميم المشروع، وقبل نهاية الدوام يتصل عزيز ليبلغني قرار الجامعة بإلغاء العمل في البرنامج بناء على قرار وصلهم توّا من الوزير.

نعود إلى لعبة القدر، هل كان ما حدث حلما أم إنّ القدر يلهو بنا؟! عندما أتخذ قراري، يغير القدر رأيه!! كيف سأقنع عقلي أن الوزير هو من غير رأيه وليس القدر؟!! كيف سأشك بعد اليوم أن القدر يعاند سعدا؟!! وأنت يا عزيز ما الذي فعلته في حياتك ولم يفعله سعد ليقف القدر في صفك ويدير ظهره لهذا المسكين؟!! أشعر بخيبة نيابة عن سعد، وأعيش حزنا كان سيعيشه فيما لو علم بما حصل.

بعد العشاء، طلب إليّ عزيز أن نتمشى قليلا، وكان صامتا على خلاف عادته، كان المكان مظلما إلى حد ما وغير مزدحم، شعرت بذراع عزيز تلف خصري بقوة، ثم ترتفع إلى صدري بجرأة، وأصوات أنفاسه الحارة في أذني نتوسل إلي أن نذهب إلى سيارته قليلا. حاولت الابتعاد عنه أو إبعاده، ولكن قوته كانت أكبر من أن تقاوم، ورغبته أشد من أن يتخلى عني في هذه اللحظة.

- عزيز، ما بك اليوم؟

- بل، ما بك أنت؟ ألا تشعرين كم أنت مثيرة اليوم؟ ألا تشعرين بفيضان أنوثتك الذي أغرقني منذ الصباح؟ نعمة، أنا لا أستطيع التحمل أكثر، أنت لي وأنا سأكون زوجك، أنا أشتهيك بجنون، كل شيء فيَّ يريد كل شيء فيك، ماذا سيحدث لو عشنا لحظات مجنونة من العشق؟ شهور بعد الخطبة وأنت تمانعين، أريدك إلى درجة تعذبني، هل تفهمين؟

- عزيز، سبق أن تكلمنا في هذا الموضوع.

- خمس دقائق فقط في سيارتي، أنا لا أطلب المستحيل.

- إن سمحت ياعزيز فأوصلني إلى سيارتي أو أذهب وحدي.

- ولكن.

- لو سمحت ياعزيز.

- حاضر.

أوصلني إلى السيارة، وقلت له إنني آسفة، وطلبت إليه أن يعذر رفضي وأن الأيام قادمة، وكلها ملكنا.

- تصبحين على خير حبيبتي. طمئنيني عندما تصلين.

- تصبح على خير.

تفقدت إيميلي بشوق لعل رسالة وصلت على لهفة، رسالة تؤكد أن ما حدث لم يكن مصادفة، ولكن صندوق واردي كان خاليا كما كانت وسادتي!

تذكرت قول شكسبير: "عندما لا تستطيع إخراج شخص من قلبك، فمن المؤكد أنه في مكانه الصحيح!!"

أتراك نسيتني يا سعد؟ هل عرفت واحدة غيري؟ ألا تفتقد ليالينا الحميمة المليئة بالحب والآمال؟ هل سترد على رسالتي إذا أرسلت إليك؟ أخشى غضبك وأخشى لسانك، ولو تعلم كم كنت جميلة اليوم فقط لأني حلمت أمس بلقائك، كم مشهدا تخيلت ونحن معا حقيقة! هل تنتظرني على سكايب؟ سأدخل وكلي أمل أن أحادثك الليلة، فأنا أعلم أنك تخصص سهرة كل خميس لنكون معا، وأنت تعلم أن دخولي يخبرك كم أنا مشتاقة إليك.

غير متصل...!! يعني غير مهتم، غير مشتاق، غير مستعد لأية بداية.

ولكنه حدّث حالته اليوم، وكتب بالإنجليزية ما معناه: "الشخص الذي يحبك مستحيل أن يتركك، وحتى لو توفرت آلاف الأسباب للرحيل، فسيجد سببا للبقاء!".

بدوري حدثت حالتي بمقولة إنجليزية: "لا تتركني لأجل أي شخص آخر، فأنا ما زلت هنا".

بعدها بدقيقة تلون زر الحالة باللون الأخضر، أعلم أنها رسالة تخبرني أنك موجود وأن الإشارة خضراء وأنّ طريقي مفتوح لمحادثتك ولكني أنتظرك أن تبدأ، وأنا متأكدة أنك لن تفعلها!

مرّت أسابيع، وأنا أنتظر رسالة، رسالة أعلم أنها مكتوبة وجاهزة، وكل ما تنتظره هو ضغط زر للإرسال، وعدت لتحديث حالتي برسالة مبطنة: "لا تراهنوا على ذكاء من حولكم لفهم مشاعركم،

أفصحوا لهم..

عبّروا بوضوح..

فالنظرة لم تعد ثاقبة...

والحدْس قد أصابه العجز.."

يا لغرابة الزمن! صارت سعادتنا وكآبتنا ومزاجنا، وحياتنا متعلقة بضغطة زر!! لا أعلم إلى متى سيطول انتظاري، ولكني متأكدة أنها ستصلني.

***

طلب إليّ عزيز مرافقته في إجازة إلى دبي بغرض إنهاء بعض الأعمال في فرع الشركة هناك من ناحية، وللاستجمام من ناحية أخرى، ولكني اعتذرت بحجة أن أمي ستسافر إلى فرنسا ولن أترك أبي وحده، مما سبب بعض الضيق لعزيز ولم يستطع إخفاءه. أفهمك جيدا يا عزيز، وأفهم إصرارك على سفري معك بحجة العمل، هل نتوقع أن الأجواء في دبي ستساعدك على الحصول على ما حلمت بالوصول إليه معي في الكويت ولم تستطع؟! أنا لست مغرمة ولا متيمة بك يا عزيز حتى تهزمني مشاعري بضعفها أمامك، أنا فقط معجبة ترتاح لكل مواصفاتك، وأنت الشريك الأمثل لي، واختيارك يحقق لي ما تحلم به أجمل بنات الكويت وأهمهم، سأبقى الجوهرة التي تحلم بامتلاكها والتمتع بجمالها والتفنن بحبها إلى أن ندخل بيتنا زوجا وزوجة، وفق أسمى معايير التقاليد في مجتمعنا الشرقي.

حتى أمي لا أعلم سبب سفرها المفاجئ إلى فرنسا، وأبي مشغول البال طوال الوقت، خالتي تركت سوريا وعادت

إلى كندا، ومن هناك ستسافر إلى فرنسا للقاء أمي بعد سنوات من الغياب، والأوضاع في سوريا تزداد سوءا ودمارا، الكويت سحبت سفيرها من سوريا، والجامعة العربية تفرض مزيدا من العقوبات السياسية والاقتصادية عليها بعد تعليق عضويتها منذ عام 2011، وكذلك فعلت أمريكا والاتحاد الأوروبي، وأنا ذات النصفين، نصف كويتي ونصف سوري، ولكن ألمي كله إنساني!!

أدعو الله أن يكون في عونك يا أمي، ليس سهلا أن يصبح الموت أحد أشكال الحياة في بلدك الأم، وأهلك حاضرون في مسرح الجرائم، وهنا في الكويت تعملين معظم وقتك لجمع وإرسال المعونات المادية والعينية إلى المتضررين من الأطفال الذين يعيشون مأساة بشرية وإنسانية ضائعة بالمعنى الحرفي للكلمة، أطفال أصابتهم لعنة القدر وسلبتهم براءتهم، إنها حرب بخصمين، وكل خصم في عين يتامى خصمه، مجرم!

***

أحيانا نشعر بالوحدة رغم وجود آلاف المحبين حولنا، ونشعر بالحزن رغم توفر أسباب السعادة كلها، ونشعر بالضعف رغم امتلاكنا أسباب القوة، ونشعر بالظلم رغم الحقوق التي نتمتع بها، وكثير كثير من المشاعر غير المبررة التي تعزى، برأيي، إلى أزمة الثقة، أزمة الثقة بيننا وبين ما

هو قادم إلينا، والذي سبق له أن خذل توقعاتنا بخيبات متكررة.

أحسست بملل وحيرة وخطر لي أن أكلم بدرا، فمهما حصل فنحن متعاهدان أن نبقى أصدقاء، كان الحديث في البداية باردا وكان بدر يجيب إجابات قصيرة مختصرة، وكان مترددا في فتح أي موضوع إلى أن رجوته ألّا يبني بيننا هذه الحواجز، وأنا أعلم كم هو شخص طيب ومرهف، ولأول مرة بدأنا نتحدث عن عزيز وعن التحضيرات للزواج وتحدثنا عن ملاك، ولكنه أخبرني أن ارتباطه بها مستحيل فهو لا يكن أية مشاعر حب تجاهها، ومن المستحيل أن يتزوج بامرأة لا يحبها، وأخبرني أيضا أنه سيسافر إلى دبي بعد ثلاثة أيام، وهنا أخبرته أن عزيزا أيضا مسافر إلى دبي، ووجدتها فرصة ليتعارفا أكثر، ووعدته بإرسال اسم الفندق الذي سينزل فيه عزيز ولم يعترض، بل قال إنه دائما سيفعل ما أطلبه إليه وبكل رضا وسعادة.

خلال فترة تعارفي أنا وعزيز، حاول تعليمي قاعدتين مهمتين للسكينة في هذه الحياة الصاخبة تلقاهما في إحدى المحاضرات، القاعدة الأولى: "لا تقلق بشأن الأمور التي لا تخصك"، والثانية: "كل الأمور لا تخصك"، ولكني وبكل حزن أرى أن كل الأمور تخصني، ولهذا بدأ القلق

يتملكني، هذا القلق مفقود عند عزيز؛ فغاياته تبرر أية وسيلة، وراحة باله أهم من كل البشر وقضاياهم كافة.

الناس في الأول والآخر سينظرون إلى وهج نجاحك وليس إلى تفاصيل إنسانيتك، إنسانيتك التي قد تكون أحد أسباب شقائك.

لو كان عزيز مكاني أجزم أنه كان سيوافق على السفر إلى دبي، متجاهلا عادات المجتمع وآراء الأهل، متجاهلا حالة أمه وأبيه، راميا عبء العمل على موظفين مخلصين، حالما بقضاء أسعد الأوقات وأجمل اللحظات، مستمتعا بحب حبيبته حتى ولو لم يكن واقعا في الحب.

في كل يوم يتصل عزيز، وفي كل يوم يطلب إليّ أن أحضر إلى دبي ولو ليوم واحد، وفي كل مرة أعتذر وفي كل مرة أشعر بانزعاجه حتى إنه في الأيام الأخيرة لم يعد يكرر الطلب، ولكني وعدته أني سأكون بانتظاره في المطار في يوم عودته إلى الكويت.

في ثاني أيام وصوله إلى الكويت، دعاه أبي لتناول العشاء في بيتنا، وكعادته يتصرف كرجل مهذب لطيف محافظ على بروتوكولات الزيارات والعلاقات الراقية، لم ينسَ إحضار الهدايا الثمينة لنا من دبي وقام بتقديمها، وطلب إليّ الاحتفاظ بهدية أمي لحين عودتها، وسأل متى ستعود، فقد اشتاق إلى وجودها، فأجابه أبي إنها ستتأخر بحجة أن

فيصل بحاجة إليها أثناء فترة الامتحانات.

فاجأني عزيز عندما طلب إليّ أن أكون جاهزة لاستلام إدارة فرع الشركة في غضون أسابيع، فهو ربما سيستلم مدير مجلس الإدارة لعموم الشركات في مطلع العام القادم، ولم يقبل اعتذاري عن عدم حمل هكذا مسؤولية لأنه يرى قدرتي على إدارة الفرع، والكل سيكون عونا وسندا لي.

في نهاية السهرة قمت بإيصاله إلى سيارته، وشكرته على ثقته بي بمنتهى الحب والامتنان، فما كان منه إلا أن أمسك بيدي وضغط عليها بقوة، وهمس في أذني "أنت شريكتي في حياتي وفي كل شيء، أعشقك".

غادرني عزيز تاركا في نفسي ولأول مرة نشوة تعادل ألف حب، يعرف تماما كيف يقربني منه،

ينجح بتعزيز ثقتي به وبنفسي، وأنا مثل كل النساء، إذ تنتشي النساء بثقة الرجال بإمكاناتهنّ المتفردة!

***

السعادة مفهوم متلون، مختلفة الأسباب، متنوعة الأشكال، قليلها حقيقي، بعضها مؤقت، ومعظمها زائف، أحيانا نجدها تبحث عمن يستحقها وتتجاهل من يبحث عنها، تهرب منك لو جعلتها غاية حياتك، تكبر في قلبك إذا تقاسمتها مع غيرك، تكافئ عطاءك، تتجاهل أنانيتك، ولا

تقدس تضحياتك، تقنعك أن في الوجود ما يستحق الحياة.

السعادة تأتي من الحقيقة ومن إحساسك الحقيقي بكل شيء حقيقي، أن تكون شخصا مثاليا يحيا حياة مثالية هذا لا يعني أنك سعيد، وبالمقابل أن تكون شخصا سعيدا هذا لا يعني أنك كائن مثالي. هناك تفاصيل تقربنا من السعادة تأتي من خلال الوصول إلى الطمأنينة والأمان والتحرر من الخوف والآلام، وهذه التفاصيل متوفرة في حياتي من خلال عائلتي، وأصدقائي، وصحتي، ووفرة المال، والعمل المرضي، والحب الذي يغمرني. أنا لم أسعَ للحصول على هذه التفاصيل، ولم أسأل نفسي يوما إن كنت سعيدة أو لا، لأني أفترض أن هذا الشعور مسلّم به عند كل الناس، أما اليوم فأجد سعادة بحجم الكون تغمرني، سعادة خلقت وحدها لم أطلبها أو أسعَ إليها إلى درجة أني وجدت نفسي أرقص في غرفتي على أنغام آمال صاخبة وأصوات أحلام تملأ قلبي فرحا وسلاما، ولم يصدع سكينته إلا رنين هاتفي بنغمة خصصتها مسبقا لبدر والتي صمتت قبل أن أجيب، تلتها نغمة رسالة ورد فيها: "أريد رؤيتك غدا لأمر هام".

***

في ذات المقهى الذي التقيت فيه بدرا المرة الأولى، جلسنا متقابلين جسدا، متوازيين رأيا، ومتقاطعين صدقا،

حدثته عن آخر أخباري وأنا في سعادة ظاهرة لا يخفف من بريقها سوى ستائر مراعاة لما كان بدر يشعر به تجاهي ذات يوم. أفهم بدرا من نظرة عينيه وحركات يديه ووجهه، ومن ارتباكه أمام كلمات قد تحدث فرقا، ومن إحساسه الخجول بالوصاية على جميع شؤوني. سألته عن أخباره وكيف تسير حياته في الفترة الأخيرة، فتلقّيت جوابا لا يشبه بدرا في معظم حالاته:

- أخباري غير مهمة، المهم أخبارك أنت.

- أخبرتك أن كل شيء ممتاز، ولله الحمد. لم تحدثني عن رحلتك إلى دبي أرجو أنها كانت رائعة.

- كان من الممكن أن تكون رائعة، ولكن ليس كل متوقع حاصلا.

- يبدو أنها كانت رحلة مزدحمة بالأنشطة حتى إنك لم تلتق عزيزا هناك.

- ربما كان لقاء من طرف واحد.

- لم أفهم.

- هذا أفضل، فبعض الفهم مأساة.

- لماذا تتكلم بالألغاز؟ وما هو الأمر الهام الذي طلبتني لأجله؟

- لا شيء مهم، انسي الأمر.

- بدر، أنت لم تحضرني إلى هنا لتقول لي: لا شيء مهم.

- نعمة... هل تعرفين عزيزا جيدا؟

- ؟

- أقصد هل تعرفين تفاصيل حياته؟ وهل تثقين به؟

- بدر، من فضلك كن أكثر وضوحا، إن كنت تريد فتح موضوع سابق أرجوك لا تفعل، أنت تعلم أني مخطوبة رسميا ونحن نقوم بكل التجهيزات للزواج منذ فترة.

- لأني أعلم أنك مخطوبة وتحضرين للزواج، طلبت أن أراك. والآن أنا آسف، انسي الموضوع وهيا بنا.

- أنا آسفة بدر، لم أقصد، دعنا نشرب القهوة ونذهب.

- ...

جلست في سيارتي بعد أن تركني بدر في حيرة من أمري، هل ألحّ عليه بالسؤال وهو المتردد في الكلام أم أعتبر تصرفه بمثابة دفاع أخير عن حبه؟

أسندت رأسي إلى نافذة السيارة، وأنا أفكر في اللقاء من طرف واحد، هل رفض عزيز مقابلة بدر مثلا أم إن بدرا تهور وقال له إنه يحبني؟ ما الذي حصل؟

- يجب أن أخبرك بما حصل يا نعمة.

قالها بدر بعد أن فتح باب سيارتي وجلس إلى جانبي.

- ...

- بناء على رغبتك في مقابلة عزيز، قمت بالحجز في الفندق نفسه في آخر يومين من رحلتي.

- ...

- عندما ذهبت لمقابلة عزيز، رأيته يجلس مع فتاة شقراء. ولأني اعتقدت أنها دعوة عمل، جلست من باب الأدب أنتظر انتهاءهما، ولكن الاجتماع لم ينته بانصراف أحدهما أو كليهما، وإنما...

- ؟؟

- رأيت عزيزا يضع يده على كتفها ويصطحبها إلى غرفته، ولم تخرج إلا صباح اليوم التالي بعد أن خرج عزيز للتسوق، ثم عادت إلى غرفته في منتصف الليل.

- بدر، ما الذي أسمعه؟

- أنا آسف نعمة، ولكن واجبي تجاهك كصديق وابن عم أن أخبرك.

أحسست بوهج النار يكوي وجهي، ودوار يفقدني وعيي، ولم أصحُ إلا وبدر يغسل وجهي بماء بارد، ويسألني:

- هل أنت بخير؟

- بدر.

وأجهش بالبكاء.

- أنا آسف. والله، لم أقصد أن أسبب لك هذا الأذى.

- قل إنك تكذب عليّ، قل إنه شخص يشبه عزيزا، وأنت لم تميز بينهما.

- اهدئي نعمة، سأوصلك إلى البيت. لن أدعك تقودين السيارة، وأنت في هذه الحال.

- لا، سأتصل بأبي.

- نعمة، لا تسببي له القلق. سأوصلك ثم يأتي السائق ليأخذ السيارة.

وصلنا إلى البيت، وأنا في حالة يرثى لها، ولحسن الحظ لم يكن أبي موجودا، بقي بدر معي إلى أن طلبت إليه الذهاب لأني أريد أن أنام، أرسلت رسالة إلى العمل أطلب فيها إجازة طارئة، وأخذت من علبة دواء أمي حبّة واحدة من حبوب المنوم الذي كانت تتناوله أحيانا في الفترة الأخيرة، ثم فصلت هاتفي، وأطفأت ضوء غرفتي، وغططت في نوم عميق.

***

صفعة القدر الأولى تأتي على غدر، تأتي قوية قوة الصخر، تكسر الأحلام وتهشم الآمال، لئيمة لا تظهر نواياها، هوجاء لا تنذر بوصولها، قد لا يستطيع الآخرون رؤيتها، ولكنها ستترك أثرا في روح متلقيها لن يمحوه تعاقب السنين ولن يشفيه ألف اعتذار.

أشعر بالخجل من نفسي ومنك يا بدر، أنا لست الجميلة الفاتنة التي يتوب على جمالها العاشقون كما كنت أعتقد، ولست القوية التي يحسب حساب وجودها وغيابها كما كنت أظن، أنا مجرد امرأة عادية كسائر النساء الجميلات، تنهال عليها قصائد الغزل والإعجاب، وترمى تحت قدميها الورود، وبعدها تتساوى قيمتها بالعدم.

كيف استطعت فعلها يا عزيز؟! وكيف استطعت إكمال غرامك معي؟!

مرّت أيام، وأنا لا أفارق غرفتي بحجة أني مريضة، غير مبالية بأسئلة أبي ولا باتصالات عزيز، كل ما أريده وأحتاج إليه هو غيابي عن الجميع، وغياب الجميع عني!

***

قررت، بعد تفكير، ألّا أخبر أبي بالموضوع، وسأذهب إلى دوامي بشكل طبيعي، ولكنني أقسم يا عزيز إنني لن أكون لك يوما.

تمضي الأيام في العمل، وعزيز يعمل كل ما في وسعه لأكون جاهزة لاستلام المنصب الجديد، وكأن شيئا لم يحدث، وكأنه لم يرتكب خطأ يمسّ كرامتي، وكأن لياليه مع شقراء الفنادق لم تكن، أو ربما كانت جزءا لا يتجزأ من جدوله في كل مرة.

لم أعر اهتماما لكل تساؤلاته الملحة لمعرفة سبب تغيري وبرود تعاملي معه ولا لتوسلاته المتكررة للقاءات خارج أوقات الدوام، ولا حتى نجله من اعتذاراتي المتتالية عن استقباله في منزلنا.

مساء يوم الخميس، قال لي أبي: "ما رأيك أن نخرج لتناول العشاء في مكان جميل أعرفه؟ فأنا أشعر بملل وأحتاج إلى الخروج". لم أنتظره حتى يكمل جملته، فقلت له موافقة، فقد كنت في حاجة ماسة للخروج أكثر منه.

لم أتوقع ما كان ينتظرني، أو بالأصح من كان ينتظرني، كان السيد عزيز بانتظارنا.

فعلتها يا عزيز، عرفت كيف تلعب لعبتك، لا تقبل أن يهزمك أحد، السيد عزيز اتصل بأبي يدعونا إلى العشاء، وأقنعه بإحضاري معه نظرا لرفضي المستمر لمقابلته، ولم تنته خطته هنا، بل جاء اتصال عمي أبو عبد العزيز في هذه اللحظة يدعو أبي إلى الديوانية، فكل الأصدقاء ينتظرون هناك وطلب إليه ألّا يتأخر، أقسم إنك أنت يا

عزيز من رتب الحكاية كلها، وعندما حاول أبي الاعتذار شارحا الوضع، وأنه يجب إعادتي إلى المنزل، لم يترك له مجالا للتحدث، وأوكل مهمة إعادتي إلى البيت إلى عزيز قائلا: "لا تكن عزولا يا رجل، دعه يعمل سائقا عند أميرتنا اليوم، وتعال أنت قبل بداية المباراة".

أعلم أن هذا الأسلوب لا يروق لأبي، ولكنه لم يشأ أن يضع نفسه في موقف محرج مع صديقه أو أن يظهر عدم ثقته بعزيز، وهكذا استأذن بعد أن قال له عزيز: إننا سنشرب القهوة وبعدها مباشرة نتجه إلى البيت.

جلسنا كمتخاصمين، هو ينظر إليّ وأنا لا رغبة لي في الكلام، وعندما شارفنا على إنهاء القهوة، سألني بريبة:

- نعمة حبيبتي، هل هناك شيء يزعجك؟

- لا.

- هل تتعبك المهام الكثيرة في العمل؟

- لا، أبدا.

- إن كان هناك أي موضوع تريدين إخباري به أو أمر أستطيع أن أساعد فيه فأنا جاهز.

- نعم، تستطيع إيصالي إلى البيت لو سمحت.

- نعمة، لماذا تتعاملين بهذه الطريقة؟ لن أتحرك قبل أن

أفهم ما الأمر.

- عزيز، لو سمحت فدعنا نذهب.

- وأنا قلت لن أتحرك قبل أن أفهم ما الأمر.

هممت بحمل حقيبتي وترتيب ملابسي للنهوض، وإذا به يمسكني بيدي ويقول بصوت خافت خرج من خلف شفتيه اللتين بدا عليهما الغضب:

- اجلسي، قلت لك.

- اترك يدي، وإياك أن تلمسني.

نظر مستغربا مصدوما غير مصدق لما سمعه.

- نعمة.

- ...

- ماذا حدث في غيابي؟

- ...

- أسألك ماذا حدث في غيابي، قولي.

- ما حدث لم يحدث في غيابك، بل حدث في وجودك أنت وفي غيابي أنا.

- نعمة، تكلمي قبل أن أرتكب أولى حماقاتي معك.

- ههه أولى حماقاتك؟!

- ماذا تقصدين؟

- هل تراني جميلة يا عزيز؟

- أجمل فتاة رأتها عيناي.

- هل أنا مثيرة، ذكية، محترمة، وتملأ عين الرجال؟

- ما هذا الكلام نعمة؟

- أجبني.

- لو لم تكوني أروع النساء لما اخترتك وفضلتك على مئات بل على آلاف.

- لكنك فضلت وجبة سريعة في فنادق دبي، تملأ بها رغبتك الخاوية النهمة دون أي اعتبار لي ولكرامتي.

لفّه الصمت وأخرسته الصدمة، تجمّد لحظات ولا أظنها كانت كافية لتليق بالحدث، ثم عدّل جلسته وتنفس بعمق، وقال شبه مبتسم:

- هذه هي كل الحكاية؟ لن أسألك كيف عرفت، ولن أنكر ما حدث، نعم رافقتني فتاة في آخر يومين.

- بكل هذه البساطة يا عزيز!

- لأن الأمر بسيط نعمة، ولا يحتاج إلى تعقيد.

هذه المرة لم أنتظر قراره، بل حملت محفظتي وخرجت، ولكنه لحق بي وسحبني باتجاه السيارة وصرخت به:

- اتركني، سأذهب بتاكسي.

ولكنه لم يكترث لكلامي كعادته، وفتح باب السيارة وأجبرني على الركوب.

- نعمة، لم كل هذا العنف في ردة فعلك؟

- إنه فعلك الذي أجبرني على ردة الفعل هذه، وتتحدث كأن شيئا لم يكن. إن لم تخجل من نفسك فاخجل مني على الأقل.

- لن أرد على كلامك الذي لم يعجبني. نعم، استضفت فتاة، وأقمت علاقة معها، ولكنها مجرد سائحة أجنبية كانت تنزل في الفندق نفسه. علاقة مؤقتة، وكل منا ذهب في سبيله، وهي لا تعني لي شيئا.

- أكاد لا أصدق ما أسمعه!

- وما الغريب في الأمر؟ أنا شاب ولي متطلبات، لمَ لا تقدّرين؟

- تخونني وقبل الزواج يا عزيز!

- عن أية خيانة تتحدثين؟ أقسم إنها لا تعني لي شيئا، ولن أراها مرة أخرى في حياتي، أنا أحبك أنت، وأنت فقط

من تعيشين في قلبي وفكري.

- اسكت يا عزيز، اسكت لو سمحت.

- نعمة، قدّري موقفي لو سمحت؛ هذه أول مرة أقيم علاقة مذ عرفتك، ولن أقول إن لك دورا فيما حدث، ولكن وجودك الدائم المثير معي المترافق مع صدك المستمر أرهقني، وأنا لست حجرا ولست ملاكا.

- يكفي ياعزيز، كلامك كالسّم، لا أريد أن أسمع المزيد.

- نعمة، أنا آسف، كنت أتمنى ألّا تعلمي بالموضوع.

- اصمت عزيز، لا أريد أن أكرهك.

- صدقيني الموضوع لا يستحق منك كل هذا الغضب، لقد اقتربنا من المنزل، ولن أتركك غاضبة بهذا الشكل.

- ...

- أنت خطيئتي. ولا مبرر لحرماني منك بهذا الشكل، وأنت المتحررة المثقفة.

- ...

- لقد وصلنا، هل تسمحين لي بالدخول معك؟

- بالتأكيد لا، أنت تعرف أن لا أحد في البيت.

- ولهذا أطلب الدخول معك.

- ما فعلته في دبي بنى حاجزا كبيرا بيننا يا عزيز، وأنت ارتكبت ذنبا بحقي لا أعتقد أني سأغفره يوما.

- ستغفرينه، نعم ستغفرينه لأنك تعلمين كم أحبك وأنت أيضا تحبينني، وكما أشتهيك في كل لحظة أنت تتمنين الذوبان في أحضاني. لا تكابري يا نعمة، فأنا لست ذلك الرجل الشرقي التقليدي، أنا شاب أعيش في زمن الألفية الثالثة. وإن كان ما حصل في دبي أزعجك إلى هذا الحد، فأنا آسف إلى أبعد الحدود، وأعدك أنها لن تتكرر، وأنا جاهز لكل ما يرضيك، فأنت جوهرتي التي لا أستبدلها بنساء العالم أجمعين.

دخلت غرفتي وحزن العالم يعتصر قلبي وروحي، وألم الصفعة يزداد عمقا لسوء معالجة الموضوع. أكبر الأفعال صغيرة في عينيك يا عزيز، طبعا فعيناك جزء من كيانك، وكيانك ومتطلباته أهم من الدنيا بما ومن فيها، المهم عندك أن تمشي سفينة سعادتك، ولا يهم من وما تهشم في طريقها، لا ضير عندك في سعادة ثمنها تعاسة الآخرين، ولا نجاح سببه انهيار الآخرين، فالآخرون هم آخر همك، فهل تعتبرني - وأنا نصفك الثاني- من الآخرين؟!

طمأنت أبي على وصولي، وأخبرته ألّا يتقيد بالعودة باكرا إن أحب إكمال سهرته لأني سأنام، ثم أقفلت موبايلي،

وبدأت ببكاء لا أتذكر أني بكيته من قبل. أشعر بنوع من الانكسار، انكسار نفس وانكسار قلب وروح، أشعر أن عزيزا انتهى وخرج من حياتي، ولن أقبل أن يشاركني في مشاعري أو عالمي، لا أقبل شخصا لا يعطي للقيم حقها، ولا أقبل بحب تنقصه الأخلاقيات.

احتضنت مخدتي كحضن آمن، وأشعر أن عينيّ قد غفلتا بعض الوقت، وإذا صوت لا أعلم مصدره يهمس في وجهي: "لم كل هذا الموقف القاسي وردة الفعل غير المبررة؟! أنت لا تحاسبين عزيزا هذا الحساب العنيف لأنه عرف امرأة غيرك، فهو لم يصبح زوجك بعد، ابحثي في قرارة نفسك عن السبب الخفي، اسألي اللاوعي في شعورك لماذا تريدين التخلص منه، ومن أجل من. تأكدي من عدم وجود شخص آخر، وحب آخر يدفعانك إلى عدم مسامحته، تبحثين فقط عن الحجّة، كوني منصفة يا نعمة، خيانة عزيز عابرة سببها طيش شباب أو رغبة جامحة، تتحدثين عن إثم الرغبة، وماذا عن سعد يا نعمة؟! لماذا يعيش معك في كل ليلة؟ لماذا تسمحين بوجوده خلف شاشتك، وأنت تعلمين أنه يتحرش بك سرا كل ليلة، وأنت تنتشين بتحرشه؟ أليست الخيانة الافتراضية خيانة؟ لم تبررين لنفسك ولا تغفرين لخطيبك؟ تذكري كم ألحّ عليك بالسفر معه، وكم طلب ودّك وقربك وتمنعت. خيانتك لا تقل عن خيانته، فكوني عادلة، وتخيلي كيف سيكون

موقفك فيما لو كشف سرك كما كشف سره.

فتحت عينيّ وأنا كمن يقف في قاعة محاكمة ينتظر النطق بالحكم من هيئة المحكمة، ولكني لم أرَ سوى شيري تحاول إيقاظي بكل هدوء، لأن الساعة تجاوزت الواحدة ظهرا، وعمتي مع أبي بانتظاري.

لم أنجُ من أسئلة عمتي، المواظبة على زيارتنا حتى من دون مواعيد، عن موعد العرس وتجهيزاته ولم أختبئ من الرد، فأجبتها: نحن في مرحلة تعارف، ولا يزال الوقت مبكرا لتحديد موعد للعرس فلا داعي لاستباق الأحداث، لأفاجأ بنظراتها هي وأبي تخترق وجودي وتستهجن ردي، ولكن أبي أردف: "لا تتوقعي انسجاما كاملا في بداية العلاقة، سيحدث الكثير من اختلافات الرأي وكثير من العناد، ولكن الأيام كفيلة بكل شيء".

عزيز ذكي جدا باختياره شريكة حياته، أراد الفتاة الجميلة المتعلمة المؤدبة ابنة البيت محدودة العلاقات لتكون أما مثالية لأولاده، وزوجة رائعة، ووجها اجتماعيا يتفاخر به أمام الجميع، وهذا أحد أشكال النجاح الذي يعشقه هذا الشاب الجامح الطموح ويسعى لتحقيقه، ولكن حصوله على الكنز لا يعني استغناءه عن الفرص الأخرى، ولا يعتبره جشعا وإنما استحقاقا، وهذا أحد أسراره التي يدركها جيدا والتي لن يعترف بها، وإذا ما تم كشفها فهذا

أمر لا يعني له شيئا!

وأنا أجلد مشاعري وسلوكي كل يوم اعترافا بذنب وسرّ بيني وبين نفسي لم ولن يعلمه أحد حتى شريكي في السر، سعد لن يخرج يوما إلى العلن كحبيب افتراضي، وإن خرج فهو حبيب من؟ أنا العنصر المجهول في علاقة أساسها شخصان ومن المستحيل أن تستمر بلاعب واحد، أما أنا وإن ظهرت يوما فسأظهر بشخصيتي الحقيقية التي لا تعلم شيئا عن أمل، لهذا أفكر دائما بمصادفة تجعلني ألتقي سعدا ببداية جديدة صحيحة، فأنا أصبحت متأكدة أنه الشخص الذي أبحث عنه ويناسبني تماما، وأنا المرأة الوحيدة القادرة على إسعاده وفهمه وتغيير حياته، وأنا الوحيدة المدركة كمّ الميزات التي يتمتع بها، ولهذا قررت أن أعيد تواصلي معه، وليحدث ما يحدث.

شيء ما في داخلي يدفعني إلى الانتقام من عزيز أو بالأصح الانتقام لكرامتي المستهان بها. دخلت على سكايب، وأرسلت إليه: "مساء الخير"، ولم ير رسالتي إلا بعد ساعات، فأنا شبه متأكدة أنه لا يكون أونلاين إلا لأجلي.

- مساء الخير أمل. t.me/twinkling4

- أرسل إليك لأني لم أعد أتحمل شوقي أكثر.

- وأنا أشتاق إليك أكثر، وكنت أنوي مراسلتك منذ

البارحة، ولكن يأسي من استجابتك منعني.

- أرسل إليّ في أي وقت، رسائلك دائما تسعدني، وأنت تعلم ذلك.

- وما فائدة الرسائل؟

- تُسعدك لأن حبيبك يفكر فيك حتى في غيابك.

- يا أمل، الحبيب ليس لقبا، الحبيب فعل ومواصفات وحقيقة.

- دعك من هذا الكلام سعد، وأخبرني عن كل شيء.

- مغرمة بدور المسيطر المتحكم، تريدين كل شيء بما يناسبك، متى ستتعلمين أنه يجب عليك العطاء وليس الأخذ فقط؟ أعطي واحدا فقط وخذي عشرة مقابلا له، يجب أن تتغيري يا أمل، يجب أن تتطور علاقتنا، يجب أن تخرجي من خلف قضبان شاشتك، فأنا لن أكون حبيبا لجهاز ولا حبيبتي مجرد شاشة. أتفهمين؟ ولن أضيع وقتي أكثر، اسمحي لي.

- سعد.

- ؟

- أحبك

- ...

- أحبك

- لا تعاودي اللعب بمشاعري أمل، طلبي واضح، أراك أولا.

- هل تحبني؟

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

- أراك أولا.

- اليوم الثاني في معرض الكتّاب الساعة السابعة مساء، أي بعد أربعة أيام.

- هل أنت جادة؟

- نعم.

- ...

- تحبني؟

- أحبك وأعشقك وأكثر.

- سأكتفي بجوابك ولن أسألك إلى متى، هل سنسهر معا اليوم؟ فأنا وحدي ولا رغبة لديّ في النوم.

- هل من مفاجأة لي اليوم؟

- بعد دقائق افتح إيميلك.

أعلم حجم الفرح الذي يعيشه في هذه اللحظة، وأعلم كم

يصدقني وأنا لن أخون مشاعره الليلة، أعلم ما يستثير مشاعره أكثر، وهذا ما أريده اليوم. ارتديت فستانا أسود مفتوح الصدر، والتقطت صورة تظهر الجانب الأيمن من صدري وبعضا من خصلات شعري بطريقة مثيرة، وأرسلتها من دون تردد ولكن بخجل شديد، فهذه هي المرة الأولى التي أرسل إليه شيئا حقيقيا، وجلست أنتظر ردة فعله عدة دقائق، ولم يخب لي ظن ولا إحساس، إذ أمضى هذه الدقائق يقبل هذه الصورة، وينظر إليها ويرسل إليّ قلوبا حمراء ووجوها غارقة في الحب؛ ممّا جعلني أشعر بامتنانه، وبعدها أرسل:

- أرسليها كاملة، أستحلفك بالله.

- في المرة القادمة سعد.

- سأعتبره وعدا، وسأكتفي اليوم بما حلمت برؤيته منذ أشهر، تعرفين كيف تعيدينني إلى باب حبك راجيا غرامك ومتناسيا قطيعة عمرها شهور طويلة، أعود لنغرق العالم حبا وشغفا، نعود لنثبت أننا لم ولن نفترق، اذهبي إلى غرفتك، فأنا الليلة أريد أن أرتكب جريمة حب، أنا وأنت الشاهدان عليها فقط.

- بالمناسبة سعد، ما أخبار الدكتوراه؟

- أوووووه، تبا للدكتوراه ولأسلوبك في الانتقال بين

المواضيع، وهل هذا وقت السؤال عن الدكتوراه؟

- ...

- حسنا، لن أفسد أجواء الليلة. كل شيء جاهز تقريبا، وأنتظر التقييمات النهائية، وتحديد موعد الدفاع، وأعتقد أني سأنتهي كليا، وأستلم الشهادة بعد أقل من سنة.

- مبروك.

- أتمنى أن أسمع كلمة مبروك عندما أجتمع أنا وأنت حقيقة، فأنت لي أهم من كل الشهادات، وأنت الحلم الوحيد الذي أتمنى أن يصبح حقيقة. أحبك أمووولتي، ورجاء اتركي هذه الليلة فقط للحب، انسي كل شيء، وانسي نفسك معي، أشتاق إليك وأشتاق إلى إحساسي معك، أريد لشفتيك أن تحترقا من حرارة أنفاسك المشبعة بالحب، ولجسدك أن يسقط مستسلما متوسلا للقائي، أريدك أن تصرخي حبا، وتئنّي رغبة، وأسمع روحك تنادي أريدك يا سعد، أريدك أكثر مما أريد الدم في وريد قلبي، وستجدينني رجلا يعادل عالم الرجال كله، ستكتفين بي وأرتوي منك، سأجعلك تؤمنين أن لا شيء حقيقي في هذا العالم إلا الحب، وأن لا سعادة حقيقية إلا لحظة اتّحاد جسدين عاشقين اختصرا كلام العالم ووجوده بنشوة "آه" توقف الزمن عندها عندما فاضت الأرواح بماء حياتها.

- أنت تسلبني روحي بكلامك، وتصيبني بشلل المقاومة، ارحمني سعد.

- أنا الوحيد القادر على رحمة جسدك وروحك وأنفاسك، فأنا أشعر بتوسلاتها التي تغريني، تأكدي أن باب غرفتك مقفل، فالأبواب المقفلة تزيد من فتائل الإثارة!

كانت ليلة لا تشبه غيرها من الليالي، كانت الروح محلّقة، وكان القلب نائما في أحضان الهيام، ما أجمل السكينة! وما أحلى السلام بعد ثورة الجسد! وما ألذّ أن يحبك شخص وكأنك أول وآخر إنسان على الأرض! وما أشهى أن ينتابك شعور يعاش ولا يحكى ولا تعبّر عنه أبجديات العالم! الحبّ رابط كيميائي دافئ! الهوى يميتك ويحييك ويسمو بك إلى مكانة تمنحك القدرة على التحليق في سماء الطمأنينة والترفع، والإبحار بعيدا عن فوضى الأفكار وأسباب الألم!

لن أتخلى عنك بعد الآن يا غرام روحي، ولن أتخفى عنك أكثر، سأقابلك في المعرض، وليحدث ما يحدث، فلم يضعك الله في طريقي إلا لسبب، وأنا أعمل بالأسباب. في صباح ثاني أيام المعرض، أكدت له موعدنا في المساء الساعة السابعة، وكنت على خجل فتاة في الرابعة عشرة من عمرها، وعلى غبطتها باكتمال أنوثتها وشغف انضمامها إلى عالم النساء، ولا أظن أنه كان أقل ابتهاجا

من مشاعري، ولا أقل تلهّفا للقائي من تلهف النار لعبور أكوام قش يابسة مبللة بزيوت الاشتعال.

***

منذ الساعة الخامسة ورسائلنا عبر سكايب لم تتوقف، قلبانا يدقان وروحانا ترتجفان، مشاعر تشتعل وعيون تحلم برؤية الحلم، حلم سيغدو حقيقة في غضون ساعتين، حلم منتظر منذ أكثر من عامين، حلم على أبواب سعادة لا ينقصها إلا الفتح العظيم.

يخبرني أنه اختار أجمل بذلة تليق بلقائي، وأن مصفف الشعر بالغ في تصفيف شعره، وأن الفرح يغمره واللهفة تفيض على حدود سنواته الأربعين.

رجوته أن يتحمل خجلي عند اللقاء، وربما تلعثمي في الكلام، ليقول لي لا تتكلمي، لا تفعلي شيئا. أنا من سيتكلم ويفعل وينظر، لا أريد أكثر من رؤيتك حقيقة أمام عينيّ، وفي قادم الأيام سنبدأ أحاديث لا نهاية لكلماتها ولا كابح لجرأتها.

فقط معه ينتابني هذا القلق، وأنا الجريئة، جميلة الكلام، واثقة النفس، ولكن هالته تمتلك من التأثير على أمل ما تفعله شبكات العناكب المهجورة بفراشة علقت خطأ بين خيوطها.

في تمام السادسة والنصف، انطلقت باتجاه المعرض، وكل ما يستغرقه الطريق هو أقل من خمس عشرة دقيقة بتوقيت مشتاق. أحترم موعده، وأتوقع وصوله قبل موعده بوقت طويل، وكما يقولون، إحساسنا بالوقت تحدده مشاعرنا، وليس الساعات المعلقة على الجدران! أخبرته أن ينتظرني فأنا في طريقي إليه، كنت قد حضّرت له تذكارا، وأخبرته أني جهزت ما يخلّد ذكرى لقائنا الأول، ميدالية تحمل حروف أمل، وعلى هذه الحروف نقش سوارفيسكي يخلد تاريخ لقائنا الأول 14/10/2013. وفي الهدايا آراء...

البعض يقدم الهدايا الثمينة للأغنياء،

والرخيصة للفقراء،

والبعض الآخر يقول هم أغنياء لا حاجة لأن أهديهم لأنهم يملكون كل شيء.

وأنا أقول:

تهادوا، فالهدية ليست بقيمتها المادية، لا شيء يعادل إحساس الفرحة بالهدية؛ فهي الدليل على اهتمام الآخر بك وحبه لك وقدرته على العطاء.

وصلتني رسالته تؤكد لي وصوله، وأنه بانتظاري منذ نصف ساعة في الركن الثاني من المعرض أمام دار الأمل للنشر، وعندما تأكد من وصول الرسالة أرسل وجها

مبتسما وقلبا نابضا يعلن الحب والشوق، وبدأت بكتابة الرد بأنني قريبة ولن أستغرق أكثر من دقائق للدخول.

هممت بإرسال الرسالة المنتظرة، ولكن سطور القدر كانت لنا بالمرصاد، لم يمهلني القدر من الزمن ثانية أخرى لأجل إكمال إرسالها، الرسالة التي لم ولن ترسل بمرسوم رسمي من قدر أكثر ما يهواه، هو إتمام لعبته مع أقل اللاعبين حظا!!

***

على الشارع الرئيسي الذي يحمل منعطفا إلى اليمين قبل نهايته، والذي يؤدي إلى شارع فرعي ينتهي إلى أرض المعارض، حدث ما غيّر مجرى التاريخ بين حبيبين انتظرا موعدا على أمل، حرصي على القيادة لم يمنع شرودي لحظة نويت إرسال الرسالة. ما حصل أن سائق السيارة أمامي توقف بشكل مفاجئ بعد المطب وبسبب انشغال فكري ونظري، لم أستطع تجنب حادث الاصطدام الذي جعل صدري يصطدم بقوة في مقود السيارة، فغبت عن الوعي ولم أتمكن من إرسال الرسالة!!

أي قدر يتفنن في تعذيبك يا سعد؟! وأي قدر يدبر منع لقائنا؟! ما هذه الرسائل المتتابعة التي تخبرنا جهرا أن لقاء بيننا لن يتم يوما؟!

بقيت يومين في المستشفى وثلاثة أيام في المنزل ملازمة فيها فراشي بلا حركة ولا ذهاب إلى العمل، وموبايلي قد كسر أثناء الحادث واليوم فقط أصلح، وبالتأكيد الموبايل الجديد لا يغنيني عنه فكل الداتا محفوظة على الجهازالقديم. ولا يمكنني استخدام اللابتوب لأنني مجبرة على الاستلقاء وعدم الحركة أو ملامسة أي ثقل لمنطقة صدري المرضوضة بألم لا يحتمل.

أول شيء نويت فعله بعد استلام الموبايل هو إخبار سعد بما جرى، وتوضيح عدم قدرتي على مراسلته،

أي نوايا طيبة أمتلك!

لم أعلم أن الرسائل يمكنها الفرار من صندوق الوارد، والتحول إلى سهام سامة مصوبة نحو قلب لا قدرة له على التصدي نظرا لضعفه من جهة، ولشدة حدتها القاتلة من جهة أخرى. وصلتني رسالته وكان توقيتها قبل "البلوك" الذي عاقبني به سعد بخمس دقائق فقط.

خمس دقائق! هل هذا كل ما استطعت انتظاره قبل سماع ردي يا سعد؟! هل عمر ثقتك بي خمس دقائق فقط؟!

سأقرأ رسالتك يا سعد، فالألم لا يزيده الألم.

"لعوب كذوبة خادعة كأفاعي الربيع، سامة مؤذية

لئيمة كعقارب الليل، لاهية سافلة مؤقتة كفتيات الليل، ترتدين ثياب الطيبة والبراءة على جسد بلا أخلاق وروح، زائفة زيف ديوث احترف تجارة الدين، أثرت قرفي كما لم تفعله قذارات السنين، ودمرتِ ما بقي لي من قدرة على الحياة، وثقت بك فجعلتني مسخرة السنين، لم أفعل لك شيئا لتلعبي بي، لم أجبرك على العودة إلى حياتي، في كل مرة أحاول نسيانك تعودين بوجه جديد، ما أبرعك في عهر التمثيل! وما أشقاني بمعرفتك!

جعلتني أحتقر نفسي وجعلتني أشعر كم أنا رخيص، لم أعد أريدك ولا أريد حياتي، سأختفي من الحياة لأضيع عليك نشوة الانتصار أيتها المريضة غرورا المنعدمة إحساسا المليئة خبثا، فعالمي النظيف لا يحتمل لوث أمثالك".

أي طعنات تحتمل أيها القلب؟! وأي عجز عن الكلام تختبره أيها اللسان؟! أي ظلم أتعرض له؟! وأي ذنب اقترفت لأعاقب بأسوأ أنواع العقاب؟! لماذا دائما تخذلني الخطوة الأخيرة بيني وبين السعادة؟! أي ترتيب اعتباطي لم يرتب له يلاحقني؟! فقط لو أمهلتني قليلا لأوضح لك أيها الحبيب الآفل، الحساس الظالم، المدمر لأجمل إحساس عشته في حياتي. لنقل عشت حبا افتراضيا، إحساسا افتراضيا، سعادة افتراضية، ولكن المؤكد أن تحطمي الآن ليس افتراضيا ولن يكون، وأعلم أن رحيلك هذه المرة

أبدي القرار!!

***

أصرّ أبي على عدم إخبار أمي بالحادث الذي تعرضت له، وأنا بدوري لم أرد إزعاجها بمثل هذا الخبر وخصوصا أن الرضوض تماثل للشفاء بشكل سريع. رفضت مقابلة عزيز مرتين عندما زارنا للاطمئنان على صحتي، ولكن في المرة الثالثة لم أستطع التهرب بسبب قدومه مع عائلته، وبموعد مسبق، ولكن جفاف التواصل بيني وبين عزيز كان واضحا للجميع بمن فيهم والدته التي بدا عليها عدم الارتياح، فاختصروا الزيارة وغادروا في وقت وجيز.

طلب أبي توضيحا لما يجري ولما يلاحظه في الفترة الأخيرة من سوء العلاقة بيني وبين عزيز، فأجبته "لا شيء مهمّ حدث، ولكن تحفظاتك على بعض سلوكه كانت في محلها بابا". كان رده عاقلا بعيدا عن تضامنه مع مشاعر ابنته الوحيدة: "يا ابنتي أنا لن أسألك عن تفاصيل الموضوع، ولكن كل ما في الموضوع هو طيش شباب، وبعد الزواج والأولاد وتحمّل المسؤولية سيزول تماما، ومن ناحية أخرى، عزيز يتفوق بمواصفاته على معظم أبناء جيله، وقد اعتبرت لك علاقة، ولا تنسي يا ابنتي أنك تجاوزت الثلاثين، والوقت لن يكون في صالحك لبدايات جديدة".

حتى أنت يا أبي، اتفقتم جميعا على إيلامي، جمعتكم المصادفة، والمصادفة نفسها جعلتني وحدي. بشكل غير مباشر، تختصرون عدد الألوان من حياتي، وأنا بشكل فاشل أحاول القبض بيدي الصغيرة على عناصر القوة، ولكنني أراها تتسرب من بين أصابع إرادتي، كما تتسرب المياه من بين عيدان سلة مصنوعة من القصب المجفف. فقدت حماسي للعمل، وفقدت قليلا من شهوتي للحياة، فقدت حب عزيز الغامر لكثرة إهمالي وتجاهلي له ولكثرة ردود أفعالي السلبية غير المبررة، وأنا لست نادمة عليه، شيء ما انطفأ في داخلي وخبا بريقه، بهجة الحياة غادرتني عندما غادرني ذلك الضائع التائه، وخوف خفي أن يرتكب حماقة ويؤذي نفسه أو يقدم على الانتحار كما هدّد مرة.

كلمتني أمي، وأحست بأنني لست في أفضل أحوالي، وطلبت إليها على حياء العودة لأني أحتاج إليها، ولأنني وحيدة، ولم أتوقع أن تنفجر باكية بحرقة وشعور بالذنب لأنها تركتني واعتذرت مرارا، وأكدت لي أنها ستعود بأسرع وقت، ومهما كلفها الأمر، فأحسست بالذنب، ولكني شعرت بتساؤل ينهش رأسي: "ماذا سيكلفها الأمر؟!".

بعودة أمي عادت إليّ الحياة مرة أخرى، وعادت

الحياة إلى المنزل، ضحكت بعد أن جفت ضحكاتي أسابيع، وأحسست بقوة تسندني من جديد، صعدت إلى غرفتي لأحضر لها روبا جديدا اشتريته لها عندما علمت بقدومها ونزلت مسرعة على الدرج، وقبل وصولي سمعت أبي يتكلم بصوت منخفض لا يخلو من عتب: "ما كان ينبغي لك أن تعودي الآن لأي سبب من الأسباب". وأجابته بمنتهى القرار: "لا شيء في الكون أهم عندي من ابنتي، وأنت تعلم ذلك جيدا".

اقتربت منهما، وقلت موجهة الكلام إلى أمي:

- أنا آسفة، دائما أحمّلك همي، ولا أجيد التصرف.

- أبعد الله الهموم عنك حبيبتي، أنت ستبقين طفلتنا المدللة حتى آخر يوم في حياتنا.

تلك الليلة، لم أستطع النوم وأنا تساءل: "ماذا يقصد أبي بقوله ما كان ينبغي لأمي أن تأتي لأي سبب، وهي تقول سآتي مهما كلفني الأمر!".

في اليوم التالي، خرجتُ أنا وأمي مساء، ولم أجد خيارا أمام إصرارها إلا إخبارها بما فعله عزيز وعن حجم كسر النفس الذي سببه لي، وكيف أني نفرت منه، وبدأت أخاف من إكمال حياتي معه، صفنت أمي مطولا، وفي النهاية قالت لي:

- اسمعيني جيدا نعمة، ما فعله عزيز لا يمكن تسميته إلا خطأ، وأنا لا أبرر الأخطاء، ولكن ما يجب أن تعلميه أن ما فعله عزيز يفعله أي رجل في أي وقت ومع أي شريكة، قبل الزواج أو بعده، بعلمك أو من دون علمك. كل الرجال ومن دون استثناء لديهم أسرار، بعضهم محظوظون يعيشون بأسرارهم لا يعلم بها مخلوق، وعندما يموتون تموت معهم، حظ عزيز العاثر أن سره انكشف على أهون سبب، عزيز يحبك وهو شاب رائع، وإقامة العلاقات مع الفتيات ترضي غروره وتثبت تميزه، وهذا ما عجزت أنت عن فعله أو بالأصح ما تمنعت عن فعله.

الرجل يعشق ضعف المرأة أمامه وبالذات أمام رجولته، ينتشي بمديحها غير المعلن له، ويركع أمام عبوديتها لربوبيته، وفي العشق والنشوة والركوع ضعف خفي تدركه فقط النساء المحترفات عاطفيا الخبيرات بعالم الرجال. أنا لا ألومك على ما أنت عليه، ولكن يجب أن تعلمي أن الحياة ليست مثالية كما تظنين، والأشخاص ليسوا ملائكة كما يبدون".

- ولكن عزيزا خانني يا أمي مع من لا تستحق.

- ههههه أنت قلتها مع من لا تستحق، ويجب ألّا تقلقي منها، وألّا تقلقي على مكانتك في نفس عزيز.

- ماما.

- هناك مقولة أحبها "الفرق بين الرجل الخائن وبين الرجل غير الخائن، أن الثاني لم يُكشف بعد". العالم مليء بالأسرار يا نانا، وأرجو أن يبقى عالمك نظيفا نقيا حتى ولو أتعبك.

- هل تعتقدين أن لأبي أسرارا مثلا؟

- هه ولأمك أيضا.

- !!!!

تساءلت بيني وبين نفسي: هل يعقل أن تحتفظ أمي بأسرار لا يعرفها أحد؟!

- وأنت أيضا لك أسرار أو سيصبح لك أسرار، وهل تعلمين أين تحفظ الأسرار؟

- ههه في بئر عميقة.

- بل في الصندوق الأسود يا نعمة، البئر غير آمنة، البئر فقط حافظة أسرار البسطاء التي تكشف مع أول جفاف.

- ...

- أعطي عزيزا فرصة تصحيح خطئه، وأعطي نفسك فرصة، واعتبري ما حدث درسا لك تتعلمين منه في هذه الحياة.

خرجت مع أمي محطمة منهارة والحزن يقتلني، وعدت فتاة قوية نشيطة راغبة في الحياة، أي تأثير تمتلكين يا أمي؟! وأي خبرة في الحياة اكتسبت؟! وجودك مصدر قوتي وحمايتي.

تساءلت: لماذا لا أعيش هذا الإحساس معك يا أبي رغم قوتك وحنانك وحبك الكبير؟

أول ما فعلته أمي هو دعوة عزيز إلى العشاء محاولة ترطيب الأجواء وإعادة المياه إلى مجاريها، وحاولت أن أعطي نفسي فرصة جديدة، لعلّي فعلا كنت جائرة في حكمي عليه.

ولكن هل يفيد الوردة الغارقة اعتذار الطوفان؟!

لا أعتقد أن ما كسر يوما يمكن إصلاحه، حتى وإن تم إصلاحه فسيبقي أثرا وندبة تذكرك بحجم الألم الذي سببه هذا الكسر، هذا إن لم يتحول إلى تشوه يمنع السعادة؛ فبعض المواقف عبارة عن نقاط تحول لا يمكن أن يشبه ما بعدها ما كان قبلها، وبعض الصفعات الضعيفة أشد ألما، لأنها أتت ممن أحببناهم وكشفنا وجوهنا لهم،

وعندها سيكون اللوم والعتب أكبر، وعدم التسامح لن يعني اسودادا في القلب، وإنما يعبّر عن لعنة خيبة غير اعتيادية!

بدأت أدرك أن الحياة فيها من القسوة وعدم العدالة ما يفطر قلوب البشر حتى المدللين فيها، الحياة لا تعرف التربيت على أكتاف المرهقين نقاء، أنت الوحيد القادر على تقبيل جراحك حتى الشفاء، وتذكر دائما أن من يستحق أن يكون دائما في حياتك هو الشخص الحريص على سعادتك، الشخص الذي يجعلك تبتسم كلما تذكرته كل يوم، الشخص الذي لم ولن يتسبب في حزن ينهك قلبك وروحك.

أعلم أن المثالية شيء ممل، ولكن المساس بالكرامة أمر قاتل، آآآآه يا أمي كم أحتاج من القوة لأخفي ما أشعر به، ومن العقل كي أستمر!

لم يرق لي يوما مفهوم التجاهل، وجاهدت كثيرا كي لا أصل إليه، ولكن مفهوم الاستمرارية أقوى؛ وأسهل الحلول وأقصرها لتحقيق الاستمرارية في معظم الأشياء هو التجاهل، نعرف الحل ولكننا نستصعب كتابته،

ونعلم أن القلب يتعب كلما عمل أكثر، ولكننا لا نستطيع نصحه بالراحة، لأن راحته من العمل تعني موته وموتنا المحكمين. لذلك توقع مزيدا من الصفعات، استعن بالقوة واحذر أن تترك وجهك مكشوفا لها!!

***

لم يمر أكثر من أسبوعين عندما فاجأني عزيز بطلبه تسريع الزواج، فهو غير قادر على الانتظار أكثر، ولا يرى ما يمنع زواجنا، وللوهلة الأولى أحسست أن هذا هو المستحيل عينه.

- عزيز، لم كل هذه العجلة، ماذا استجد؟

- لم أعد قادرا على الانتظار أكثر ولأسباب عديدة، فأنت تزيدين من قلقي وعذابي، ولم أعد أتحمل صدك المستمر ولا إحساسي الكبير بابتعادك عني كل يوم، والأهم أني أريد أن أخفف انشغال فكري بهذا الموضوع.

- لكن يا عزيز نحن اتفقنا ألّا نقيم العرس قبل قدوم أخي فيصل، وأنت تعلم أنه لن يأتي قبل شهور، بالإضافة إلى تجهيزات البيت وترتيبات العمل وتفاصيل العرس.

- كلها أسباب واهية، وكل الأشياء ستكون جاهزة كما تريدين، وحتى فيصل لن يتأثر إن أتى عدة أيام وعاود السفر.

- أنت وأهلك من أصرّ على إقامة عرس كبير يجعل الناس تتحدث فيه سنوات، ثم إنني أشعر بارتباك شديد من هذه المرحلة الانتقالية الصعبة، أرجو أن تقدر ما أشعر به يا عزيز.

شعرت باقترابه الكبير مني، فوقفت، ووقف أمامي

وجها لوجه، ووضع يده على أسفل ذقني محاولا رفع وجهي، ثم بدأ يمسح على شعري ويعيد ترتيبه. اقترب أكثر وهمس في أذني "أحبك"، وكررها عدة مرات، حتى أحسست أنه نسي المكان ونسي نفسه، ثم ضمني بقوة حتى فقدت قدرتي على الحركة، وأنفه وفمه على شعري ورقبتي يشم رائحتي بأنفاس عميقة، ويهلوس بكلمات متقطعة: "أنت لي، ولن تكوني في يوم لغيري. افهمي ما أعنيه جيدا".

لم أفهم تماما ما كان يعنيه، هل يشعر بابتعادي العاطفي عنه أم يشك في وجود شخص في حياتي؟ فهو الخبير في النساء العالم بمشاعرهن، أو ربما يعني أنه يريدني دون النساء، ولن يتخلى عني لأي سبب. في كل الأحوال، لم أستطع أن أسحب نفسي من بين أحضانه، ولولا تمنع عقلي لاستسلمت عواطفي واستجابت؛ فهي عواطف متصبرة، عواطف عمرها تجاوز الثلاثين عاما، يغريها من يحررها من قضبان حرمانها بهجوم ودي، رايته تحمل طلب الود والحب والاستجابة، وهل يشتهي المسجون خلف القضبان أكثر من رايات الخلاص؟!

كان لابتعادي عنه في هذه اللحظة إحساس ينتمي إلى عالم آخر، بالنسبة إليّ لم أختبره من قبل، ولا أعلم ما كان يشعر به في هذه اللحظة، ولكن كل ما كنت متأكدة منه

أنه شعر بضعفي، وأن هناك نظرة في عينيه تقول: "أريدك كما لم أرد امرأة في حياتي. يوما ما، سأميتك بشراهة اشتهاء".

***

عندما يخطئ أحدهم معنا خطأ كبيرا، نثور في داخلنا براكين العزة والكرامة...

نقاطع... نتوعد، نحزن، نبكي، ولا نقبل الاعتذار...

نخسر، نلام، نعيش المأساة، ولا نقبل الاعتذار...

تموت الأجزاء داخلنا قهرا، ولا نقبل الاعتذار...

نتساءل: لماذا؟ وكيف سننسى من كان سبب دموعنا...؟

نعاند، نكابر، وكأن القضية لا نقاش فيها... ولقدر ما...!! تجدنا تنازلنا عن كل ما نؤمن به، وقبلنا باعتذار لا يليق بمستوى الجرح الروحي والنفسي... لم نعد نريد شروطا... لم نعد نهتم بندب الجروح في قلوبنا... لم نعد نهتم بحجم خسارتنا، والتساؤل: أين كان بعد نظرنا منذ بداية المشكلة؟!

لماذا لم نكن أذكياء بما يكفي لندرك النتيجة ونرى شكلها بعد سنين؟!

لماذا لم نستدرك أن تغييب الكرامة لحظة سيجنبنا عذاب سنين لاحقة؟!

هذا الزمن ليس زمن الحق ولا زمن المبادئ والكرامة...

لذلك أكرر قولي: لنبتلع المرارة برضانا أفضل من بلعها رغما عن رأسنا الجميل.

***

أكمل فيصل تخصصه بمعدل عال، وبالإضافة إلى عمله في المستشفى مع خالي، افتتح عيادته الخاصة المختصة بالأمراض السرطانية وعلاجها في إحدى المناطق الراقية التابعة لمدينة ليون نفسها. كانت فرحة كبيرة لعائلتنا وأصدقائنا، فما زالت شهادة الطبيب هي الأكثر قيمة وافتخارا في مجتمعاتنا العربية، أما أنا فقد صدر قرار تعييني مديرة فرع الشركة رسميا، واستلم عزيز نائب مدير مجلس إدارة الشركات تمهيدا لاستلام إدارتها بعد عمر طويل لعمي، وبدأ بالإشراف على أكبر فرع للشركة الذي تم افتتاحه في دبي حديثا، وتم تحديد موعد العرس في بداية الصيف، ولكن موعد كتب الكتاب سيكون في نهاية الشهر، وهكذا بدأت التجهيزات والتحضيرات.

***

من الأشياء التي لا يتخلى عنها عمي أبو عبد العزيز

هي عادة الخروج للتخييم في نهاية الشتاء وبداية الربيع للاستجمام والترفيه والتنزه، ودعا عائلتي لقضاء يوم في الخيمة المصممة بمستوى خمسة نجوم للاستمتاع بالهواء النقي النظيف والسهر على ضوء القمر والنجوم، وبالنسبة إليّ لم أستمتع يوما بجو الصحراء، وأشعر بالخوف منه على عكس عزيز المغرم بالتخييم وخصوصا صيد الطيور المهاجرة، فاعتذرت عن مرافقتهم وفضّلت البقاء في البيت.

لم تحلُ الأوقات لعمي من دوني أو ربما لشعورهم أني وحدي لأن شيري وراجو ذهبا معهم لمساعدتهم على قضاء بعض الأعمال هناك، فاقترح على عزيز الاتصال بي ودعوتي إلى العشاء حتى يحين موعد رجوع أبي وأمي، فهما لن يناما خارج المنزل، ولن يتأخرا بعد الحادية عشرة، ولم يعر عزيز اهتماما لاعتذاري، بل أعطى الموبايل لأبي ليقول لي: "نعومة حبيبتي، سيمر عزيز بعد ساعة لاصطحابك، وسينتظرك في السيارة على باب المنزل، حاولي أن تكوني جاهزة، وفي طريق عودتنا سنمر لإحضارك معنا من المطعم إلى البيت".

لم يبقَ لي خيار إلا القبول، ولم لا؟! فالجو جميل، وأنا أشعر بالملل، وبدأت بتجهيز نفسي، فاخترت فستانا جديدا بلون الزهر، وربطت شعري ذيل حصان كما يفضله عزيز، وأكملت مكياجي، وكل ما يلزم لإكمال الأناقة، وجلست

أنتظر، ولكن عزيزا تأخر. مر ربع ساعة بعد الساعة، ثم نصف ساعة ولم يأتِ، اتصلت به، فقال إنه في الطريق، وإنه سيتصل بي عند وصوله، وبعد نصف ساعة أخرى وإذا بدقات خفيفة على باب الصالة، فنظرت من العين الساحرة وإذا به عزيز، فتحت الباب شقا صغيرا، وسألته:

- لماذا صعدت يا عزيز، وأنت تعلم أني وحدي في المنزل؟

- وما الفرق؟ هل أنت جاهزة؟

- نعم جاهزة، سأحضر محفظتي من غرفتي.

تركته واقفا على الباب، وصعدت لإحضار محفظتي، وقبل أن أخرج، وجدت عزيزا قد دخل غرفتي وملامحه لا تبشر بالخير، كدت أنهار من شدة الخوف الذي أحسست به، فصرخت به: "ما الذي أتى بك إلى هنا عزيز، كيف تجرؤ؟".

بدا وكأنه لم يسمع شيئا، ولا يريد أن يسمع شيئا، فاقترب مني، وبلا أي مقدمات كنت بين أحضانه، أصارع وحشا مخمورا لا يفيد معه الكلام ولا الترجي، وكل ما فهمت من كلامه هو كم أنا مثيرة وكم هو عاجز عن مقاومة رغبته في ممارسة الحب معي ولا يستطيع الانتظار أكثر، وباءت كل توسلاتي له بالابتعاد عني والتوقف عن

هذا الجنون بالفشل، حتى الفستان الذي ارتديته لأجله مزقه عندما حاولت الهرب، ونزلت من غرفتي نصف عارية يلاحقني كوحش فاقد صوابه، فعلمت أن لا مفر لي منه، وأنه سينال ما يريد، وأنا أشعر بقرف ونفور، وكأنه رجل غريب كريه لا أعرفه.

بعد كل هذه المقاومة، وجدت نفسي خائرة القوى منهارة الجسد، وهو يزداد إصرارا وتعبيرا عن حبه ورغبته، وتأكدت أنه لن يتوقف قبل تحقيق هدفه، رغم بكائي وتوسلي، وعلمت أني وصلت إلى نهاية محتومة، وأن لا شيء سينقذني رغم سماعي صوت جرس الباب المتكرر.

ما هي إلا دقائق حتى سمعت صوتا أعرفه جيدا: "ابتعد عنها أيها الحقير، وإلا هشمت رأسك يا عرّة الرجال".

***

أي قدر وقف إلى جانبي في اللحظة الأخيرة، وأي فرصة نجاة منحني إياها وأنا على حافة هاوية؟! لقد نسي أن يغلق الباب الرئيسي بعد دخوله، ووصلت عمتي في الوقت المناسب، فقد علمت منذ الصباح أنني لن أذهب للتخييم، وكان أبي قد أخبرها أنني وحدي في البيت، ونسي أن يخبرها أنني سأخرج في المساء، فحضرت للجلوس معي والاطمئنان عليّ، وكان مجيئها هدية من الله لن أنساها ما حييت.

بقيت معي إلى حين عودة أبي وأمي اللذين أخبرتهما أنني لم أخرج للعشاء، ولكنها لم تخبرهما بالكارثة التي حصلت، ولدى وصولهما ورؤيتهما حالة الانهيار التي أعيشها كاد أن يجن جنونهما، ولم أستطع إخبارهما بما جرى، ولكن عمتي أخبرتهما، وكانت أسوأ ليلة تمر علينا في التاريخ.

في الصباح كان أبي في أسوأ حال رأيته فيها، ولم تكن أمي أفضل حالا منه. قلت لأبي بعد أن اطمأن عليّ:

"أنا آسفة أبي، أعلم أن العم أبو عبد العزيز من أعز أصدقائك، ولكني لم أعد أريد عزيزا ولا أريد رؤية وجهه".

انتهى الموضوع، ورفضت اعتذارات عزيز وتبريراته أنه لم يكن واعيا نتيجة شربه كثيرا من الكحول، ورفض أبي هذا الاعتذار الأقبح من ذنب، ولكنه استجاب لطلب العم أبو عزيز أن أبقى في الشركة على الأقل إلى حين إنهاء الأعمال التي لا يستطيع غيري القيام بها، خاصة أن عزيزا سيسافر إلى دبي لمدة شهرين متواصلين لا يعود خلالهما إلى الكويت، فأكون اتخذت قراري هل أبقى في الشركة أم أغادر.

لم أتوقع أن يكون تأثير الموضوع على أمي إلى هذه الدرجة، فقد ساءت نفسيتها وصحتها بعده، وقالت لي

مرة: "الجمال عند المرأة نعمة ونقمة، وقدر المرأة الجميلة أن تحتفظ بأسرار في صندوقها الأسود، أما الرجل المغرور فلا بد لغروره أن يقوده إلى حماقات لا تحمد عقباها. وتذكري أن أخطر ثنائية يمكن أن تلتقي هي الرجل المغرور والمرأة الجميلة!".

***

بعد أقل من شهرين، تركت عملي في الشركة، وقررت أن آخذ إجازة طويلة للاستجمام والراحة وخصوصا أن فيصل قادم للمرة الأولى إلى الكويت.

كثيرا ما تخيب آمالنا وتنهزم أمام صفعات الواقع المؤلمة، تتحطم أحلامنا، تنهار طموحاتنا، وتجف مياه الحياة في أرواحنا، يحكمنا المكان والزمان، وربما تحكمنا الخيبة.

تسلب إرادتنا، وينال منا العجز روحيا، وعاطفيا، وفكريا، ويصبح الانتصار صعبا.

تصبح سنوات العمر عبئا، وندفع فاتورة الإحساس المفرط بأعلى الأرقام، ولكن هل يصبح العمر سبية لقسوة الظروف؟ وهل يصبح الانهزام نهاية لعرض لا نعلم متى تسدل ستارته؟ وكيف لنا أن نعبر إلى الضفة الأخرى الأكثر اخضرارا...؟

لنزرع أملا جديدا، وحلما سعيدا، فتبقى الحياة، ويبقى

الأمل...!

***

تزوج فيصل بصديقته وهي الآن حامل، لذلك وصل إلى الكويت وحده، لم يحب فيصل يوما الحياة في الكويت، ولم يبدِ رغبة في التعرف إلى أقاربه، وكان تواصله يقتصر على عمتي وعلى بدر وعائلة عمي عبد الله التي يحبها بجنون. شعر بالأسف لما حصل معي، ولكنه أكد لي أن الموضوع لا يتجاوز تجربة صغيرة من سلسلة التجارب الكثيرة في الحياة، وشجعني على إكمال الدكتوراه لملء وقتي، وتحقيق مرتبة اجتماعية حقيقية، وقال إن الزواج يحدث فقط عندما يحين وقته، ومع الشخص المناسب لي وليس الشخص المناسب للأهل والمجتمع، وأمضينا شهرا رائعا، تحسنت فيه نفسيتي، وكان مهتما جدا بصحة أمي ومتابعة نظامها الغذائي والرياضي، وأوصى أبي دائما بمراقبتها، وعندما سألته عن سبب الوصايا السبع الملحّة، أجابني مازحا بيني وبينه: "أريد لأمنا أن تبقى شابة جميلة بصحة جيدة، لأن والدنا مازال شابا، والرجال عواطفهم أمّارة بالسوء".

مرت سنة كاملة، قضيت نصفها الأخير في فرنسا. أعشق الأيام بعيش تفاصيل صغيرة مع رام ابن فيصل الملائكي، هذه الطفولة البريئة التي استفزت في داخلي

مشاعر أمومة دافئة ورغبة خفية في أن أصبح أمّا وأن أمتلك مثل هذا الكائن في حياتي.

عدت إلى الكويت مشحونة بطاقة كبيرة للحياة والعمل، ودائما ما تكون البدايات قوية وحماسية، فبدأت بتقوية علاقاتي مع بعض المعارف، وأصبح لي دور فعّال في الجمعيات الخيرية التي تشارك فيها أمي وتدير إحداها، وبدأت بمراسلة شركات كبيرة للحصول على وظيفة لائقة، فقد اكتسبت خبرة في العمل، ولن أتسبب في إحراج من شكل آخر قد يحدث لوالدي.

أكثر من ينتظر عودتي هو بدر، هذا الإنسان الرائع الطيب الذي وقف إلى جانبي في أسوأ ظروفي، والذي كتم حبه الكبير لي لشدة كرهه للمشاكل والقلق والتوتر، ولأنه يتمنى لي الخير والسعادة أكثر مما يتمناهما لنفسه. ولغرابة الأحداث، فقد فتحت عمتي موضوع بدر معي، وقالت: "لولا حلاوة القلب لكنت أقول إنني أحبك مثلما أحب بناتي وأكثر، وكنت أتمنى أن يتزوج بدر ابنتي ملاك لأنها غارقة في حبه منذ الصغر، ولكن من لا يرَ من الغربال فالأعمى أفضل منه، بدر لا يحبها ولا يريدها زوجة، بدر يحبك أنت، وأنا لن أختار لابنتي تعاسة مضمونة، أصلا بدر لن يتزوج أبدا ما لم يتزوجك، وأنت تستحقين رجلا يتسم بالأخلاق والطيبة والنبل مثل بدر،

وأنا متأكدة أنك ستحبينه مع الأيام وتغرمين به، لأن شكل الحب بعد الزواج يختلف عنه قبله، أعطي نفسك فرصة وأعطي بدر فرصة لأنه فعلا يستحقها".

أنا أثق بعمتي كثيرا، ومواقفها تشهد بحرصها علينا ومحبتها الكبيرة لنا، وأنا مدينة لها بإنقاذ روحي من التلف وحفظها سر حياتي، فوعدتها أني سأفكر جديا في الموضوع وفي القبول أيضا.

لا أبالغ إن قلت إنني رأيت عيني بدر تضحكان وقلبه يرفرف فرحا عندما أخبرته بموافقتي. وفي هذه المرة، لم يتردد وأتى إلينا وتحدث مع أبي، وقال له: "إنني أعتبرك في مقام أبي، وأعلم أنك لن تلومني لقدومي وحدي، فلن أعيد شرح الظروف، ولكن ما جعلني قويا ومصمما هذه المرة هو إحساسي بوقوف نعمة في صفي. إنني أتعهد لك أن أرهن حياتي لإسعادها وصونها، أنا لم أعتد الخروج عن رأي أبي أو عقوقه لا قدّر الله، ولكنني أرى في ارتباطي بنعمة فرصة لإعادة العلاقات ونسيان الماضي، ولعلها خيرة بكل ما تحمل الكلمة من معنى".

حتى عمي كان ليّنا في جوابه عندما تحدث معه أبي، وحددا يوم الخميس موعدا للخطوبة وقراءة الفاتحة على نية نسيان الماضي.

لكن من عرقل تمام الموضوع هذه المرة كانت زوجة

عمي أم بدر، التي هددت بترك المنزل إذا تمت الخطبة؛ لأنها وبكل بساطة تريد ابنة أختها زوجة لولدها ومنذ صغرهما، ولأسباب أخرى علمتها فيما بعد، وهي أن أبي قد خطب أختها الثانية في يوم من الأيام، وبحسب ادعائها هو من كسر قلبها إلى الأبد وحرمها فرصة الزواج.

لا أريد أن أستسلم لإحساس أن كل شيء ضدي، ربما لم أنل ما كنت أريد لأنني لم أرده بقوة، وهذا حكم النصف!!!

كل ما حصل كنت أريده بنصف شغف فقط، وهذا النصف ليس كافيا أو على الأقل النصف الثاني الخالي من الشغف سيقلل أسفي.

لو أردت البقاء في الشركة لبقيت، ولو أردت الإكمال مع عزيز لأكملت، ولو أردت بدرا لجاءني حافيا عاشقا متيما، وهذا يعني نظريّا أن كل الأشياء معي وليست ضدي، لم كل هذا الضجر وعدم الرضا؟! وما الذي أريده، ما الذي أريده؟!!

***

تجلى الجواب واضحا، أريده معي! هذا ما استطعت لملمته من شتات فكري؛ لا أريده أن يخرج من حياتي، وفي الوقت نفسه لا أقدر أن أكون في حياته حقيقة، وهو

بدوره لا يريدني في حياته وهما مختبئا في جهاز!

أريد لنفسي أن تشعر أنني وحدة كاملة، ولست أنصافا وأجزاء، أريد تجميع ذاتي، أريد أن أكون أنا كاملة ولست كويتية سورية كندية، مسلمة مسيحية، غربية شرقية، متحررة أصولية، افتراضية واقعية، صادقة كاذبة، أكاد أقتل بالأنصاف، أشعر أني مرهقة ومبعثرة وأحتاج إلى من يرتبني، فلا أظنني قادرة على التخلص مما يعيق إعادة ترتيبي.

فتحت الإيميل لأرى ردود الشركات، وكانت العشرات من الإيميلات الجديدة وعدة مواعيد لمقابلات العمل، وكان من بين الإيميلات إيميل نجول بلا موضوع، من عنوان جديد مختصر ببضعة حروف ورقمين، ولم يكن من عادتي إهمال أي مراسلات...

"حبيبتي أمل،

لم أعلم أن حياتي ستفقد كل طعم ولون من غير وجودك فيها، أعلم أن كلماتي الأخيرة كانت قاسية، ولكن صدقيني لم تكن أقسى من خيبة أملي بلقائك، أرسلتها بحرقة قلب لأنتقم من استهتارك واستهزائك بحبه ولهفته، ولكنه مع الزمن عاقبني على فعلتي لأنه أحبك أكثر مما أحب نفسه، وما زال مستمرا في عقابي.

أخبرك أنني حصلت على الدكتوراه بمرتبة الشرف، أخبرك لأني أعرف كم كنت مهتمة ومتحمسة للموضوع وتتمنين تحقيقه. في لحظة إعلان اسمي وتكريمي وتسليمي الشهادة، لم أر أحدا معي سواك، وما تمنيت أن يشاركني أحد فرحتي غيرك، كنت أراك بين الحضور تجولة مبتسمة ودموع الفرح تملأ عينيك الجميلتين، وأنا لم أهدِ نجاحي إلى أحد سواك وما تقاسمت الفرح مع أحد غيرك، وما زلت أحلم بيوم يجمعنا، وكلي إحساس أن هذه هي أمنيتك أيضا وأنتظر منك ردا رحيما يا أحلى عذاباتي..

العاشق المحكوم أبدا بحبك..

سعد".

أيّ توقيت تختار يا سعد؟! لماذا تصل دائما في الوقت المناسب؟! هل أنت القادم من المجهول لترتب لي بعثرتي أم إنك عدت لإفشال خطة ترتيبها التي نويت تنفيذها؟!

"أعلم أنك تنقصني وأعلم أني أكتمل بك، وأعلم أنك تعلم! ولكن بعض العلم ألم، سأرفض رجوعك رفضا يعادل حجم خيبتي التي كنت سببا خفيا فيها، وسأقول "لا" تفوق كل الـ "نعم" التي أشتهي قولها وتحلم بسماعها. أحتاج إليك، ولكن حاجتي إليك لم تهزم وجعا سببته كلماتك في يوم كنت أراه يوم ميلادي الجديد، وجع كلماتك هوّن عليّ وجع أضلعي المهشمة التي لم تمنع تسرب حزن

فاض من جرح قلبي وكنت أنت جارحه، مقود السيارة آذى أضلعي قبل لقائك ببسمتين ولهفة، ولكن سمّ لسانك أخرس لسان ألمي بخيبتين وحظر.

أنا غير مسامحة بحق روحي الذي سحق تحت أقدام ظنك، وقلبي سأقسو عليه بالحرمان، وأدعو ربي أن يسامحني إن تماديت في تحليل ما حرّمه، وأملي أن ندمي شفيعي، أما أنت فسأحاول ألّا أفكر في أنك كنت موجودا بحياتي أو ستكون يوما".

كان هذا ردي، رغم اشتياقي ورغم احتضاري لمحادثته، ولكن شيئا في داخلي دفعني إلى استعادة ماء وجه كرامتي الذي أهرقه بين طيات ظنونه وسمّ كلماته.

لم يمض وقت طويل حتى أتاني رده: "لن أكرر خطئي مرتين، فقد تعلمت الرويّة في قراري وكلامي، لقد أزلت حظرك، وسأنتظرك كل يوم، واعلمي أن أبوابي ستبقى مفتوحة لك إلى آخر عمري".

***

بدأت عملي في إحدى كبرى شركات البرمجة والحواسيب، وكانت بداية قوية وناجحة، وجعلت شعاري:

"إن لم يكن ما تريد... فأرد ما يكون! وارحم قلبك وروحك وعقلك... وابحث عن السكينة وراحة البال،

وإن لم تجدها، فاختلقها، فمن المؤسف أن تموت قبل الأوان!"

بدأت أشعر باستقلال شخصيتي، ووضوح أهدافي، حالة فطام أخرى أعيشها ولكني أكثر تحمّلا، ليس لأنها أقل قسوة ولكن لأنها ليست المرة الأولى.

بدأت أرى الحياة والأشياء بمنظور مختلف ومن زوايا مختلفة، أصبحت أكثر واقعية وأكثر اندماجا مع غرابة تفاصيلها، بدأت أستلذ شعور الكيان المستقل، واعتزلت التحليق في سماوات الخيال، أحسست بقدميّ تقفان على أرض صلبة، وأنني أشغل حيزا لا بأس به يخصني وحدي في أرض الله الواسعة، وبدأت أدرك ومن دون مقارنات كم أمتلك من عناصر القوة التي ستساعدني على بداية ثابتة ناجحة، وأدرك أن الفراغ العاطفي والوقتي الذي توفر لي لا بد أن يمتلئ بما هو أفضل، وكان قراري بإكمال الدكتوراه، الذي تلته أهم الأحداث في حياتي.

خلال السنة الأولى في عملي، اكتسبت كثيرا من هذه الحياة، أصدقاء، معارف، خبرة عمل، مال... ولكن ما رفضت اكتسابه هو أي علاقة عاطفية مع أي شخص مهما بلغت مواصفاته، فما زالت نفسي غير راغبة في أية حالة ارتباط.

ولعل أكثر ما كان يولّد حالة الرضا عندي هو مشاركة

أمي في أعمالها الخيرية المخصصة لأطفال سورية المنكوبين البريئين من أي جرم ارتكبه أرباب عائلاتهم، وجعلوهم يدفعون الثمن ويدينون للحياة والأشخاص بالنفس الذي يدخل قصباتهم، وبلقمة غلفتها المهانات والدموع. أصبحت أمي أيقونة السخاء الخيري، ولم نتوقف عن خلق الفرص والمناسبات التي تزيد من العلاقات والمساعدات، ونالت شعبية مميزة واحتراما وتقديرا ليس فقط من وسطها بل حتى من أعلى المستويات، وكنت أتفاجأ بقدرتها على التأثير والإقناع، وأتساءل: كيف لشخص واحد أن يساعد آلاف الأشخاص ويغير حياتهم ونظرة عقولهم إلى عالم بات في نظرهم جحيما لا خلاص منه؟! وتيقنت أن إيمانها العميق بهدفها وصدق نواياها جعلا منها هذا الكيان المحترم والمحبوب في كلا البلدين.

كانت تغريداتها تلقى إعجابا منقطع النظير، خصوصا تلك التغريدة التي جاءت ردا على فئة لها موقف لا يخلو من التلميح وقلة الخير رغم فيضانه حولهم:

"طيبة القلب ليست عيبا، كما يعتقد البعض... الإنسانية والذوق لا يتعارضان مع المناصب والجمال والثقافة.. مساعدة الآخرين لا تنتقص من حجمنا... الالتفات لمن تعثّر في درب الحياة لن يؤخرنا عن وجهتنا... القوة لا تتعارض أبدا مع الطيبة... لا تكتفِ بالنظر فقط إلى

نفسك، بإمكانك النظر والإحساس بمن هم حولك! فقد يأتيك الفرح فقط لأنك تمنيته لغيرك".

ألحقتها أنا بتغريدة تحمل رسالة واضحة ومباشرة لطابور خامس حاول التشكيك بمن عمل الخير وأكثر: "لم تكن أنجلينا جولي بحاجة إلى شهرة أو احتلال مكانة مميزة في قلوب الناس عندما خاطرت بحياتها لزيارة المخيمات واللاجئين... لم تتبرع بعشرات الملايين من الدولارات للأطفال والمنكوبين وأهالي الضحايا والمشاريع الطبية تطبيقا لركن الإسلام في زكاة الأموال، لم تحرم من الأطفال لتتبنى الأطفال الملونين بالأسود والأصفر، لم تنتحر لأن إحدى الفنانات قالت: "أنا قلقة جدا من التربية التي سيتلقاها موسى بين أيدٍ وأحضان غير مسلمة!!"، لم تترب بين أيدٍ وأحضان مسلمة... ولكن الإسلام وتعاليمه تجسدا في فكرها وقلبها وأفعالها الخيرة، ديانتنا الإنسانية... طائفتنا المحبة... ومذهبنا العقل. وهذا ما تفتقده نسبة كبيرة من خير أمّة هذه الأيام!".

لقد جعلتني أمي أحذو حذوها في هذا المجال الذي أحبته، وآمنت به إيمانا لا يقل عما آمنت به وعملت لأجله، وكان أبي لا يدّخر جهدا ولا مالا ولا دعما، بل يسخّر كل شيء لإنجاح وإتمام أعمالها مع توقيع كامل بالرضا والامتنان لكل ما تقوم به. مطلب وحيد منها كان

برفض قبوله وبإصرار، وهو سفرها إلى سورية وحماسها لملاقاة الأطفال ومشاركتهم في حزن يتمهم من جهة، وإدخال الفرح إلى قلوبهم من جهة أخرى، فقد كان أبي يحبها كثيرا ويخاف عليها أكثر.

لعل سطوع نجم أمي في عالم الأعمال الخيرية ومكانتها المرموقة في المجتمع كان مبعثا للرضا والثقة بأن الخير ما زال موجودا، ولكنه من دون أدنى شك لم يكن شفيعا كافيا لرحمة قلبها من عذاب لم نتوقع أن تذوقه يوما. كان الخبر الصاعق الذي لم تقم لأمي قائمة بعده، الخبر الذي أخمد كل بريق في عالمها، ولفّنا جميعا بعباءة حزن لم نكن لنتوقعها يوما.

يبدو أن كل أعمال أمي الخيرة وجبرها الخواطر وكفالتها يتامى الحياة لم تجنبها حدّ ساطور ظالم - قبل أن يمر على رقبة عمرها - كان قد مر على رقبة والدها وابنة ابن أخيه البالغة من العمر سبع سنوات وأخيها الذي لم يتجاوز الخامسة، فقد كان جدي في زيارة لهم في بيت العائلة القديم على أطراف البلدة عندما هاجمهم بعض الأشخاص المسلحين الملثمين، وقاموا بذبحهم بوحشية، مغتنمين فرصة ذهاب والديهم مبكرا لتوزيع بعض المساعدات على بعض الأسر المنكوبة جرّاء الحرب المستمرة، حيث إن هذا المنزل كان مركزا لتوزيع المساعدات القادمة من الخارج،

وكان قريبنا يقوم بهذه المهمة بمساعدة بعض الأشخاص.

لم تتحمل أمي فظاعة الخبر، فنقلت إلى المستشفى في حالة انهيار كامل، وأصبحنا جميعا في حالة يرثى لها بمن فينا فيصل الذي وصل بعد يوم واحد من إعلامه بالخبر وبحالة أمي المأساوية.

هل تبلغ جرائم الحرب هذا المستوى؟!

هل يتخلى أبناء آدم عن إنسانيتهم وبشريتهم ويتفوقون على الوحوش في أفعالهم؟!

هل تجعل الحروب دماء الأبرياء رخيصة إلى درجة الاستباحة؟!

هل تموت الحقيقة والعدالة وتضيع الحقوق في فوضى تصفية الثارات؟!

ترتكب جريمة بكل هذا القبح، ولا يعرف الجاني؟!

نستسلم للتأويلات والتوقعات وضبابية الحقائق؟!

تفيد التقارير بأن الكهل والطفل قد جز عنقاهما بآلات حادة تشبه السواطير، وبأن الطفلة اغتصبت حتى الموت من قبل ثلاثة وحوش بشرية غير آدمية!

أي جريمة ترتعد لها الأوصال وتقشعر لمسمعها الأبدان؟!

وأي ظلم نتلقاه أرواحهم بفرار من ارتكبوا الجريمة؟!

لم يعلم أحد من هم المجرمون ولا سبب الجريمة، من هم؟ مسلحون أجانب مكلفون! أقارب يرغبون في الانتقام! مندسون غايتهم بث الذعر والفتنة! خونة يريدون إيقاف المساعدات! متطرفون دينيا جاءتهم فرصة الانتقام! مرضى نفسيون أنهضتهم الحرب! مأجورون هدفهم قتل الإنسانية! متعطشون للدماء روتهم فوضى الحرب الأهلية والعسكرية والسياسية!

أي حال وصلت إليه يا بلد الحضارات وصفحات التاريخ الناصعة؟! وأي سحق تحت أقدام الفاجرين تنال يا ياسمين الشام ونارنجها؟! أية أبجدية أوغاريتية ستسطر ما يحدث في تاريخ البشرية؟! أهكذا تهان قلاع حلب وحمص ويهتز معبد زنوبيا بين آثار تدمر، ويغرق أورليان قاهر الشرق بنشوة النصر وهو راقد في قبره؟!

أي حزن سيحتمل قلبك يا أمي؟ وأي تفسير سيستطيع عقلك حمله؟ كنت سورية بكل نبضة من نبضات قلبك، ولكنك وزعت حبا أسعد كل بلد عشت فيه، كنت سورية مازجت عروبتها بخلاصة الشرق والغرب، لم تعترفي يوما بتقسيمات وعنصريات، وآمنت أن كل الشعوب إخوة في الإنسانية، ماذا يمكن أن أفعل لأجلك؟ هل يكفي أن أصلي لك بصلوات كل الأديان، وأستنجد بضحكات أطفال مقهورين كنت سببا في فرحهم

الشحيح؟ وهل يكفي أن أبكي باقي عمري نذرا لعودتك إلى الحياة من جديد؟ لا أعتقد أن الله سيتخلى عنك في أشد محنة تتعرضين لها، فلا أظن أنك ارتكبت ذنبا يوما ما تحاسبين عليه اليوم، أتوسل إلى الله الرحيم أن يخرجك مما أنت فيه، ويمنّ عليك بالصبر وشدة الإيمان.

بعد أسابيع تجاوزت أمي الخطر الصحي الناجم عن الصدمة، ولكنها مع مرور الوقت تحولت إلى امرأة أكاد لا أعرفها، لقد تراجعت صحتها بشكل لا يصدق، ونفسيتها من سيئ إلى أسوأ، إلى أن حان وقت لم يكن ليؤسفني شيء في حياتي مثل حلوله.

جلس معي أبي وأخي، وقررا إخباري بما كانا يخبئانه منذ سنوات، وعلمت أن أمي مريضة بسرطان الرحم، وكانت تذهب إلى فرنسا لتلقي الجرعات الوقائية بالإضافة إلى متابعة حالتها من قبل طبيبها في الكويت، وكانت حالتها مستقرة وغير خطيرة، أما الآن وبعد تلقيها هذه الصدمة، فقد ساءت حالتها بشكل كبير وربما ستصبح أسوأ إذا لم تتحسن حالتها النفسية. يا إلهي، أي قدر يحمل لي كل هذه المفاجآت؟! كيف كانت تسير كل هذه الأمور وأنا لا علم لي ولا خبر؟ يا إلهي، ساعدني على تحمل كل ما يحدث لي ولغيري؟ يا ربي، أعنّي على ما أشعر به من انهزام ليس لأجلي ولكن لأجل مساعدة أمي،

ولأجل أن أستطيع الاستمرار في طريق حياتي الذي بدأ يمتلئ بالحفر والمطبات.

***

الحياة كلها قسوة، الحياة غير عادلة، الحياة لا تعرف الطبطبة حتى مع المدللين فيها، بدأت أكره نفسي، وأكره الظروف، وأكره معارضة القدر لسعادتي، أتساءل: لماذا تحدث كل هذه العقبات؟ كيف أكون أكثر الفتيات تميزا وأتعسهن حظا، أحسن الناس ظروفا وأسوأهن نتيجة؟ وبدأت أشعر أن السعادة العارمة التي شعرت بها خلال السنة الأولى من وجودي في الكويت، بدأت تختفي بين غيوم الأحداث الداكنة، وأن السعادة الكاملة للنساء أمر مرهون بتعطّف الزمن وبما خطّته لهن أقدارهن.

سافر فيصل وتركني أتقاسم مع أبي مسؤولية صحة أمي وراحتها النفسية، ولم أدخر ثانية واحدة لإسعادها والتخفيف عنها وملازمتها في علاجها وكل حاجاتها، وكنت أراقب وجهها في كل يوم وتخنقني عبرات الأسف.

كيف لوجه بهذا الجمال أن يذبل بهذا اللؤم؟

كيف لشعر انسيابي يباهي الحرير جمالا أن يتناثر خصلا عجزت عن سحبها رياح الخريف؟ كيف لتفاح الخدود أن

يتحول إلى لوحة منطفئة في بيت مهجور؟ وجه هجرته حيوية البسمات ونغمات الضحكات الآسرة، وتركته حقلا خريفيا كسته صفرة الآلام...

عينان غائرتان في تجاويف الأقدار، ونضارة جفت تحت أشعة شمس مخبرية، ماذا لو كنتم على دراية بجمال وجه أمي؟ وماذا لو رأيتم زواله على يد سرطان تمكن من افتراسها مستغلا ضعف روحها المشبعة حزنا على قضية اغتيال الإنسانية في قلب من كان قلبه مسكنها؟

إنها أمي التي تحملت وأطاعت وربت، ولم تبادل حتى خصوم سعادتها إلا المحبة والطيبة والتسامح. يا إلهي، ساعدني أن أحتمل رؤيتها تودع أيامها المتبقية على كثرتها أو قلّتها يوما بعد يوم، ساعدني كي أتحمل نظرة عينيها لكل جزء في جسدي ووجهي، وهي مدركة أنها تراها المرات الأخيرة حتى ولو كثر عددها... يا رب ساعدها وساعدني كي أتحمل المرة الأولى التي لم ترغب في أخذي معها ومرافقتها، المرة الأولى التي ستتخلى عن مسك يدي لأبقى بجانبها، والمرات الأخيرة التي سأسمعها تردد: "هل نامت عيناك الجميلتان جيدا؟".

يكاد شعوري يهزمني أمامها وتفضحني العبرات، وهي بذكائها الذي لم يمته المرض كما فعل بغيره من صفاتها، تدرك شعوري ومشاهدي التمثيلية الفاشلة، وأقسم إنها

حزينة من أجلي أكثر من حزنها على نفسها.

مرت شهور كثيرة على هذه الحال، ومرة بينما كنت أحكي لها من باب الدعابة أنني أحببت شخصا على الإنترنت كما يفعل المراهقون، أجابتني بكل احترام لشعوري الغريب:

"أصغي لما يقوله قلبك، فالقلب حنون والعقل قاس، العقل يوجهنا نحو المثالية، ولكن القلب يخلق لنا السعادة، كوني سعيدة، ولا تكوني مثالية، فالحياة تعاش مرة واحدة، يا ابنتي المرأة يكملها قلبها وليس عقلها. عيشي لأجل نفسك قبل أن تعيشي لأجل الآخرين، والذي جعلك تشعرين بحبه عن بعد هو الأقرب إلى روحك. غياب الجسد يجعل الحب أسمى، فتمسكي بمن أحب روحك قبل أن يحب جسدك، أنت لم تكوني مراهقة وإنما كنت روحانية في إحساسك ومجردة من قيودك، وهذا ما ترغبين فيه داخليا".

ذكية وأنت في أصعب حالاتك، مؤثرة وأنت في قمة ضعفك، تتركين لي وصية وأنت على قيد نفس، ما زال الوقت مبكرا لنخسرك وتخسرك الحياة يا أمي الحبيبة.

قبل عيد ميلادها بأسبوع واحد، طلبت إلى أبي أن يتصل بفيصل ويبلغه رغبتها في حضوره عيد ميلادها، وكانت ألطف من أن تضيف "الأخير".

سحبتني من يدي، وبهدوء كامل قالت: لن أوصيك على نفسك يا قطعة من قلبي مغلفة بشرائط روحي، أوصيك أن تبقي بارّة بأبيك مهما تكن الظروف، وألّا تسمحي لشيء بالتأثير في علاقتك بفيصل، فهو سندك الحقيقي في هذه الحياة، وابقي على تواصل مع خالتك، فربما ستقول لك شيئا مهما في يوم من الأيام... وعمك عبد الله خير كاتم للأسرار. لم أكن أتوقع أن أغادرك مبكرة إلى هذا الحد، ولكنها إرادة الله وخطة القدر المكتوبة، ولا بد من تنفيذها عاجلا أو آجلا، وأنا أعلم أن المعجزة لن تحدث، وأن الأمر واقع، وأن الرب وهبني سنوات إضافية تزيد على ما توقعه الأطباء، وأنا راضية بما قدر لي. كوني طيبة في حياتك ومع الآخرين، كوني محبة متسامحة مترفعة عن كل استفزاز، وإياك أن تفقدي شغفك بالحياة بعدي، هذه وصية لن أسامحك إن أهملت أي جزء منها. عديني أن تجعلي نجاحك يؤثر في العالم من حولك، ولا تدعي العالم المحيط بك يؤثر في نجاحك، عديني أن تتركي بصمة مميزة في الحياة، فحياتك ستكون طويلة إذ طالما دعوت الله أن يأخذ من عمري ويعطيك، وأنا الآن سأغادر الحياة بنصف عمر، لعل النصف الثاني يضاف إلى رصيدك باستجابة من الله لدعواتي...

سامحيني يا ابنتي لأني سأحمّلك مفتاح أسراري، فإن

وجدته يوما فأبقي الصندوق مقفلا، ولا تخبري أحدا بما في داخله، وأطلب إليك وعدا بهذا، فهل ستفين بالوعد؟".

- لا تقولي هذا الكلام يا أمي أرجوك، ستتعافين بإذن الله ونعيش معا ونك...

- نعمة، لم يعد لديّ كثير من الوقت، أريد منك وعدا الآن. وأقسمي أن تنجزي الوعد.

- ...

- عدي وأقسمي يا نعمتي.

- أعدك يا كل عمري، وأقسم يا أغلى من في وجودي.

بعد ثلاثة أيام، حضر فيصل وزوجته وابنهما رام، وكانت أمي رغم آلامها وعدم قدرتها على الحركة سعيدة وكأن كل أمنياتها قد تحققت. يوم ميلادها، جهز أبي البيت وحوله إلى صالة أفراح بزينته وتحضيراته، ودعا كل المقربين المحبين المخلصين، وزيّن قالب الكاتو متعدد الطبقات بصور تضم لحظات لا تنسى عاشها مع أمي، وكأنها ملك له وحده، وكانت بخور العود وعطورها تغمر المنزل بذكريات لا مثيل لها في عوالم الحب والطيبة، وأمسك يد أمي التي أمسكت سيفا دمشقيا كان قد أحضره خصيصا لها لتقطع فيه كاتو عيد ميلادها وسط معايدات وضحكات ودموع حارة، وغنى لها بصوته أغنيتها

المفضلة: "غنوا لحبيبي وقدموا له التهاني في عيد ميلاده عساها مية عام، افرح حبيبي واطلب أغلى الأماني الليلة يا عمري تناديك الأحلام".

على صوت أبي يردد هذه الأغنية استيقظنا صباحا، وفي غرفتهما كان أبي يحضن أمي التي قررت الوداع بهدوء تاركة أبي يغرق في بحر دموع وآهات تبكي حجر الصوان، وكأن أغلى أمنياتها التي طلبتها بعد أن رأت وودعت كل من أحبتهم أن تموت بحب وسلام في حضن أحبها حتى اللانهاية، تركتنا في حالة حزن لا يعلم حجم ألمها إلا الله.

الفصل السابع

ها هي المرحلة الحاسمة التي لا يمكن للحياة أن تعود بعدها كما كانت عليه قبلها. انطفأت نجوم الحياة في سماء أيامي، وخيّم عوضا عنها ظلام كئيب الملامح موحش التفاصيل، مضى شهران على فراقها وحالة الذهول ترافقني والحزن يتملك فكري وإحساسي، كيف أقوى على حالتي وقد رحلت من تقويني؟ لا أحد إلى جانبي، أخي سافر ليكمل حياته، وأبي غارق في حزن لم أر مثله في حياتي، والباقون لديهم حيواتهم وعندهم أشخاص أقرب وأولى باهتمامهم المتواصل، أنا وأبي نحاول أن نواسي بعضنا ولكننا سرعان ما نفشل فنحن لا نجيد الخداع.

أبي بدأ يعود لممارسة عمله، وكانت خطوة موفقة تخرجه ولو للحظات من حالته، وأنا قد يريحني قليلا سفري ووجودي مع أخي، ولكنني لن أترك أبي وحيدا مع حزنه وذكرياته.

تعيّن عليّ العودة إلى العمل بعد اقتراب انتهاء إجازتي، وتذكرت وصية أمي ألّا أفقد شغفي بالحياة مهما حصل، أي قوة أحتاج إليها لأتمم حياتي؟! وأي شغف سأستعيد؟!

لكن لا بأس بمحاولة إكراما لك يا أمي الحبيبة، بدأت أجهز ملابس لائقة للدوام، وعاودت الاتصال بزميلاتي

في العمل، وكتبت كلمات رحمة لأمي على بروفايلات حساباتي جميعا.

قمة الغدر والخيانة أن نكمل حياتنا من دون أحبتنا..

هكذا كان إحساسي وأنا أعود لاستكمال الحياة، ولا أدري كيف سيكون القادم من الأيام؟!

لم ألق اللوم يوما على عام مضى..

ولكنك أيها العام تدين لي بحساب لن تستطيع يوما تسديده!

ولذا سأقول لك: كفاك هزيمة أنك الآن تلفظ أيامك الأخيرة!

وقبل اليوم الأخير، ستسمع لسان حالي يقول:

الحمد لله على من أجبرت على فقدانهم..

لا ندم على أحياء خسرتهم وخسروني لأقل الأسباب، فهم لا يستحقون وجودي في حياتهم! وأشكر الظروف التي جددت تواصلي مع أصدقاء قدامى أحيوا سعادتي بذكرياتنا المشتركة، وأمتنّ لنفسي التي اكتسبت شجاعتها منك في التعبير عن مشاعري دون خجل، أبكي أمام الآخرين، وأضحك، وأرفض، وأغضب، وأصرّح بحبي، وكرهي دون تردد أو حساب.

امض أيها العام، واترك لنا جمال البرد في ديسمبر، ودفء القلب تحت المطر.

***

لعلّ الزمن هو القوة الوحيدة تحت السماء الكفيلة بكل شيء...

جراحاتنا غالبا ما تندمل مع مرور الزمن مهما بلغ عمقها، ومواقفنا تتعرض لحتّ وتعرية المتغيرات، فتصبح أكثر تلاؤما مع الحالة.

يمر الزمن على الروح والقلب والفكر والجسد، يداوي، يجمّل، يبدّل، يحيي، يميت ولكنه يرفض أن يكون مروره عابرا، ويثبت أن لكل شخص من الزمن ما يستحق.

ستحمل عيناي إمضاء خسارتي، وتحوّلت ابتسامتي إلى مجاملة عابرة، وأمّا إكمال حياتي فقد فرضته ذهنيّة التحريم؛ تحريم الانتحار في عرف كل الأديان. اليوم علمت ماذا يعني أن تكون وحيدا، يعني أن تكون بلا أم وليس أية أم، أن تكون بلا كاترين تحديدا.

قل لي كيف نعيش بالأنصاف، فالخوف يُذهبُ نصف السعادة، والذكاء يُذهب نصف المتعة، والصراحة تُذهب نصف الأحبة، والصدق يُذهب نصف النجاح، والتغاضي يذهب نصف الكرامة، وأنصاف كثيرة أخرى تنتظر

الذهاب، وما من سبيل إلى استرجاعها، ولا مجال للعيش من دونها، كفاكِ صعوبة أيتها الحياة... فأنت أصلا أتيتنا نصفا، بعد أن ذهب منك نصفك الجميل!

تلقيت كثيرا من التعازي في بداية كل رسالة نصية وإيميل، ولكن رسالته التي استقرت في زاوية بريدي أشعرتني بنفور لا أعلم سببه، هل يصدق أنني بدأت أكره كل شيء يذكرني بالحب، الحب الذي رحل مع رحيلها؟ وكيف لقلبي أن يحب غيرها؟ وكيف لمشاعري أن تتحرك وهي ليست معي؟ إحساس الغدر والخيانة لن يفارقني لو عشت لحظات محبة مع غيرك، أنت وحدك من يستحقها وأنت من كان يحييها، أكاد أجن يا أمي، لم أعد تلك الفتاة الطبيعية القوية، أرجوك ساعديني، أرجوك كوني إلى جانبي، امنحيني السلام كما عودتني حتى ولو في منام عابر أو حتى في نصف منام، وأنا راضية فقد أدمنت الأنصاف.

***

بعد يومين، فتحت رسالته..

- أمل حبيبتي، رحم الله أمواتكم، من؟

- شكرا.

- الموت حق، وافتقاد الله رحمة.

- نعم.

- قدرنا أن نفقد أشخاصا أعزّاء، ولكن العزاء أنه قدر يمر على كل الناس.

- ليس عندما يكون من خسرته شخصا يعادل الدنيا ومن فيها.

- من؟ قولي يا أمل.

- إنها أمي، يا سعد.

- أووووه لا حول ولا قوة إلا بالله، عظم الله أجرك حبيبتي أموول، قلبي معك. كيف أقدر أن أخفف عنك حبيبتي؟

- لن يستطيع أحد التخفيف عني، ولا أريد شيئا من أحد.

- استهدي بالله أمل، اقرئي لها القرآن، فترتاح روحها ويرتاح قلبك.

- أقرأ لها قرآنا!!!

- طبعا، وأنا معك.

- أشكر تعاطفك.

- ما هذا الكلام؟ إن شئت فأنا جاهز لنذهب معا

صباح الجمعة، ونضع الورود على قبرها، وندعو لها ونوزع المصاحف عن روحها في عدة أماكن.

- يبدو أن خلاف الأنصاف لن يفارقني حتى بعد الفراق.

- ماذا تقصدين؟

- لا شيء. أشكر لك التعزية والمواساة. بأمان الله.

تحدثنا وكأن عتبا لم يكن بيننا يوما، وكأن جرحا لم يترك أثره العميق في وجه علاقتنا.

***

مرت سنة كاملة مليئة بالكآبة تفتقد الحياة والفرح والأمل، سنة بلا طعم ولا ألوان، ولكن العزاء الوحيد أن أبي بدأ يستعيد حياته الطبيعية من حيث أعماله وعلاقاته واندماجه مع أصدقائه وأقاربه، وهذا كان إلى حد ما سببا في راحتي النفسية. كذلك فيصل كان لي سندا رغم كل انشغالاته، فكان من اللائق أن أستجيب لتوسلاته وأوقع صلحا مع الحياة أول بنوده السفر مرتين إلى فرنسا كل عام، وتكثيف الجهود لإنهاء الدكتوراه، والتفكير جديا في الزواج وإنشاء عائلة، وضرورة الخروج من المنزل مرتين كل أسبوع لتغيير الأجواء.

في أحد الأيام خرجت للتسوق، وأمضيت أربع ساعات

متواصلة، بعدها ذهبت إلى مقهى ستاربكس لأتناول قهوتي المفضلة، واتصلت بصديقتي السورية ثناء ودعوتها لتناول القهوة معي، فلبّت الدعوة من دون تردد، وعبّرت عن سعادتها لأجلي ومحاولتي التخلص من العزلة التي عشتها طوال الفترة الماضية...

جلست أنتظر ثناء، وعيناي تحدقان إلى كل شيء حولي، أنتظر ثناء وأفتش عن شيء ربما يكون قريبا مني، أنتظر ثناء وفي داخلي انتظار لشخص آخر، ترقب لقدومه، استجداء مصادفة قد تجمعنا بدافع الحنين، رغبة في لقاء بريء من ترتيب مسبق، أرى وجهه في وجوه الجميع وخلف مقاود السيارات التي تبحث عن أماكن تصطفّ فيها أمام باب المطعم. لعله يكون أحدهم، لعله يبحث عني بلا وعيه كما أفعل أنا الآن وفي كل آن، تمنيت لو اشتم عطري مرة فتبعني رغم المسافات، أو لو مرة، مرة واحدة شممت عطره الممتزج بعطر جسده الرياضي لذهبت أجوب شوارع الكويت وشواطئها ومقاهيها بحثا عنه لعلي أجده متذرعة بالمصادفة، مصادفة تجمعنا من حيث انتهينا، ولكنها مبنية على قصة حب عمرها سنوات أساسها رغبة وأمل. حاجتي الكبيرة إليه الآن تتطلب اللقاء، كلي يتطلب وجوده، ليس فقط وجوده وإنما هو شيء أقرب وأدفأ، شيء يشبه الغياب في أحضانه وربما غياب كامل عن الواقع، سأستمر في البحث عنك

وسأستمر في الانتظار، إحساسي ينبئني أنك قريب موجود، أستطيع أن أتنفسك وأستشعر من أعماق شوقي رغبتك في لقائي، ما زلت أتلفت وما زلت أسمع صوتك خفيا، أشعر تماما باقترابك على تردد هامسا بريبة: "أمل؟".

- نعم.

- أعتذر عن التأخير حبيبتي، ولكن أنت تعلمين زحمة السير في مثل هذا الوقت.

- أخيرا، كاد انتظارك يقتلني، ولكني تمنيت قدومك لأن حاجتي إليك تستحق كل هذا الانتظار.

- طلبت إليك كثيرا أن نلتقي، وأشكرك لأنك أخيرا جعلتني أنال هذا الشرف يا جميلة.

- هههه أحتاج إلى من يقدر ظروفي ويتحمل مزاجي، ومن غيرك أثق به؟

- وأنا كلي لك، وسعادتي أن أراك سعيدة مرتاحة البال.

- شكرا ثناء، أقدر مشاعرك النبيلة كثيرا.

أثناء عودتي شعرت بخيبة، خيبة من انتظر حبيبا وخذله، خيبة من راهن على حدسه واكتشف خيانته، خيبة تشبه خيبة أرض عطشى استبشرت بقطرات غيمة صيفية داكنة، فاكتشفت لاحقا أن سوادها كان مجرد تشبع

بدخان تائه، والمطر منها بريء.

في المنزل كان أبي جالسا يستمع إلى أغنية قديمة لا أدري كيف يتحمل برودة لحنها، جلست أحادثه وشربنا الشاي، نخطر لي أن أساعده على تسلية نفسه عندما يكون وحيدا في المنزل، واقترحت عليه الانضمام إلى فيسبوك الذي لم يحبه يوما، وأقنعته أنه منتدى منوع، وأنه سيجد فيه شيئا ما لكل شخص بحسب اهتماماته، وبالفعل أنشأت الحساب، وكنت أنا أول المضافين، وكذلك أضفت بدرا وعمي عبد الله وبعض الأصدقاء، وأحسست أن الفكرة راقت له، وهكذا بدأت بمحادثته ممازحة وعلمته كيفية الاستخدام، ووعدته أن أبقى معه حتى يتمكن من الاستخدام دون أن يرتكب أي خطأ يحتسب عليه.

وبينما أنا أختار له مجموعات لمتابعتها، فتحت صفحة سعد من باب الفضول لا أكثر.

وأي قدر مكتوب؟!

هل يمكن للقدر أن يجعلنا تسليته في هذه الأيام المملة؟!

هل أطلب إلى عقلي أن يصدق ما يحدث، وإلى قلبي أن يتقبل؟!

كيف لهذه السيناريوهات أن تكتب في كل مرة؟!

"انتظرتها ساعتين وربما أكثر، تحمّلت عناء مسافة الطريق

وقلت: أذهب. قصدت مكانها المفضل لعل القدر يجمعني بمن ستقول "مرحبا سعد"، ولكن هل بلغت سذاجتي استجداء عطف من قدر أرهق قلبي بالحرمان عقودا، والآن أنتظر منه، أمل؟!".

وجدت هذه الكلمات تعلو صورة أعرفها كما أعرف وجهي، صورة بتوقيت انتظاري، مقعده خال وعلى الطاولة علبة سجائره ومفاتيحه، وعلى المقعد الملامس المعاكس تظهر كتفي وخصلات شعري وفنجان قهوتي، وقد كتب عليه اسمي بحسب عادات هذا المقهى...

ربي!

والله، لو كان لمشاعري صوت لسمع أهالي كندا صرخاتها، ولو كان للقدر آذان لأصابها الصمم من شدة دويها،

أنتظرك وتنتظرني بتوقيت قلبينا، يفصل لقاءنا مسند كرسي بحكم اللاعدالة، بحثت عنك في كل الأماكن وكل الوجوه، ونسيت أن أنظر خلفي بحكم العادة، وانتظرتني ولم تبحث عني، فكيف تبحث عن وجه مجهول الملامح؟ ربما نظرت إليّ ولكنك لم ترني، انتظرتني بخيالك كما كنت تشكو دائما، واليوم فقط تأكدت كم كنت تملك من الحق!

إذا أنا لا أغادر تفكيرك يوما، وأنت لا تدخر فرصة للقائي، سعادتي لا تقل عن حزني هذا اليوم، وكيف لها أن تقل، وقد تأكدت اليوم كم أنت تحبني وتحلم أن نكمل معا؟

لست أنت من كان على حق اليوم بل أمي أيضا، لقد أكدت لي أنك الأقرب إلى روحي وكانت متأكدة من صدق وصحة كل كلمة تقولها، لأجلها سأعيد النظر في حياتي، وسأنفذ كل كلمة في وصيتها؛ لأني من بعد إيماني بالله أؤمن بذكائها وحكمتها.

سأدبر لقاء يجمعنا يا سعد، وأنا أعني ما أقول، ولن أتردد في قبول العوم في مياه حبك العميقة حتّى يحين ذلك اللقاء.

عندما نتحدث عن الحب في زمن غيرت ملامحه الكراهية، فهذا تحدٍ!

وعندما تداعب الأحلام أرواحنا التالفة... فهذا أكثر من أمل!

وعندما نفتش عن السلام رغم التترية والوحشيّة والدماء، فهذا إيمان!

وعندما نؤمن أن القادم أجمل رغم السواد الذي يلف الآفاق، فهذا حق!

حقنا أن نستشعر الصباحات وإشراقات شمسها ولطف نسائمها طالما أننا أحياء

أثناء وجودي في فرنسا، قررت محادثته بطريقة مختلفة مليئة بالاهتمام والحنان، وعملت بمقولة كانت أمي ترددها دائما: "انتق من الأفعال ما يجعلك سعيدا... واذهب دائما إلى من تحب..."

انتظرت يوم الخميس بكل الحب والشوق، وانتظرت الليل ملهم الأحاسيس حامي العشاق، وبادرته برسالة مسجلة بصوتي تحمل الكثير من الشوق والخصوصية، والرومانسية التي لا تحدد هوية شخص محدد، متناسية أو ناسية كل عتب وكل غضب.

في اليوم التالي ليلا، وصلني رده الذي يعبر عن سعادة غمرت قلبه، وفاضت بعد سماع صوتي، وسألني عن أحوالي، وعبّر عن أشواقه، ولكن هذه المرة كانت كلماته وأسلوبه تنمّان عن نضج وثقة كبيرين لم أشعر بحجمهما من قبل. أخبرته أني في فرنسا في زيارة لأخي، وسألته إن كان في غرفة مكتبه (التي طالما اعتاد أن يحادثني منها)، فأجابني باختصار:

- أنا في أمريكا.

- لا تمزح.

- نعم، أنا في أمريكا. وصلت منذ 6 ساعات. (وأرسل لي صورة من غرفته في الفندق).

- أنا آسفة، هل زوجتك والأولاد معك؟

- لا، أنا وحدي، كما خلقت وكما سأعيش وكما سأموت.

- ما هذا الكلام يا سعد؟

- إنها الحقيقة.

- هل حصل شيء جديد؟

- وهل القديم غير كاف؟

- سعوود حبيبي، حاول تغيير نظرتك إلى الحياة تماما كما تغيرت كل تفاصيل حياتك نحو الأحسن.

- بالله عليك أمل، اصمتي فأنا لا أريد لأجوبتي الحادة أن تزعجك.

- لا شيء منك يزعجني سعد. منذ اليوم، أنا وأنت روح واحدة في شخصين، وأنا أحب أن أشاركك في مشاعرك وتفاصيل حياتك كلّها. لم كل هذا التشاؤم؟ ولماذا لم تحضر عائلتك معك فهي فرصة لتغيير الأجواء؟

- أشعر بتغير في تعاطيك الحديث معي.

- وهل يزعجك هذا الإحساس؟

- وهل يزعج الميت عودة الروح إليه؟!

- لم تجبني، هل عائلتك معك؟

- عائلتي لا تريد مرافقتي، لقد فضلوا الذهاب مع أمهم وخالتهم وأولادها إلى تايلاند، أما أنا الأب القاسي الذي لا يقبل بالسلوك الخاطئ والفشل الدراسي والحياة الفارغة فلا أحد يريد مرافقته.

- لا تكبر المواضيع يا سعد، الأولاد ما زالوا مراهقين، وكل الزوجات تسعدن بصحبة أخواتهنّ، وأنت في إجازة عمل؛ مما يعني أنّ وقتك لن يكون لهم، هذا كل ما في الموضوع.

- ...

- لا تطولها وهي قصيرة سعد. بلا شك، أولادك يفتقدونك الآن، وزوجتك تتمنى لو كنت معهم، وهم يشعرون بالفخر بك والحاجة إليك.

- الحاجة إلى آلة ATM فقط، آلة لسحب المال، الكل يحتاج إليّ لأهداف مادية فقط، ولا مانع عندي، ولكن ماذا عني؟ ماذا عن حاجتي الروحية؟ من يشعر بمتطلباتي؟ وأنا من سيجيب، لا أحد.

- أنا معك سعد، أنا أحتاج إليك، كن بخير لأجلي.

- أنت؟ يا أكبر جراحاتي، والله إنك الأسوأ معي، ولكن حظي اللئيم أني أحببتك، وحبي يمنعني من القسوة عليك أو ربما كان انعدام سلطتي عليك هو السبب.

- وتلومهم أيها المستبد الظالم...!

- أحتاااااجك أمل. متى ستفهمين؟

- من اليوم.

- عاهدت نفسي ألّا أطلب إليك شيئا، وأنا فعلا لن أطلب إليك شيئا، ولكني سأرحب بكل خطوة تقومين بها بمنتهى الفرح، فأنت الوحيدة القادرة على جعلي أستشعر أملا كامنا في عبسات اليأس التي طالما سرقت أفراحي في هذا الزمن الغادر، زمن اللائقة.

- تذكّر أن السعادة ما هي إلا نسمات تداعب وجوهنا، وأحيانا تلامس قلوبنا في ليالي حزن باردة أو نهارات جافة، وتذكر أني سألتقيك مصادفة في يوم لم نتوقع وجودي فيه.

- ...

- هل تستطيع القدوم إلى فرنسا؟

- تختارين الأوقات الخائنة دائما، حاليا لا أستطيع. وجودي في أمريكا مستمر، وبعدها مباشرة يتعيّن عليّ

حضور مؤتمر في الكويت للتطبيق.

لم يغب عني خوفه من عدم وفائي بالوعود، وأكاد أجزم أنه على استعداد لترك المؤتمر والعالم لأجل الحصول على فرصة مؤكدة للقائي، ولكنه غير واثق بوعد وئدت أخواته عبر ثماني سنوات، وشعرت كم بدأ يهتم بحفظ ماء وجهه ومكانته، وهذا ما جعل لهفتي للقائه نتقد بالمعنى الحرفي للكلمة.

- سعوود، أريد أن أعدك بشيء.

- لا تعدي، إن لم تكوني واثقة بالوفاء بالوعود.

- أعدك أني سأكون لك حتى لو كان آخر يوم في عمري.

- وقبلها، هل ستكونين لأحد غيري؟

- ...

- ؟

- وهل باستطاعتي أصلا أن أكون لأحد غيرك؟!

- أموووول.

- ؟

- كم مرة نبهتك ألّا تجيبي ب (؟) أو بـ (نعم)؟

- وبماذا تريدني أن أجيب؟

- أجيبي بـ "حيااااة أمووووول"، "عمر أمووووول"، "روووووح أمووووول".

- هههه حاضر.

- أمووووول.

- رووووح أمووووول... قلب أمووووول.

- فديت رووووحك، يا تلف رووحي، يا وجع قلبي. لو تعلمين كم أنت في عيني جميلة!

- ماذا كنت ستقول؟

- جاهزة لتسمعي؟

- أكيد، حتى الصباح. فحديثي معك أجمل حديث وأطوله، وأنا لا أشعر بطوله إلّا بعد النظر إلى الوقت.

- أشتهي حبك في ليلتي الحالمة داخل أسوار أمريكا.

- سعووووود.

- ولا كلمة... حتى الصباح رغم اختلاف التوقيت!

***

بعودة سعد إلى حياتي، عادت إليّ الحياة مرة أخرى، أتذوق معه طعوم الحب المختلفة دون مساس بسمعة ومن

دون ارتواء، كانت رسالته الصباحية تشبه أحاسيسه التي تشتهي الحياة:

"صباحك صباح العمر الذي لا تعكر مزاجه خيبة ولا خذلان، صباحك مشرق، بطعم الفرح ونكهة الحياة، صباحك شعاع أمل وتحقيق حلم!".

كلماتك تجعلني أشعر كم من روح ذابلة كان دواؤها كلمة (أحبك)، وكم من حزن عميق كان شفاؤه كلمة (كم أنت جميلة!).

أرسلت إليه مرارا كم أحلم وأشتهي يوم ألتقيه في مكتبه، أغلق الباب وأعانقه رغم القوانين، أطبع قبلة على قميصه الأبيض، فيرتسم أحمر شفتيّ دليلا دامغا على خيانتنا الآداب العامة التي نوصي بها، وأخرج من حقيبتي منديلا مشبعا برائحتي، أعلقه بين أزرار قميصه، ليمسح أثرا رُسم على شغاف القلب قبل أن يرسم على القميص الأبيض!

***

كنت ألاحظ أن أبي يكوّن صداقات على الفيسبوك تشغله معظم الوقت، وأكاد أخمن إحداها رغم رفضه التام فكرة الزواج بعد أمي، ورغم مرور عدة سنوات على وفاتها.

ذات يوم طلب إليّ الحديث في موضوع مهم، وكانت

خلاصة الموضوع أمرا يتعلق بالميراث، ولم يعر اهتماما لرفضي الحديث في الأمر، وكان ملخص الموضوع:

"لقد أوصت أمك أن تنقل بناية السالمية المسجلة باسمها إلى اسمك، وقد وقعت عقد بيع وشراء بينك وبينها قبل وفاتها بمدة، وأن توهب لك كل مجوهراتها وممتلكاتها الخاصة، وأنا وضعت لك رصيدا في البنك يكفي لإنجاز أكبر مشروع تحلمين به، أما بالنسبة إلى البيت فقد كتبته باسم فيصل مع حق الاستفادة لنا جميعا منه طوال حياتنا، رغم تأكدي من عدم رغبته في الاستقرار في الكويت في أي يوم من الأيام".

- أبي؟

- هذا ما يجب أن يحصل، وأريد أن أكون مطمئنا على مستقبلكما، ولا أريد لأحد مشاركتكما فيما جنيته لكما طوال حياتي.

- أطال الله عمرك يا أبي، ولكن الوقت لا يزال مبكرا جدا على قرار مثل هذا.

- لا تأمني الزمن يا ابنتي؛ فالغدر طبعه، ويجب أن يُحسَب له حساب كبير.

- أدام الله عافيتك ورزقك، وغايتي رضاك وغفرانك يا أبي.

- نعمة.

- نعم، بابا.

- أريد أن أتحدث إليك في موضوع آخر.

- تفضل يا أبي، أنت تأمر ولا تطلب.

- أنا محرج جدا من الحديث فيه، ولكني أرى فيك من الوعي والتفهم ما يشجعني.

- ؟

- في الحقيقة...

- بابا، مهما كان الموضوع فأنت أهم شخص عندي في الحياة، وأعدك أن أتفهم كل ما ستقول.

- أنت تعلمين مكانة أمك وحبها في قلبي، وأشهد الله أني وفي لها مذ رأيتها حتى هذه اللحظة، ولن يأخذ مكانها في قلبي أحد، ولكنّك تعلمين نعمة أن لي احتياجات خاصة، وأنا لا أحيد عما حلل الله وحرّم.

- تفكر في الزواج يا أبي؟

- ليس كما تعتقدين، سيكون زواجا سريا وبعيدا عن هذا المنزل، واشترطت عليها عدم الإنجاب، وهي راضية بكل شروطي...

- ستترك المنزل يا أبي؟

- بالتأكيد لا، سأبقى موجودا هنا معظم الأيام، وهي متفهمة ذلك.

- ...

- نعمة، أنت الوحيدة التي أعلمتها بالموضوع، وإن كان الموضوع سيسبب لك أي أذى فأنا أعدك أن أتخلى عنه لأجلك.

لم أتوقع يوما أن أجد نفسي في هذا الموقف، ولا أتخيل أن تحل امرأة محل أمي عند أبي، أية طعنات طعنتها أيها الزمن لأمي في حضورها وفي غيابها! ليس من حقي الرفض، ولكن تقبل الموضوع يشعرني بخيانتنا كلينا لأمي، وفي الوقت نفسه، من حق أبي إكمال حياته كما يريد؛ فهو ما يزال في منتصف الخمسينيّات، وكتمان زواجه نوع من الوفاء والإحساس بالذنب تجاه أمي. وللحظة تذكرت وصية أمي "كوني بارة بأبيك مهما كانت الظروف"، ومن ناحية أخرى ليس من حقي تقرير مصير أبي، وقلت في نفسي مكررة: "اقبلي الأشياء راضية أفضل من أن تقبليها رغما عنك".

- نعمة.

- ...

- نعمة، لم كل هذا الشرود والتفكير؟ قلت لك إنني مستعد لإلغاء الفكرة في حال عدم موافقتك.

- لا يا أبي، هذه حياتك، وهذا حق من حقوقك. وكل ما أتمناه أن تكون مرتاح البال، وأنا جاهزة لكل ما يخفف عنك وحدتك بعد غياب أمي، فأنا متأكدة من مكانتها في قلبك.

- كوني على يقين، وإلى آخر يوم في عمري.

***

شعور قاس ومؤلم وظالم أن تصبح كقطعة جليد، يصهرها الحنين والصمت والألم والأنات المكتومة، تذوب في يوم يشبه أمسه، تجف تحت عشرات من الأقنعة، تكاد لا تميز نفسك، تشتاق إليها، من أجل تعايش مؤقت... تعايش يجعلك تسألها:

ماذا أستفيد لو كسبت العالم، وخسرت الشخص الذي يعني لي العالم؟!

يوما بعد يوم، تصغر دائرة المقربين مني، ويغيب الأشخاص واحدا تلو الآخر من عالمي الصغير، أمي، أبي، أخي المسافر، بدر المنعزل الذي رفض الزواج بابنة خالته مخالفا عائلته، عمتي المشغولة بملاك وتوأمها، سارة بعيدة، وحده عمي عبد الله لم يتركني منذ وفاة أمي إلى الآن، وهو

من يؤثر فيّ بنصائحه الدائمة، يرسل إليّ في كل يوم كلمات تحمل كل الحكمة والعقل:

"فكّري في الأحزان تسرع إليك.

فكّري في الأفراح، والأفراح ستغمرك ~ ~

فكري في الحب؛ فالحب لا يضل طريق من يفكر فيه

تعودي استحضار الأحاسيس؛ فنحن من دون أن ندري محكومون "بالتعود"،

ولا تنسي أن الذاكرة الضعيفة هي أحد أسباب السعادة.

لا تؤذي قلبك، ولا تؤذي روحك وعقلك، ولا تقضي عمرك ندما على شيء فات، احرصي على ما يرضيك، وعلى من يرضيك، وأيضا على القليل من... "الأنا"!

***

أما سعد القريب البعيد، فموجود وغير موجود، رغم أن ارتباطنا أصبح أقوى من أي ارتباط، وبدأ يحدثني عن تفاصيل حياته ومشاكله الشخصية والعائلية من دون حواجز، وما زال يحلم بيوم لقائنا، ويجن جنونه كلما أخبرته بوجود عريس تقدم لخطبتي.

قال لي ذات ليلة:

- أمووول، ما رأيك أن نستأجر شقة ونلتقي فيها يوما في

الأسبوع؟

- ماذا؟

- نحن ناضجان بما يكفي لتجنب أي غلط قد يحدث.

- هل تعتقد يا سعد أن من امتنعت عن الكشف عن ملامحها وهويتها ستقبل بمثل هذا العرض؟

- ممّ تخافين يا أمل؟ هل تعتقدين أن هناك أشباحا تلاحقنا وتفضح سرنا؟

- يقولون: "خروج الأشباح ليلا... أسطورة، ألّفها رجل، أراد إخافة حبيبته... كي تنام بجواره كل ليلة!".

- أنا جادّ أمل... ألا تثقين بي؟

- ولا أثق حتى بنفسي، هل تعلم ماذا يعني لقاؤنا؟

- قلت لك إننا ناضجان بما يكفي.

- بل مجنونان بما يكفي.

- لا أقبل أن يصف أحدٌ زوجتي بالجنون حتى لو كنت أنت.

- ماذا قلت؟ زوجتك؟

- نعم، زوجتي.

- هذه أول مرة تتحدث إليّ عن زواج!

- لأني متأكد من عدم حدوثه.

- ولم أنت متأكد؟

- لأنك ابنة الحسب والنسب، الثرية البهية، لن تقبلي يوما بالزواج من فقير معدم مثلي. وحتى لو فقدت صوابك وقبلت، فعائلتك لن تقبل زواجك بشخص فقير متزوج ولديه ثلاثة أبناء. ولكن يروق لقلبي ولساني نطقها، فإن أجمل الحب، شخص يبادلك الحب، وسر جمال الحب هو مبادلته يا حب عمري.

- هل تعلم أني أعشق أبيات الشافعي التي تقول:

"قد يعشق المرء من لا مال في يده

و يكره القلب من في كفه الذهب

ماقيمة الناس إلا في مبادئهم

لا المال يبقى ولا الألقاب والرتب!"

- شعر جميل وقوي، ولكن الظروف أقوى.

- بغض النظر عن الظروف، وبغض النظر إن كنت غنية أو جميلة أو ابنة عائلة، هل تفكر حقا في الزواج بي يا سعد؟

- مجنونة، هذا حلم حياتي. ولكنه الحلم الذي لن يتحقق

يوما.

"لست أنت من يقرر إن كان سيتحقق أو لا، سأجعله يتحقق". هذا ما قلته لنفسي، وهذا ما سأخطط لتنفيذه، ولن أعيا لإيجاد الطريقة. فالحكاية ليست حكاية السنين التي تمر من عمرنا، بل الحكاية هي كم عشنا من هذه السنين، كم فرحنا، كم حققنا من الأماني والأحلام، كم أحببنا وكم أحبنا الآخرون، كم من كلام الحب الجميل سمعنا، وكم ضحكة من القلب كنا سببا لها، كم من المحطات والمسارات التي نمر بها في حياتنا وفي كل مرة نسأل ماذا بعد؟!!

تأخذنا الطرقات، وتلهينا الأيام، وننسى احتضان اللحظات الجميلة، نعيش بقلق الانتظار، ونفقد متعة الطمأنينة، نهتم بالأرقام والرقمية، وننسى الاهتمام بما نحب وبمن نحب، ولا ندرك أن أكثر ما نحتاج إليه في مسار عمرنا هو وقفة مع ذاتنا، تزيدنا تناغما مع الحياة، ورغبة في الحب والعطاء والإيمان والاستمتاع بما منّ علينا الله.

لعل أجمل تجربة في الوجود هي تجربة حب، قادرة على انتزاع الإنسان من الوحدة الباردة الجافة إلى حياة دافئة منتعشة، قادرة على استشعار كمالنا الإنساني فطرة واكتسابا...

أريد أن يصبح لصباحاتي آمال، ولمساءاتي أسرار،

ولتاريخي ذكريات، ذكريات أنثوية بحكم الحب لا بحكم التقاليد.

لا أريد المزيد من السنين لحياتي، ولكني أريد مزيدا من الحياة لها، أشتهي تذوق إكسير الحياة، وأنت إكسير حياتي أيها السر الافتراضي.

***

يفاجئني في وقت متأخر برسالة يتوسل فيها أن نلتقي، ويعبّر عن عدم قدرته على البعد عني أكثر: "بعدي عنك أرهق روحي وجسدي، عذاباتي أصبحت لا تحتمل، وأنت لا تقدرين مشاعري ولا تشعرين بها. أريدك حقيقة فقد أتعبني الخيال، أريدك قبل أن ترحل سنوات الشباب، وقبل أن يبرد جمر حبي لك. أحبك ولكني فعلا تعبت، حبك سيصيبني بالجنون. لا أستطيع الاستمرار أكثر، كلميني الآن وهذا رقمي. وإن لم تكلميني، فانسي وجودي ودعيني أنساك، لا تعودي إلى حياتي في كل مرة، وتعيديني إلى البداية، أرجوك أمل".

- ماذا حصل؟

- كلميني.

- لا أستطيع الآن.

- وأنا متأكد ولا حتى غير الآن...

واختفى سعد!

***

كان حلمي طوال تسع سنوات من معرفتي بسعد أن ألتقيه مصادفة، أن أجعله يلتقي أمل بشخصية نعمة، نعمة ابنة العائلة المحترمة التي لا تتخلى عن العادات والتقاليد لكي لا تهتز صورتها أمام أحد، سواء أكانت عائلتها، أم زوجها المستقبلي أم مجتمعها، نعمة البريئة من معرفة رجل على الإنترنت، رجل بادلته حبا افتراضيا تجاوز حدود العفة بقليل، نعمة التي أحبها سعد بعمق أكبر المحيطات، وتاه فعليا في هذه الأعماق، وأحبته هي إلى حد الجنون، كم ستكون الحياة جميلة معك يا سعد! فأنت تعشقني حتى الإدمان، وأنا منتشية بإحساس لم تعرفه قبلي واحدة من النساء، وجودي معك يخلق لي جوا من السعادة لم يتمكن غيري من مجرد تخيله، أنت تستطيع إخراج أفضل ما أمتلك وأجمله، أنسى الحزن والشك والخوف والظلم والرغبة في الانتقام طوال تواصلي معك...

قد لا تكون الشخص المثالي، ولكنك الشخص الذي جعلني أراك الشخص المثالي وأستشعر تفاصيل مثاليتك، هل تعلم يا حبيبي أنك أصبحت قطعة السكر التي تحلي حياتي، وأنك الشخص المنتظر في كل صباح ومساء ليقول لي "كم أنت جميلة!"؟ أنت الشخص المتفرغ لحبي في وقت

انشغالك قبل وقت فراغك، تنتظرني بلا مقابل ولا تؤمن بنهاية لطول انتظارك، معي لا أجدك تبحث عن بديل، وهذه علامة فارقة تحتسب لك، لم أشعر أني خيار ثانوي في حياتك مذ عرفتك، وكنت تصفق عاليا لنجاحاتي بدءا من نجاح صينية البيتزا إلى تحضير رسالة الدكتوراه.

عرفتك، فعرفت أن أجمل الأحاسيس على الإطلاق أن يكون في حياتك شخص يهتم، يسأل، يحب، يمسح من عينيك الدموع، يقوي قلبك الذي أضعفه الحزن، يفرح لفرحك، يتقبلك في كل ظروفك، يتحمل كلمتك، ولا يشعر براحة إلا عندما يتأكد من راحتك،

شخص تقول في حضوره: "بلا كل الدنيا، وكل الذي فيها زيادة،

يكفي وجودك... حلو وجودك، وسكر زيادة!!"

أنا أعلم كم حاجتك كبيرة إلى امرأة محبة في حياتك، كم ستكون الخطوات سهلة علينا وكم ستكون أوقاتنا ممتعة!

***

كم ستكون الحياة جميلة وناجحة بلا قيود، بلا تقاليد وبلا عادات شرط ألّا تمس حقوق الآخرين وألّا تؤذيهم! كم جميل أن تقول أنا أريد كذا، بكل حرية واحترام، وتنفذ ما تريد! كم هو رائع إحساس التصالح مع النفس! كم هو

رائع أن تشعر أن أفكارك حرة ومشاعرك متحررة من قيود الخوف والكبت الافتعالي الذي يقود إلى عدم توازن غير ظاهر ولكن الزمن يكشفه، واضطرابات نفسية تمثل بخلل واضح في السلوكيات والأحاسيس والأفكار وعجز عن ممارسة الحياة الطبيعية، حال تراه العين ولكن يستغربه البصر..

كم هو جميل أن تشعر أنك نفسك، ولست شخصا آخر برتديك ظاهريا..!

كم هو رائع أن يحبك الآخرون، وتحب نفسك على ما هي عليه وليس لما هي عليه..!

قد يكون كل ما نحتاج إليه هو لحظات صدق، صدق مع الذات وصدق مع الآخرين، تبنّي الكلمة والإحساس، التصرف بعفوية وعدم الخوف من الإدانة، الثقة، الوضوح، وعدم الاستفزاز، وعندها سنكون فعلا بخير. فعندما يتأرجح العمر بين رقم وكلمة تحمل الكثير من العبر والفلسفة والتأمل، هل يكون العمر تجسيدا لحقيقة الإنسان الممتدة بين ساعتين، ساعة ولادة وساعة موت؟! هل العمر هبة إلهية كبرى وتجلٍّ من تجليات الحياة أم حقيقة نسبية؟!

أتساءل أحيانا: لمَ لا تسايرنا الحياة فيما نريد؟ لمَ لا تتركنا نعيش مراحلها كما يناسبنا؟ مثلا لمَ لا نعيش عمرنا ابتداء

من السبعين نزولا إلى سن الطفولة؟ وهكذا نستفيد من الحكمة والدراية اللتين اكتسبناهما بدلا من أن تدفنا معنا قبل تبلورهما!! أو لمَ لا نعيش رفاهية الشباب من تعب الكهولة بدلا من العكس؟! لماذا تحرمنا الحياة من أسباب السعادة مكتملة؟! شباب بلا حب، مال بلا وقت، وقت بلا شباب.

حتى المرايا تقتلنا شماتة كلما عكست تجاعيد الزمن على وجوهنا، وانطفاء البريق في عيوننا، وتعطش خدودنا لدماء نضرة. مرة أخرى أتساءل: هل نحتاج إلى سنين إضافية كترضية لنا؟! لا، فليس المهم إضافة المزيد من السنين إلى حياتنا، المهم إضافة حياة إلى سنين عمرنا. نحتاج إلى حياة لا نؤذي فيها أحلامنا، حياة لا يحتار القلب فيها على أي شيء يبكي، حياة لا تقدم العيون فيها تقارير عن أسباب حزنها، حياة لا تنتظر شمسها أحدا لكي تشرق!!!

***

وصلت إلى المراحل الأخيرة في رسالة الدكتوراه، وكنت سعيدة جدا بما وصلت إليه من إنجاز، وتبقى إجراء بعض الاستبيانات الميدانية من قبل بعض الأشخاص والمؤسسات، وهنا خطرت ببالي فكرة غمرتني بسعادة وغبطة وانتصار، وقررت ألّا أتردد لحظة في تنفيذها. جاءت لحظة لقائك الحقيقية يا سعد، لحظة المصادفة

المدبرة.

ستكون -بلا تردد- أنت إحدى القامات العلمية الإدارية التي أحتاج إليها لملء الاستبيان شخصيا!

***

استبانتي جاهزة، وطريقي إلى جامعة "المستقبل للعلوم والمعرفة" بات معروفا إذ طالما افتعلت الذهاب إليه علّي أراه مصادفة. وفي إحدى المرات، تقصدت حضور محاضرة عامة داخل قاعة اجتماعات هذه الجامعة تتعلق بال tesol لأكتشف أنه غير مهتم بحضور مثل هذه المحاضرات، ولماذا يهتم أصلا وهو يتحدث الإنجليزية أفضل من الإنجليز أنفسهم؟! خسرت رؤيته، ولكني كسبت معرفة الطريق إليه!!

***

على الحاجز الخارجي لمدخل الجامعة، أوقفني عنصر الأمن، وطلب هويتي وسبب زيارتي الجامعة، هويتي صارت معه واسمي بات مكشوفا للجميع! لا خيار للتراجع، وكان طلبي واضحا أريد مقابلة وكيل الجامعة للشؤون الإدارية، تقدمت وفي داخلي ما يشبه مشاعر لص اقتحم باب بنك بنية سرقته! من يصدق أني أرتجف كطفلة مصابة بالحمى لا تستطيع السيطرة على نفسها، خائفة،

محمومة، متوترة، ترتجف ركبتاها على أنغام دقات قلبها المتسارعة، بدأت أهدئ نفسي، لم كل هذا التوتر يا نعمة؟!

سألت عن مكان مكتبه، واتجهت نحو المصعد، أخاف أن يغمى عليّ، لم أشعر بمثل هذا الخوف والارتباك يوما في حياتي، استقوي يا نعمة واثبتي، أنت هنا في مهمة رسمية، وهذه المهمة ستلقى كل التقدير من طاقم العمل العلمي. تذكري أنت هنا نعمة الله فهد الجليلي ولست أمل، أنت هنا لمقابلة وكيل الجامعة الدكتور سعد عبد المحسن، أنت هنا لمدة ربع ساعة على الأكثر، أنت هنا لأنك، ولم ينتظرني باب المصعد لأكمل أسبابي، فتح ببطء، فخرجت على عجل، أنظر يمينا ثم يسارا لأرى لافتة محددة، وأمام باب المصعد الآخر رأيته!

كان يحمل حقيبة سوداء أعتقد أنها لابتوب، وينتظر وصول المصعد ويتحدث إلى أحد الزملاء بانشغال تام. عرفته مباشرة، هممت بمناداته ولكن السماء تشفعت لخطئي، كنت سأكشف نفسي إذ كيف أعرفه! وفي ثانية ضمته أبواب المصعد، فأخفته داخلها كما كنت أشتهي أن أضمه يوما وأخفيه.

إذا لقد خرج...

إنه خطئي، لقد أتيت بلا موعد، يا لسذاجتي، كنت

أحسب أنه ينتظرني! من يصدق أن خوفي قد تلاشى، وبدأ الأمان يتسلل إلى أعصابي؟ استعدت وعيي تدريجيا، ودخلت مكتبه بطمأنينة أعلم ضمنا أسبابها، قابلت السكرتيرة التي أخبرتني أن الدكتور سعدا خرج توّا ولن يعود اليوم، وهكذا طلبت تحديد موعد لاحق وتركت رقمي لإعلامي بالوقت المناسب. ولمحاسن المصادفات، اتصل سعد قبل أن أغادر المكتب ليبلغ السكرتيرة ببعض الإجراءات، وعندها أخبرته بوجودي وطلبي الموعد. في البداية قال لها أن أذهب إلى الوكيل العلمي، ولكني بلغتها حاجتي إلى آراء الوكيل الإداري حصريا وأني مستعجلة؛ مما جعله يحدد الساعة الواحدة والنصف من اليوم التالي بعد إنهائه محاضراته.

الخيرة دائما فيما يختاره الله، لا بد أنه كتب لي لقاء أكثر نجاحا وأكثر هدوءا.

***

بمظهر أكثر جمالا وشخص أكثر ثباتا، وبتدريب مسبق على كل كلمة وكل حركة ونظرة، وقفت أمامه ألملم أجزائي التي بدأت تتبعثر هاربة من قراري الجريء، متبرئة من مواجهة ستحصل مرة واحدة في التاريخ، مرتجفة برجلين غير قادرتين على حملي أكثر، مضطربة مذهولة منتظرة دعوته لي بجلوس ينقذ انهيارا بات أكيدا وربما وشيكا،

ألقيت عليه تحية تذكره أنني واقفة متوسلة منتظرة كرم سعادته للانتباه لهذا الكائن الذي يقف أمامه، كائن أحس أن العمر الحقيقي لهذه الدقيقة يفوق التسع سنوات بسبعين سنة، كائن أدرك كم يظهر هذا الوكيل من القسوة والهيبة في مجال عمله، كم يمتلك من الغرور! وكم يفتقر إلى بسمة تضفي على ملامحه الثابتة التي لا تخلو من حزن عميق بعضا من الوضوح! ماذا لو لم أكن أعرفك جيدا، وأعرف طيبة قلبك وتواضعك واستكانة روحك؟! رأيتك أنيقا أكثر من اللازم، نظيفا مرتبا منظما شديد الحرص على أغراضك الشخصية وعلى مظهرك اللافت بشدة، ما زلت أنتظر عطفك على وقوفي بباب مكتبك، ويا ليتك تعلم من التي تقف وتنتظر!!

بنظرة باردة وشفاه مطبقة وأنف توسعت فتحتاه لشفط ما تيسر من أوكسجين، تمخض هذا الجبل وولد فأرا مريضا يعادل كلمة:

- نعم؟

- مرحبا.

- أهلا، ما هو طلبك؟

- أعتذر إن كان التوقيت غير مناسب.

- تفضلي بالجلوس، وهو ينظر إلى اسمي وطلبي ورقم

هاتفي الذي سلمته له السكرتيرة تذكيرا بالموعد.

- شكرا. (وأخيرا... صدقا لم أعد أريد ملء الاستبيان، كل ما أردته في تلك اللحظة هو لحظة جلوس) جلست أسترق لحظات من الراحة باحثة عن سبيل النجاة من انهيار معنوي، ولم أكن أنوي إظهار امتعاضي من سوء استضافته. إلا أنه بادر بالحديث قائلا:

- أنت طالبة عندنا في الجامعة أم في جامعة أخرى؟

- إن شئت تسميتي طالبة فلا اعتراض، لنقل أنا طالبة على وشك مناقشة رسالة الدكتوراه. وكل ما أحتاج إليه ملء استبانة (استبيان) من قبل مناصب عليا في الجامعات، وآراؤهم في أتمتة النظام الجامعي من الناحية الإدارية على وجه الخصوص، ولهذا تم اختيارك كما تم اختيار أربعة بمثل مركزك في جامعات أخرى وأكرموني بحسن تعاونهم.

لم أستطع إيقاف تسرب من امتعاض رغم أني البارعة في إخفاء مشاعري المتلعثمة في إظهارها، إلا أنني اليوم برعت في إظهار مشاعر ليست في وقتها أو ظننت أنه كان يتعيّن عليّ إخفاؤها.

- ماذا؟

- ماذا؟

- أنا آسف، لقد فهمت أنك طالبة في الكلية، واعتقدت أن الاستبانة مجرد حجة.

- لم أفهم، ماذا تقصد؟

- لا شيء، لا تهتمي بالأمر. ماذا تشربين؟

- لا، شكرا، ربما في وقت آخر.

- سأطلب قهوة ريثما أنهي ملء الاستبانة. هل أستطيع السؤال عن تخصصك؟

- رسالتي تبحث في موضوع دور الذكاء الاصطناعي في إدارة الجامعات وتحسين الأداء.

- عظيم! له علاقة كبيرة بتفاصيل عملي الإداري.

نظرت في وجهه الذي لا ينظر إليّ، وجهه الجدّيّ، شعره المصفف، قميصه الأبيض وربطة عنقه المحلولة، من يرى هذا الشخص الوقور لا يصدق أنه ذات الشخص العاشق من خلف شاشة، الجاهز للتخلي عن كل وقار في سبيل لقاء حبيبة يتخيل شكلها منذ تسع سنوات.

كم تشبهني يا سعد! كلانا يحمل هاتين الشخصيتين في داخله، شخصية تلبسنا وشخصية نلبسها، وكم من الملايين مثلنا؟! ولكي أسمح لنفسي المخنوق في صدري من التحرر أجبته:

- ولهذا السبب اخترتك... أقصد، اخترت المسؤول عن الشؤون الإدارية في جامعتكم.

لن أنسى تلك النظرة التي رمقني بها ودون أي تعبير أو تغيير في ملامحه ودون أن يبادلني كلمة واحدة، أي قوة شخصية تمتلك يا سعد! وأي قدرة على التحكم تمتلك! أنا الوحيدة التي تعلم كم أنت عاشق جمال المرأة بكل تفاصيلها، وكم أنت دقيق في مسح هذه التفاصيل، وأجدني أجلس أمامك- بكل جمالي - كلوح خشبي لا يلفت لك نظرا.

- تفضلي القهوة.

- شكرا.

في ذات اللحظة، وقعت عيناي على صور مطبوعة معلقة على لوحة في الجدار المقابل، وما كانت سوى صباحات أمل وكتاباتها. أحبّها إلى درجة الرغبة في الاحتفاظ بها، واحترمها فاختار مكان عمله ومقابل مكتبه ليتسنى له رؤيتها في كل يوم وكل لحظة، إنك تحبها بصدق وإخلاص يا سعد، ما أروعك!!

أكملت من باب فتح حوار.

- جامعتكم مميزة، ويبدو أنها تسير وفق النظم والقوانين.

- شأن كل جامعة خاصة جديدة.

- اها.

- الاستبانة جاهزة وموقعة باسمي، أفكارها قيمة فعلا. أتمنى لك التوفيق.

- شكرا. "أجبته وأنا أشعر أنه يطلب إليّ المغادرة بعد أن أنجزت المهمة".

- العفو. بأمان الله.

عاد يكمل عمله، وكأن أحدا غير موجود أمامه، هل يعقل أن يذهب عنائي سدى؟!

ما أشد غرابتك! وما أشد إصراري على التواصل معك! تركت نظارتي الشانيل على حرف المكتب وتعمدت نسيانها، وتمنيت لو تصبح بيننا مسمار جحا لأعاود مقابلته.

وقفت بدلع، وتظاهرت بترتيب ملابسي وحقيبة يدي بكل هدوء لعل عطري يعلق في هذه الغرفة، ويحرك داخله فضولا ما أو إحساسا عابرا للشاكرات داخل نفسه.

- أشكرك دكتور سعد، وإن احتجت إلى أية مساعدة فأنا جاهزة لتقديمها ردّا للجميل واعترافاً بالفضل.

- من يعلم، ربما؟ فرصة سعيدة أستاذة نعمة.

- أنا الأسعد، أستأذنك. (قلتها بحب واضح متعمدة لفت نظره) وعندما وصلت إلى الباب، أدرت رأسي لأتأكد

من فكرة لطالما آمنت بها، فوجدته فعلا ينظر إليّ ظانّا أني لن ألتفت خلفي، وهنا ابتسمت له ابتسامة لا تخلو من ود حقيقي وأكملت طريقي.

كيف أصبحت بهذه الجرأة وهذا التفكير؟! أية شخصية بدأت تتشكل في داخلي أو ربما تلبسني؟! هل أنا في قمة صدقي ألهث في كل الطرقات لأكون معه؟ أم إنني لعوب أتفنن في اللعب بمشاعره، أم إن النصفين يتقاسمان نفسي؟!

قبل أن أحرك سيارتي، رن موبايلي.

- ألو، نعم. t.me/twinkling4

- أستاذة نعمة، أعتذر لاتصالي ولكن أعتقد أنك نسيت النظارة في المكتب. أنا الدكتور سعد.

- أووه فعلا كنت أبحث عنها، واعتقدت أني أضعتها.

- في كل الأحوال، هي موجودة وفي أيد أمينة.

- الحمدلله أني ما زلت في مصافط (مرأب) الجامعة، سأحضر لأخذها.

- أنت في مصافط الزوار؟

- نعم.

- لا تتعبي نفسك بالرجوع، سأحضرها معي، فأنا في طريقي إلى سيارتي.

- سيارتي أودي كابريوليه زرقاء، سأكون في انتظارك مع كل الشكر.

انتظرته وأنا غارقة في سعادة لا توصف، فقد كان بوجوده الحقيقي أجمل بكثير مما هو عليه خلف الشاشة، رقم هاتفي أصبح على جواله، ورقم هاتفه نقش على جدران ذاكرتي، وكان رقما مختلفا عن الرقم الذي أعطاني إياه من قبل، نعم كيف لشخص في مركزه أن يخلط بين رقم العمل ورقم الستات؟!

وضعت أغنية فضل شاكر "لو على قلبي" لأجعله يسمعها وأنا متأكدة أنه سيعيدها في سيارته فيشعر بدفء كلماتها ومعانيها وربما ستعني له شيئا، كلمات الأغنية تتناثر داخل سيارتي كما تناثرت كلمات حبه داخل قلبي: (قلبي نداك حن بيوم وتعالى وأديك روحي بس تعالى يا اللي بحبك قرب طمن قلبي عليك، بحلم بعنيك وغرامك وبدوب في هواك وكلامك...)

ويا لسرعة خيبة أحلامي! فإن من سمع الأغنية هو حارس الأمن عندما ناداني، وقال:

- أستاذة، هذه الأمانة من الدكتور سعد طلب إليّ إيصالها لك، ألست الدكتورة نعمة؟

- نعم، شكرا.

هل غرورك هو ما منعك من إيصالها لي؟! هل ترى فيها مسّا أو انتقاصا من شخصك العظيم؟! هل حقا لا تهتم بالسيدات الجميلات؟! كيف لا وكانت متابعتك لي أثناء مغادرتي أكبر دليل وإثبات على اهتمامك الشديد بي وحسب كل نظريات علم النفس؟! كيف تفكر أيها الصامت العميق؟!! ما الذي غير رأيك وأنت من عرضت إيصالها لي؟! قضيت طريق العودة كله ومعه وقت الغداء لأكتشف السبب، وأزعجني ما توقعه عقلي...

هل يعقل أن تبلغ حساسيتك هذا المبلغ؟!! هل ضايقك نوع السيارة وربما ثمنها؟!! هل عادت إليك عقدة الفقر والهروب من الأثرياء؟!! كيف لهذه الشخصية الضعيفة أن تظل مختبئة ومسيجة بشخصية تبدو في منتهى القوة؟! أي عذاب تتحمله يا سعد لتوازن بين نصفك القوي ونصفك الضعيف، وأي قدر جمع المحكومين بالأنصاف؟!!

في اليوم التالي، لم أتردد في إرسال بوكيه ورد إلى مكتبه يحمل بطاقة شكر وامتنان ودون ذكر الاسم منعا للإحراج، ولكن أدرجت على البطاقة صورة نظارة شانيل وابتسامة.

عند المساء وصلتني رسالته:

- كلك ذوق، أنا لم أفعل أكثر من الواجب.

وبلا تردد جاوبته:

- وأنا أيضا لم أفعل أكثر من الواجب.

ومن باب إطالة الحديث، سألته:

- سؤال قد يبدو لك سخيفا، هل أخذت الورد معك أم رميته؟

- هههه لا هذا ولا ذاك. لأكون صريحا، أعطيته للسكرتيرة، فأنا لا أضع الورود على مكتبي، ولم آخذه معي لأني خرجت في موعد لرؤية شقة جديدة، وتوقعت أن الورد سيذبل في السيارة.

- شقة جديدة؟! وهل اشتريتها؟

- في الحقيقة إيجار.

- هل تعلم أنه بإمكاني مساعدتك؟

- ؟

- أبي متخصص في مجال العقارات، وهو بالتأكيد سيساعدك على إيجاد طلبك سواء عن طريقه أم عن طريق معارفه.

- حقا؟ أخشى أن أسبب لك أي نوع من الإحراج.

- على الإطلاق. (It's a piece of cake).

- عاجز عن الشكر.

- اشكرني عندما يتم الموضوع، وبإذن الله سيتم. هذا رقم والدي، وضح له طلبك وأنا سأخبره الآن باتصالك.

كنت سعيدة أن جسرا بني بيني وبينه بمشيئة المصادفة أو ربما مشيئة القدر، وكنت أكثر سعادة لأني سأساعده على إيجاد شقة بأفضل المواصفات وأرخص الأسعار عمدا وليس اعتياديا، فأنا أقدر الآن مرارة إحساسه بعدم امتلاك بيت أو حتى شقة، وأشعر بإحساسه بالفقر وهو ابن بلد من أغنى بلدان العالم.

لم تمضِ فترة قصيرة حتى بدأت تنشأ بيننا علاقة صداقة وثقة متبادلة، وقد قدّر ما فعلته من أجله أكبر تقدير. بدأنا نلتقي في بعض المحاضرات والمناسبات وأحيانا على فنجان من القهوة، واكتشفت جو العزلة الذي يعيشه وانتقاءه الدقيق للأشخاص في محيطه. رجل مثقف جدي مخلص في عمله إلى أقصى حدود الإخلاص، ملتزم وشغوف بالكتب، ومن الواضح أن علاقاته الأسرية ضعيفة جدا، ولكنه يقوم بواجبه الأبويّ والزوجيّ على أتم وجه، أكاد أقسم إنه لم يؤذ أحدا في حياته ولا يريد أن يؤذي أحدا، يريد السلام والهدوء، وهو متصالح مع نفسه. إنه ولد وحيدا ويعيش وحيدا وسيموت وحيدا.

لا أنكر أني حاولت كثيرا التقرب منه ومن تفاصيل حياته، وكان يعبّر عن راحته وسعادته بالحديث معي،

وتكلمنا في تفاصيل كثيرة، ولكنه لم يتجاوز يوما حدود الرسمية في التعامل، وكان يغيّر مجرى الحديث كلما اقترب من حديث المشاعر والحب.

لم يبدِ نحوي أي إعجاب عاطفي أو انجذاب، وكان تعامله غاية في التهذيب والأدب، كان يلمّح أحيانا إلى الفروق الاجتماعية بيننا، وأنه ليس مثلي مولودة وفي فمي ملعقة من ذهب، كان يتحدث عن الفقر الذي عانى منه، وعن اسم والده المغمور الذي لم يقدم له شيئا، وذلك لعدم امتلاكه أي شيء يقدمه في البداية، وبعد ذلك بدأ اهتمامه بأولاده من زوجته الثانية متذرعا أن سعدا تخرج وتوظف، وراتبه كبير.

- هل تزوجت بعد قصة حب؟

- لم أتزوّج بعد أي قصة، فقد اختارت أختي لي من أصبحت زوجتي، ولم أعرف حتى شكلها قبل الزواج.

- هل يعقل أن تتزوج بهذه الطريقة بعد أن درست وعشت سنوات طويلة في أعرق الدول وأكثرها تحررا وتحضرا؟

- كنت أشعر بالضعف ووجوب الطاعة، وكان شبه مستحيل أن أتمرد على عادات مجتمعي الصغير وعائلتي، وكنت أعتقد أن الحياة الزوجية مجرد ارتباط بين رجل

وامرأة بعقد شرعي وإنجاب أولاد وتأسيس أسرة، ومن أين لي أن أفهم تفاصيل علاقة الزواج، وأنا لم أشهد مشهدا واحدا يصورها لي؟! اعذريني لصراحتي، كنت أحتاج إلى امرأة لأفرغ رغبتي شرعا، وبعدها لأصبح أبا كما اعتاد معظم الرجال حولي.

- هل تشعر بالندم الآن؟

- وبماذا يفيد الندم؟ وحتى لو عاد الزمان بي هل تعتقدين أني سأمتلك شرف الاختيار أو القرار؟ يا صديقتي، أنا شخص توقفت قراراتي وأنا في عمر ثلاثة أيام، ماتت فرحتي بموت أمي، حياتي تجمدت بعد زواج أبي، حريتي سلبت عندما انتقلت لأعيش في بيت عمتي، أما قوة شخصيتي فقد اغتيلت على أبواب كل هذه الظروف.

- لا تجعلها دراما. مازلت إلى الآن غير قادرة على نسيان خوفي من شدة هيبتك عندما قابلتك في المرة الأولى، أنت شخص ناجح بامتياز، وما زال المستقبل أمامك، وحان وقت قطاف ثمار تعبك على مدى عقود.

- كلامك يريحني، ولكني لا أرتجي أملا من الأيام.

قلت ممازحة:

- ارتج الأمل مني فقط، ومن بعدي لا تنتظر أملا.

- أمل، كان عندي أجمل أمل.

- تأكد أنك لن تخسر أملا إلا ويبدله الله بأمل أكبر. ألا تؤمن أن الخير دائما فيما يختاره الله؟

- ...

- حسنا لا تتحدث عن الأمل، ما رأيك أن تتحدث عن نعمة الله؟

- ههه، إنك فتاة رائعة ونعمة حقيقية.

- مم وهل ستكافئني على روعتي، وتدعوني لحضور فيلم في سينما الفنار؟

- حاضر، ولكن هل من أحد هذه الأيام يذهب إلى سينما الفنار؟

لم أشأ أن أجيبه أن هذا هو سبب اختياري لها، أريد أن نكون معا بعيدا عن الناس، أريد لقلبك أن يشعر بي ولعقلك المشغول أن يلتفت لاهتمامي بك، لا أريد مزيدا من الوقت الضائع في علاقتنا، فقد اقتربنا من الالتحام الذي طالما حلمت به.

***

كنت أنتظر يوم لقائنا بشوق حقيقي، وفي اليوم نفسه أخبرني أبي أن ضيوفا سيأتون لزيارتنا، وما فهمته أنهم أصدقاء له ولأمي منذ زمن، ولكنهم مقيمون في أستراليا

وهم الآن في إجازة في الكويت، وهكذا ألغي الموعد أو بالأصح تم تأجيله إلى يوم آخر.

لم أتوقع أن بين الحضور شابا وسيما اسمه محمد، وهو طبيب مختّص في تجميل الأسنان ومستقر في أستراليا، ولكنه أتى ضيفا مرافقا لأخيه وزوجة أخيه، ولم أتوقع أن يتقدموا لخطبتي قبل نهاية إجازتهم.

محمد يصغرني بثلاث سنوات وهو متجاوز هذا الموضوع، ولكني رفضت رفضا قاطعا الارتباط بمن يصغرني سنا، مما أثار غضب والدي ووجد نفسه مضطرا ليذكرني أنني تجاوزت منتصف الثلاثينيّات، وأن فرصي الذهبية للزواج أصبحت نادرة، وأنه ينبغي لي تقديم بعض التنازلات وألّا أدع نجاحاتي العلمية والعملية والاجتماعية تلهيني أو تنسيني موضوعا مهما كموضوع الزواج والإنجاب.

لم ينه أبي الموضوع مع محمد، ولم يعطه موافقة، وذلك بسبب اقتراب انتهاء إجازته، ونصحه بترك فرصة للتعارف والتواصل حتى يحين موعد إجازته القادمة بعد حوالى أحد عشر شهرا، ولا أدري كيف قبل محمد الاتفاق.

"لن أتزوج أحدا غير سعد" كان هذا قراري النهائي، ولكن... كان قرارا بيني وبين نفسي.

***

عند باب مجمع الفنار التقينا، للمرة الأولى سأكون قريبة منه، حلمي بدأ يتحقق والفرح يغمرني، كيف ستشعر لو علمت أن التي ترافقك هي أمل، أمل التي حلمت بلقائها أكثر مما حلمت بائعة الكبريت بدفء الشتاء، وأكثر مما أغرم ياني بآلته الموسيقية، أمل التي تمنيت وجودها حقيقة وانتظرتها تسع سنوات، كم أتمنى أن تبادلني الليلة ذاك الإحساس الذي حلمنا به مئات الليالي.

بدأ الفيلم، وأظلمت الصالة وعم الهدوء، بضعة أماكن متباعدة تشغلها ثنائيات شابة، ووحده الفراغ يملأ الأماكن الباقية.

مظهري ثابت ولكن روحي واثبة، مظهري ثابت ولكن قلبي يخفق خفق رياح شتوية، مظهري ثابت ولكن نفسي يكاد يحرق شفتين مستسلمتين تنتظران نداء، مظهري ثابت ولكن خيالي ينقلني كلمة واحدة إلى أحضانه، مظهري ثابت ولكن تنهيدة عميقة خرجت من أعماقي فاضحة إحساسي. كدت أموت خجلا، وأحسست بنظرات من طرف عينه تستكشف حالتي وببعض الأحاسيس تكاد تتسرب من قبضات عقله، ولكن مظهره ظل ثابتا حتى نهاية الفيلم.

أحسست بابتعاده عني وعدم رغبته في الاستجابة، بل رأيته بأم عيني يرسل إليها الرسالة، كلمات أغنية أحمد

الهرمي:

"مشتاق لك موت يا اللي طوّل غيابك، ذبحني الشوق وانت عني مو داري.. أذكرك كل يوم وأموت وأحيا بك وأقول وينك تجي تسأل عن أخباري، أرجوك يا حب غالي عود مالك بدالي وانا مالي بدالك، أذكر أيام حبك يللي ناسيني، يزيد الشوق يهل الدمع من عيني، محتاج لك يا حبيبي لا تخليني".

يجلس معي وإحساسه معها، ينظر إلى الفيلم وخياله يحلم بها، يشعر بحالة الحب التي تغمر المكان فيحب مشاركتها في مشاعره، ينظر إلى الثنائيات المجاورة فيتمنى لو كانت معه. إنه معي وليس معي، بالقرب مني ويحلم متى يحادثها أمام الشاشة، كم هي محظوظة وكم أنا تعيسة الحظ، إني، أغار من نفسي!

خرجنا ولم ينطق أحدنا بكلمة، كان الخجل سيد الموقف، وكانت سيارتانا آخر أهداف نتمنى الوصول إليها!

أعترف أني عاشقة حتى جاهزية ارتكاب الخطيئة، وأن الهوى يضمني ضمة الحبيب، مفتونة به حتى الثمالة، بل إن الثمالة تفوقت عليّ وعيا، كيف أحتل مكانها في قلبك؟ كيف أجعلك تستبدلها بنفسها، نفسها، لحما ودما ومشاعر غير افتراضية؟ لا أستطيع التربع على عرش قلبك لأنه مشغول بتربعي عليه، لا تريدني حبيبة لأنك قضيت عمرا

تنتظرني وما زلت، تهرب مني لأنك تبحث عني، لن تحبني لأنك تحبني حتى الدمار.. يا لسخرية القدر!!

عندما أرسل الرسالة، تمنيت لو كنت أونلاين فتصلني رسالته أمام عينه، وليحدث ما يحدث.

في غرفتي قرأت رسالته ولم أشأ الرد، يجب أن تنتهي حكاية أمل من حياته، يجب أن تبدأ حكاية سعد ونعمة حقيقة وواقعا، أتوسل إليك يا ربي أن تساعدني، فهو حبي الوحيد وأنا متأكدة أني حبه الكبير.

أرسلت له دعوة حضور عندما أقمنا حفلة بمناسبة حصولي على درجة الدكتوراه؛ لأعلمه كم أهتم بأمره وكم هو شخص مقرب مني.

كان حضوره صامتا كصمت قلبه، ويزيد من هذا الصمت الأجواء الاجتماعية الباذخة التي لطالما حرم منها. تقدمت نحوه، وبكل ثقة أخبرته كم تسعدني مشاركته لي.

- ألف مبروك دكتورة نعمة، شرف لي أن أشاركك النجاح.

- وهل تشرفك مشاركتي في أشياء أخرى؟

- ههههه، بالتأكيد لا تقصدين أن أشاركك في ثروة والدك.

- ولم لا؟

شعرت بتلعثمه وارتباكه، وقال معتذرا:

- آسف. لم أعن من الكلام أكثر من مزحة عابرة فرضتها أجواء الثراء المحيطة.

- أما أنا فلا أقول كلاما عابرا.

- يجب أن أستأذن الآن، مرة أخرى تمنياتي لك بالنجاح الدائم.

- معا.

- ...

مرة أخرى يتجاهل كلامي ويهرب من استكمال الحديث، ويتركني غارقة في بحر من الإحراج.

***

يلحّ في رسائله لأمل، ويطلب إليّ ألّا أتركه لامرأة أخرى، ويذكرني أن قصتنا لا تشبه أية قصة، ويجب أن نكملها ونجعلها ترى الشمس ونجعل الشمس تراها، قصة سعد وأمل اللذين جمعهما الحب وكل الأشياء الأخرى، وأقسم إنه لن يكون لحياته تتمّة إذا ما تخليت عنه، ويكون ردي في كل مرة "لا يناسبني الشخص الذي يغيب ويحضر وفق مزاجه، ولا أثق بمدة بقائه معي إذا ما

تحولت قصتنا إلى حقيقة". "ستقول لي يوما: مثلما أحببتني افتراضيا ستحبين غيري ألفا، وأنا اعتدت قسوة كلامك واتهاماتك".

كل محاولاته لم تجد نفعا، فقد كانت محاولاتي لجعله ينفر مني أشد إصرارا، أريده ألّا يجد لنفسه ملجأ آمنا ولا حبيبا حنونا مخلصا سوى نعمة، وليته يعلم حسن نواياي.

في إحدى المرات قررت بوصفي نعمة، أن ألّمح إليه بمشاعري، فأنا أعلم كم هو طيب ومحترم ورومانسي.

- سعد، هل تفكر في الزواج مرة ثانية؟

- الحقيقة، لا.

- ولكنك غير سعيد مع زوجتك.

- هذا لا يعني أن أتزوج مرة ثانية. أصلا لا أستطيع الزواج بثانية.

- هل أفهم أن دور المرأة انتهى في حياتك؟

- بالطبع لا.

- لم أفهم.

- أفكر في قصة حب كاملة مع امرأة من اختياري، مشاعرها تشبه مشاعري، تفكيرها يشبه ما أحب، تحبني بلا شروط وأحبها أكثر مما تستحق. امرأة بريئة مؤثرة

حنون، أنتظرها عمرا ولا أشعر بضياع وقت الانتظار، أحلم بها وأشتاق إليها وأعلم أنها تذوب شوقا إلى لقائي. نختلف، نبتعد، نقرر الرحيل وفي الوقت نفسه نكون على موعد عند عتبات القدر ننتظر وصولنا بفارغ اللهفة، ونبدأ حبا لا تصدقين أنه كان مسبوقا بخلاف أو قطيعة. امرأة لا تدع لي فرصة لأفكر في امرأة غيرها، امرأة لا تغريني نساء العالم باستبدالها، امرأة تهبني سعادتي المفقودة منذ زمن وأهبها حب رجال العالم أجمعين، امرأة أكتفي بها وتكتفي بحبي، امرأة تعيش للحب ولا ترى أهمية لمفهوم الزواج إلا لاكتساب صفة شرعية تجنب حبنا خدوش التقاليد.

- سعد، نتكلم وكأن هذه المرأة موجودة فعلا في حياتك.

- هل تصدقين أني لا أعلم إن كانت موجودة أو غير موجودة؟

- سعد.

- ؟

- ما رأيك بي؟

- ؟

- كامرأة.

- أنت فتاة رائعة بكل ما تحمل الكلمة من معان.

- قلت كامرأة، لا كإنسان. هل تعتقد أني سأجد شخصا يحبني بذات طريقة حبك لفتاتك الموجودة وغير الموجودة؟

- بل أنت تستحقين شخصا يفوقني عشرات الأضعاف، ولا أبالغ إن قلت إنك استثناء كبير عند كل الرجال.

- حتى عندك؟

- عندي بالذات، أنت فضفاضة جدا.

- هل تعتقد أنه بإمكاننا تعديل المقاسات؟!

- نعم، إذا ما استطاع ماجد المهندس ونبيل شعيل تبادل الملابس!

- يمكننا الاستغناء عن الملابس إذا كانت تسبب عائقا!!

- حتى في الكلام، لا أستطيع مضاهاتك.

- حسنا، هل نجرب الأفعال؟

- نعمة!

- لماذا تتجاهل مشاعري تجاهك يا سعد؟

- نعمة، أنت فتاة راقية، مدللة، أميرة، سعيدة، بريئة، محمية من كل أشكال قسوة الحياة، لن أكرر كم نحن مختلفان. هو القدر، وهبك كل شيء وحرمني معظم

الأشياء، أنا غير قادر على إسعادك ولا إرضاء طلبات والدك، لنكن صريحين وواضحين، حتى أنت ستندمين بعد فترة لن تتخيلي قصر أيامها. أفضل شباب الكون يحلمون بالارتباط بمثلك، اتركيني لهمّي يا نعمة؛ فإنك لم تخلقي للهموم.

- لم أخلق للهموم، ولكن ربما خلقت لك.

- تعشقين الأوهام.

- بل أعشق شخصا يجلس الآن أمامي، وإني أعترف بفشلي بل بعجزي عن جعله يعجب بي.

- ومن قال إنني غير معجب بك؟! معجب بك إلى درجة الغيرة، هل تصدقين؟!

- وأنا أحبك إلى درجة الغيرة، هل تصدق؟!

- نعمة، أنا صديقك المقرب وسأبقى، وأنت الحلم الذي لن أسمح لنفسي بالتفكير في تحقيقه أو حتى رؤيته، أنا أكبر منك وتجربتي أعمق، وأعي كل كلمة أقولها.

- امنحني فرصة لأثبت لك وامنح نفسك، دعنا نحاول.

لم أستطع تمالك نفسي، فانهمرت دموعي صادقة مليئة بالحب والتوسل، فما كان منه إلا أن اقترب مني، وقال:

- أنت الوحيدة التي لن أخدعك أو أستغل إحساسك

تجاهي، ولن أسمح لنفسي بخدش جوهرة ثمينة مثلك. نعمة، قلبي ممتلئ بحب آخر، حب امرأة سلبتني كل المشاعر ولم تبقِ لي خيارا، إما أن أعيش معها وإمّا أن أعيش بلا مشاعر إلى آخر عمري. لن تفهمي حب رجل لامرأة امتلكت قلبه وعقله، ربما تشبه قضية احتلال وربما نقل ملكية، أحبها كما لم يحب رجل امرأة أخرى، أحلم بلقائها وأنا متأكد أنها ستكون لي في يوم من الأيام، ليس لأنها وعدتني بهذا، بل لأنها توأم روحي وشريان قلبي. أنا أعرف نفسي، لن أحب امرأة بهذا العمق وهذا الكم لو لم تكن تبادلني مثلهما وأكثر، أشعر أنها توهمني أنها غنية وابنة عائلة وجميلة، ولكنني أدرك أنها تورطت بإخباري ذلك ولا تستطيع مصارحتي بعد كل هذه السنين، لذلك هي تهرب مني دائما. تحبني ولكنها محرجة من واقعها ومن عمرها الذي لم يعد صغيرا، وليتها تعلم أني لا أريد سواها في هذه الحياة مهما كانت مواصفاتها متواضعة، تشبهني إلى أبعد الحدود، تلبّستني، أدمنتها حتى اللاشفاء وأريدها حتى المرض، لن أبادل حبي لها بامرأة أخرى، وهذا ما أقسمت عليه، وقلبي وروحي شاهدان على قسمي، سامحيني نعمة، لو كان الله يحبني لكنت التقيتك قبل تسع سنوات وحب.

كاد يبكي وهو يتحدث، كاد يصرخ حبا لها، كاد يموت شوقا، أراك بأم عيني كم تحبني، أتنفس إخلاصك،

أنتفض من شدة عشقك لي، هل يعقل أن أعيش كل هذا العذاب؟! هل أرتكب كبرى حماقاتي وأصارحه؟! أخشى ردة فعله، وأخشى على مكانتي في روحه وقلبه وعقله.

تركني وذهب، تركني لأنه أحس بخيانته لها، لم يشأ أن يمنح نفسه فرصة حب جديد وفاء لها، أي استثناء أنت في عالم الرجال وفي عالم البشر؟!

لم أعد أريد شيئا من الحياة سواك يا سعد، فهل هذا ما يسمى الانتحار حبا؟ مريضة في هواك، وعليلة في تمنعك، أريدك كما لم أرد شيئا في حياتي، أصلا لم أعد أريد شيئا آخر في حياتي.

تمر الأيام والشهور، ونفسيتي تزداد سوءا ويأسا، وبقي شهر واحد حتى يعود محمد ولا حجة لي أمام أبي، لذا قررت مصارحته، أجل سأصارح أبي بحبي لسعد وليحدث ما يحدث.

- ماذا؟! تحبين رجلا متزوجا يكبرك بعشر سنوات، ولديه ثلاثة أبناء؟ هل جننت؟

- أجل، يا أبي.

- ترفضين أفضل الرجال، وتقبلين لنفسك أن تكوني زوجة ثانية؟ أين عقلك؟

- سعد شخص مميز، وفيه كل الصفات التي أحبها.

- سعد شخص انتهازي، طامع بملكك وجمالك وطيبة قلبك، أصلا كيف تتزوجين شخصا لا يمتلك حتى شقة لزوجته الأولى؟

- المال لا يصنع السعادة، وأرجو أن تعلم أنّ سعدا رافض التقدم إليّ، لأنه مدرك تماما كل الفروق بيننا رغم امتلاكه كثيرا من الصفات المميزة.

- كفاك سخافة نعمة، ترفضين من يصغرك بثلاث سنوات بحجة فارق العمر، وتقبلين من يكبرك بعشر سنوات ويرفض التقدم إليك، وكم من العجب سأشهد؟!

- أبي، أريدك أن تساعدني، أرجوك.

- لا أريد كلمة أخرى في هذا الموضوع، أبلغي محمدا بموافقتك على الزواج وكوني عاقلة كما أعرفك، وهذا آخر ما لدي من كلام، هل تفهمين؟

التزمت الصمت خوفا من أن يتخذ أبي قرارا يؤذي سعدا بشكل ما، ولكني لم ولن أستسلم، يجب أن تخرج أمل من حياة سعد نهائيا، وبعدها أتخذ قرارا أكون وحدي مسؤولة عنه.

ردا على إحدى رسائل شوقه، كتبت: "سعد، أرجو أن تكون هذه الرسالة هي الأخيرة بيننا، باختصار أنا تأكدت

أنّ علاقتنا مجرد وهم في عالم افتراضي، ولن يكتب لها أن ترى النور ولا الحقيقة. بعد أسبوعين، سيكون كتب كتابي على شاب صديق للعائلة، وأنا أعيش معه قصة حب حقيقية بكل تفاصيلها، وأتمنى أن تنسى وجودي في حياتك وألّا تحتفظ به حتى كذكرى، أتمنى لك كل الخير، وأتمنى أن تجد امرأة حقيقية تعيش معها قصة حب أعلم حجم حاجتك إليها.

أستودعك الله.

أمل"

وصلني رده ساخرا:

"متى ستتوقفين عن الكذب؟ أصدّق أن الفيلة تطير، ولا أصدق أن تكوني مع رجل آخر غير سعد، خلقت لي ولم تخلقي لتكوني لرجل آخر، كفاك تمثيلا".

"ما كان تمثيلا هو وجودي في حياتك، وما هو حقيقة الآن أني أعيش لحظات الحب في أحضان رجل يتفنن في حبه لي وأنا مغرمة بفنونه. لم يبقَ لك سوى الذكرى يا سعد، وإثباتا لك سأقوم بحذفك من حساباتي وبعدها من حياتي، كنت مرحلة في حياتي واليوم نهاية تلك المرحلة... تمنيت لقاءك مصادفة، ولكن المصادفة خذلتني بعدم حدوثها، وداعا لحبنا ولياليننا، فالزمن ليس لديه من رحابة

الصدر ما يكفي ليتحمّل أوهامنا، أتمنى لك الخير مع عائلتك ومع حب يملأ عالمك، وأرجو ألّا تحاول التواصل معي مرة أخرى".

قبل أن أحذف حسابه، وصلتني رسالته:

"أموول، هل جننت؟ أقسم إنني سأنتحر إن فعلتها".

لم أتردد، وقمت بحذف حسابه، ولم أبق إلا على حساب الإيميل.

***

اعتقدت أن الساحة باتت خالية لنعمة الآن، وملعبها ينتظر مهاراتها. حاولت الاتصال به عدة مرات خلال الأيام التالية ولكن هاتفه مقفل، أرسلت له الرسائل ولكن دون رد. لم أتردد في الاتصال بمكان عمله بحجة العمل ليأتيني الرد الصاعق أنه في المستشفى منذ عدة أيام وأن حالته سيئة، وما زال في العناية المركزة.

لقد فعلها!

أي ذنب اقترفته بحقك يا سعد؟! أي ظلم أضفته إلى حياتك بتهوري وطيشي؟! أي نذر سأقدمه أملا بالشفاعة وطلبا لإنقاذك من موت محتم؟! تحاول الانتحار لإحساسك بالعدم من بعدي، تساوت عندك الحياة والموت من بعدي يا حبيب العمر، تناولت كل هذا الكم من الحبوب المنومة

لتهرب من أمر بات واقعا. ليتك تعلم أني أنتحر ألف مرة من أجل البقاء بقربك ومعك، كم أعتذر من أجلك، وكم ألوم نفسي! وكم أدعو الله أن ينجيك كي أنجو من بعدك! أصلي لك في الليل والنهار، وأذرف دموعا تحرق فكري، أسترق النظر والسمع في مكانك كل يوم عشرات المرات حتى أطمئن أنك تجاوزت مرحلة الخطر، ولم يعد قلبي إلى مكانه إلا بعودتك إلى سريرك مستعيدا وعيك وعائدا إلى الحياة.

كدت أن تكوني مجرمة يا نعمة!! كدت أن تكوني قاتلة!! لن يحاسبك الزمن على نواياك الطيبة، بل سيحاسبك على أفعال شائنة كنت السبب فيها.

***

توترت العلاقة مع أبي عندما رفضت رفضا قاطعا الارتباط بمحمد، وكنت قد أخبرته أني اتخذت قراري بعدم الارتباط بأي شخص. سافرت بعدها إلى فرنسا لأشعر بالأمان الذي طالما أحسست به بجانب فيصل الذي أكد لي أنه معي في كل قرار أتخذه، وأنه سيكون لي السند إلى آخر يوم في عمري، ولولاه لما عرفت ماذا أفعل.

موقف أبي مني وله كل الحق، سعد الحقيقي ورفضه لي، سعد الافتراضي وقد اختفى من حياتي وإلى الأبد،

كل هذا جعل الحياة تضيق بي، ووجدت نفسي أحن إلى كندا وأيام الفرح والسكينة، وهكذا كانت سعادة خالتي لا توصف بالكلام، عندما أخبرتها بموعد سفري لقضاء وقت قد يطول معها.

كانت سنة رائعة بكل معنى الكلمة، استعدت فيها طاقتي وذكرياتي، وقبل انطلاق الطيارة، قالت لي خالتي:

- إن لك عندي أمانة، وقد حان موعد تسليمها لك. لقد طلبت إليّ أمك تسليمها لك، ولكن ليس قبل أن أتأكد من استقرارك الكامل، وها أنت الآن تحملين أعلى الشهادات، وأملاك والدتك قد انتقلت إليك وسجِّلت باسمك، ولديك رصيد كبير يؤمِّن لك مستقبلا سعيدا. كانت أمك تعتقد أنك ستكونين مستقرة في بيت زوجك، وتؤسسين عائلة، ولكن هي الأقدار تلعب بنا، وأتمنى أن يكون لقاؤك شريك العمر قريبا، فما زال هناك متسع من الوقت لتكوين أجمل عائلة.

وسلمتني صندوقا صغيرا أسود.

- ماذا في داخل هذا الصندوق؟

- أقسم إنني لا أعلم، وقد استحلفتني بكل المقدسات والأيمان ألّا يفتحه أو يعلم به أحد سواك، ولأنها واثقة بأمانتي وقدرتي على الحفاظ عليه، كلفتني بهذه المهمة،

ولا أحد في الكون يعلم ما في داخله إلا هي وأنت بعد أن تفتحيه.

- ترددت كثيرا قبل أن أفتحه، ماذا يمكن أن يخبئ هذا الصندوق من أسرار؟ أتذكر تماما كلام أمي عن الأسرار التي يجب أن تخبأ في صندوق أسود، ولكني لم أتخيل يوما أنها تعني حرفيا ما تقول. للمرة الأولى أشعر بهذا الخوف من المفاجأة التي لا أستطيع توقعها، هلع ينتابني كلما اقتربت من الصندوق لفتحه واكتشاف الأسرار، أمي لم تكن امرأة عادية، وبالتالي لن تترك أسرارا عادية وبهذه الطريقة غير العادية. لم أتخيل لحظة أن ماردا سيخرج من هذا الصندوق، ويقول لي "شبيك لبيك الدنيا كلها بين إيديك"، على العكس فأنا أرتعد خوفا كلما اقتربت منه وأتردد بشدة كلما حاولت فتحه، أخشى ما أخشاه أن يزيد هذا الصندوق من عثراتي التي باتت لا تنتهي في سنواتي الأخيرة، أبتعد عنه، أخفيه عن نظري، أتناساه، وللحظات أفكر في التخلص منه، وفي النهاية قررت وضعه في درج خزانتي وأقفلته، وأعطيت المفتاح لعمي عبد الله، فقد أكدت لي أمي أنه كاتم رائع للأسرار، وطلبت إليه عدم إعطائي هذا المفتاح قبل سنة مهما توسلت إليه ومهما بلغت الأمور، وقد صان الوعد ولم يأبه لطلباتي على مدار السنة، وتعامل معي كمن يعلم ما يخفيه هذا الصندوق من تحولات قد تكون مصيرية، أو ربما بحكمته لا يريد أن يعكر

صفو حياتي شيء قادم من الغيب.

- تفرغت خلال هذه السنة للعمل في الفرق التطوعية والجمعيات الخيرية، وأنشأت شبكة علاقات قوية جدا. حاول بدر الدخول إلى حياتي مجددا، بعد أن تأكد من استحالة حياته مع غيري، ولكن رفضي هذه المرة كان قاطعا وخاليا من أي تعاطف أو مجاملات، وأبلغته أني أقفلت هذا الباب، ولن يفتح في هذا العمر إلا لشخص واحد هو حبي الأول والأخير رغم أني على دراية تامة أن هذا الشخص لن يفتحه أبد الدهر، وأخبرك لأني وعدتك يوما أن أخبرك أسراري.

- لم يمض على ردي الحاسم لطلب بدر أكثر من أسبوعين، عندما علمت أنه اتخذ قرارا مصيريا، قرارا بإمكاني فهمه رغم غرابته وتهوره، إذ قرر بدر لأجل عين نعمة الانضمام إلى منظمة الهلال الأحمر، والانتقال للعيش في سورية ومساعدة الأطفال المتضررين من الحرب، بدر يعلم أنه قرر الذهاب للموت إلا اذا كان محظوظا ببركة سماوية تنجيه.

- لم يخبر أحدا، ولم ينتظر النصيحة، اتخذ القرار وأبلغ عن مكان وجوده بعد وصوله، وطلب إلى الجميع عدم التواصل معه، وترك لي دفتر ذكرياته الذي أهديته إليه يوما فارغا، ولكنه أعاده إليّ بعد أن كتب على نصف

صفحاته.

***

- لكل إنسان في هذه الحياة حكاية، والحكايات غير متشابهة، لا أنت تعلم حكاياتهم كاملة ولا هم يعلمون تفاصيل حكايتك، وكل يحكم على الآخر من موقعه، وكما جرت العادة الكل يكسبون ما عدا الطيبين. الطيبون هم الوحيدون الساذجون الخاسرون، ولكنهم لن يدركوا حجم سذاجتهم إلا بعد إدراك حجم خسارتهم!!

- ما بين وجهة نظر وبين وجهة سفر توقيعٌ للقدر، والتاريخ دائما يقف مع المنتصرين في النهاية.

***

- تعود ليالي الخريف، وما تزال النساء تحلمن بقصة حب أبدية، والرجال يشتهون عاصفة حب لا تنتهي.

- تليها ليالي الشتاء، وفي ليالي الشتاء تبحث الأجساد عن إغراء دفء قد لا يتوفر إلا في أحضان الأحبة؛ هو الالتحام الذي لطالما بحثنا عنه وسعينا إليه.

- أحلام لا تقبل التحقيق، وواقع عيشه مر، وفي داخلي فيضان عاطفة شهية أخشى أن تكون في طريقها إلى فقدان صلاحيتها، وترقب المجهول يسلبنا المتعة والحرية ويشعرنا بشكل آخر للعبودية، وأنا ليس لدي مزاج

للعبودية.

- ذات يوم، قالت لي أمي: "كانت أمي سعيدة قبل أن تخسر أمها". وأنا اليوم وبقناعة تامة أردد العبارة نفسها: "كم كنت سعيدة قبل أن أخسرك يا أمي؟!".

- مرت سنة كاملة، وحافظ عمي عبد الله على الأمانة وعلى رجائي بعدم الحصول على مفتاح الصندوق مهما توسلت، وكانت نصيحته الملحة الدائمة ألّا أفتح الصندوق، إيمانا منه أني لست مضطرة لفتح أبواب قد تجلب العواصف والأعاصير، فمن وجهة نظره اعتبر أن كل الأشياء الجيدة والإيجابية قد وصلتني من أمي، وحاول إقناعي بأن حالة السلام والنجاح والاستقرار التي أعيشها تستحق المحافظة عليها، وعرض عليّ التخلص من الصندوق بما فيه وهو من يتولى هذه المهمة، ورغم إلحاحه ونصيحته المستمرة إلا أنني اتخذت قرارا لا رجعة فيه؛ سأفتح الصندوق وأرى ما فيه، هذا الصندوق الذي أخفته أمي طوال حياتها وحتى بعد مماتها وكأنها تعرف الوقت المناسب الذي ينبغي أن أعرف ما في داخله. لقد اطمأنت أني حصلت على أعلى شهادة وأفضل عمل خاص وأكبر ثروة، وربما كانت تعتقد أني في هذا الوقت سأكون متزوجة ولدي أسرة، هو القرار، وأنا الوحيدة المسؤولة عن النتيجة.

الفصل الثامن

بقلب يخفق خفقان طبل قبل عرض عسكري بإيعاز وثانية، ويدين مرتعشتين ارتعاشة عجوز في التسعين من عمره يحاول تناول كأس ماء بعد أن أصابته حمى كادت تودي بدماغه الذي هرم وشاخ. عيناي مترقبتان، عقلي منهمك، دمي غادر عروقي، حدسي يحذرني، وخوفي يكاد يقتلني!

كاد المفتاح الصغير يختنق في قبضة يدي، فقد أصابها الشلل لمدة تقارب الساعة، وعجزت عن فتحها أو ربما نسيت!

أمسكت بغطاء الصندوق بأصابعي العشر، أتلو كل ما أحفظه من آيات وتراتيل لعل إحداها تكتب لي النجاة من كتابات، خطها القدر بأمر مكتوب مسبقا أو ربما خطها فقط ليكمل لعبته!

يدور المفتاح في القفل، ورأسي يشارك اللف معه، ولا أدري كيف جال في خاطري أن فتح غطاء الصندوق يشبه فتح غطاء التابوت لحظة إخراج الميت وإنزاله المرة الأخيرة إلى مثواه الأخير. لأول مرة سألقي نظرة على ما في داخل قبري الافتراضي، نعم المرة الأولى فأنا لم أرافق شخصا ميتا إلى قبره سوى أمي، وحتى لقبر أمي مواصفات مختلفة!

يا لظرافة طبعك يا أمي! لقد وجدت داخل الصندوق دمية الماتريوشكا من الحجم الكبير!

لم تجيدي يوما اللعب بالأعصاب، فما أنت فاعلة اليوم؟!

هناك ورقة بيضاء بجانب الدمية كتب عليها "أعلم أنك الآن في أحسن الأحوال، سامحيني لأني تركتك وحدك، وأنا أعلم حجم حاجتك إليّ وأنت المدللة الغالية، ولكن القدر قال قولته مبكرا، وما علينا إلا الاستماع والتنفيذ، وربما لو كان لدينا حيلة لاعترضنا! كان بإمكاني رمي الصندوق الأسود بما يحمله من أسرار في أعمق محيط، ولكن ثقتي بعقلك، وقلقي من أمر ما قد يحدث بعد رحيلي، وعدم وجود أخيك، جعلني أترك لك هذه الأسرار، افتحي واحدة واحدة وبالترتيب ابتداء من الكبيرة إلى الصغيرة، لقد وضعتها داخل الماتريوشكا التي طالما أحببتها وطالما كرهها والدك، وهكذا أضمن أن وقوع الصندوق في يده لأي سبب أو قدر لن يدفعه إلى فتحه".

عديني أن ما ستجدينه داخلها لن يؤثر فيك إلا لاتخاذ قرار- إن شئت اتخاذ قرار- فأنا أعلم كم أنت ذكية، وأنا واثقة بقوتك وحسن تصرفك!

وكان لها ما أرادت، وبدأت بفتح القطع.

بين الدمية الكبيرة والتي تليها، وجدت ورقة خضراء

ومفتاحا، ومن الواضح أن المفتاح يناسب باب منزل أو مكتب أو شركة، أما الورقة الخضراء فقد كتب عليها "نانا حبيبتي، عندما تقدم والدك لخطبتي اشترط عليه والدي شراء منزل فخم في سوريا ضمانا لمستقبلي أو ربما تعجيزا له ليلغي فكرة الارتباط بي، فلم يكن والدك أثناءها ذلك الشخص الغني المقتدر. هذا مفتاح المنزل، والمنزل مسجل باسمك وحدك لسببين: الأول أن أخاك اختار شراء عيادة في فرنسا، وأما السبب الثاني فستفهمينه لاحقا. إذا اتخذت قرارا للحياة في سوريا فمنزلك جاهز، وتذكري أني عشت لأجلك، وسعيت لفعل كل ما يسعدك ويعوضك عن أي حرمان فرضه عليّ وعليك القدر بكل جبروته.

نعمتي، أحبك إلى درجة البكاء.

كاترين".

أي شخص قادر على مفاجأتك بأمور تسعدك على مدار الحياة! في حياته وبعد مماته! في حضوره وفي غيابه! أمي يا جنتي التي عشت فيها على الأرض، كم أنا محظوظة بوجودك! وكم أنا قليلة الحظ بفقدك! لروحك كل الرحمة والسلام.

أحسست وكأنني أبحر في بحار ثلاثة شديدة العمق، أشكر الله أني اجتزت البحر الأول سالمة غانمة، وأدعوه أن ينجيني في العبور الثاني.

ما بين الدمية الثانية والدمية الصغيرة ورقة أخرى صفراء اللون، وبخط يدها نفسه قرأت سطورا تحمل بعض الغموض والشك.

"لن تسير الحياة على وتيرة واحدة يا ابنتي، ولا يوجد إنسان بصفات ملاك كامل كما يخيل لنا، فبعض التشوهات تظهر وبعضها يخفيها الزمن، ولكن الفرق يكمن بين من كان مجبرا وبين من اختار بكامل إرادته، فمثلا سائق سيارة بائس يصدم شخصا مخالفا يقطع الشارع هربا من جريمة اغتصاب وانتقام فعلها مخالفا الدين والأخلاق والقانون لن يسمى ملاكا، رغم كدحه لتأمين لقمة عيشه وعيش أولاده الأربعة وأمه المعوقة القاطنة معه في المنزل نفسه، أو على سبيل المثال امرأة تطلق الرصاص دفاعا عن شرفها لا يمكن تسميتها مجرمة، وفي الوقت نفسه ليست ملاكا لأنها باختصار، قاتلة!

وعندما تكون المرأة جميلة وبريئة كملاك، ولا ذنب لها سوى فتنة مظهرها التي وهبها الله لها وليس عباد الله، وتتعرض لاغتصاب جمالها وشرفها شهوة أو انتقاما، فهي لن تعود ملاكا، وإنما ستكون عارا بحكم أمر لا حول لها فيه ولا قوة، وستتعرض لتشويه لن يستطيع الزمن محوه من عيون الناظرين إلا إذا تم إخفاؤه وكتمان سره حتى عن أقرب الناس، ومهما كلف الأمر...

لا تحكمي على أمر قبل التحقق من مسبباته، ولكي تكوني عادلة حاولي وضع نفسك مكان الشخص المرتكب، وأنصتي لمبرراته ولا تظلميه بإدانته، فإثبات الخطأ على بريء لن يعتبر نصرا.

في الدمية الصغيرة ورقتي الأخيرة، وقد كتبتها باللغة الفرنسية تحسبا لأي سبب يجعلها تقع في يد أحد، ولعلمي أن المحيطين بنا لا يعرفون الفرنسية، فلن يهتموا بمحتواها أو لن يميزوا إن كانت سر حياتي أو مباركة لك في عيد ميلادك، تذكري أن السر لا يعلمه أحدٌ غيرنا أنا وأنت، ولا أريد لأحد غيرنا أن يعلم به، هذا السر الذي حدث بعد زواجي بأسبوع واحد حيث إن والدك اضطر للسفر بسبب مرض والدته الشديد، وبعد انتهائي من خمسة أيام من الألم النسائي المقيت.

أنت ابنتي التي رفضت التخلي عنها منذ أن أحسست بها تتكون داخلي، أنت من منحتني أجمل إحساس بالأمومة، ابنة أحشائي وقلبي والتي أحبها أكثر من الكون وما فيه.

اليوم وبعد أن اطمأن قلبي عليك وعلى مستقبلك الباهر، أخبرك وأترك لك القرار في الاختيار.

أتمنى أن تبقي بخير، وأستودعك الرب الذي لا تضيع ودائعه.

كاترين"

توقعين باسمك الشخصي على كل ورقة وليس بلقبك، وسأفهم أن كل ما يجري أو ما جرى حدث قبل أن تصبحي "أم فيصل" أو ربما "أم نعمة" كوني الابنة البكر لك.

بقدر شوقي وفضولي لمعرفة ما تحمله الورقة الأخيرة كان خوفي منها، أي سر تخشاه أمي الواضحة بامتياز؟!

أعصابي لن تتحمل سرا من عيار كاترين، سأنتظر حتى الغد، فالوقت يخفف حدة المفاجآت ويساعد على تقبلها.

أشتاق إليك أمي، وكلمة أشتاق إليك هزيلة.

أجلس مع أبي، وأحاول التعبير عن حبي وامتناني له وأنه سندي وذخري في هذه الحياة، فأجده ينظر إليّ تلك النظرة الطويلة، ويقول: "هل تعلمين أنك أصبحت نسخة كاملة عن أمك؟".

فأجيبه: "كم أنا محظوظة!"، وأقترب منه أضمه وأغرقه قبلا كما لم أفعلها يوما، وأكمل: "أمي اليوم حاضرة معنا بقوة"، فيجيبني: "وهل كان حضورها ضعيفا يوما ما؟!"، وأضاف: "لي طلب يا نعمة، واعتبريه رجاء، أريد أن أفرح بك وأرى أولادك وأسرتك كما كانت أمك خير أم، وخير زوجة، وخير من كوّن أسرة ناجحة سعيدة".

"حاضر يا أبي، عندما ألتقي رجلا يشبهك".

***

هل يعقل أن تنتظر قدرا مستلقيا في قلب ورقة؟!

وهل يعقل أن يجعلك الخوف من ورقة ترتعد كأوراق الخريف عند هبوب عاصفة؟! من أين أتى كل هذا الخوف والتوجس؟! ربما كان الأمر أبسط مما يصوره لي إحساسي وتفكيري، نعم، الأمر أبسط بكثير، الأمر أبسط بكثير يا نعمة، كوني على قناعة أنه بسيط، اجعليه بسيطا مهما تبين أنه صعب، بسرعة افتحي الدمية وتحرري من المخاوف، الدمية ملصقة بشكل متين.

بعد عناء، فتحتها، فسقطت منها ورقة حمراء، ملفوفة داخل خاتم ذهبي، وكانت أمي حريصة حتى اللحظة الأخيرة، أن تظهرها كهدية، وأنا قبل أن أفتحها أقسمت يا أمي أن ألبي طلبك وأكتم السر، ولا أخبر به أحدا مهما كلفني الأمر.

خمس دقائق استغرقت قراءة الورقة في المرة الأولى، وخمس دقائق أخرى لإعادة قراءتها، وخمسة عشر يوما لأخرج من مستشفى الحياة.

***

خمسة عشر يوما وأنا لا أنطق بكلمة، جثة هامدة سقطت

في امتحانات صعبة وضعني القدر فيها من دون علم ولا استشارة، خابت الآمال، وانهزمت أمام صفعات الواقع المؤلمة، تحطمت الأحلام، وانهارت الطموحات، وجفت مياه الحياة في روحي التي اغتصبتها عنوة سطور خطّت بمشيئة القدر، حكمني المكان والزمان وربما الخيبة، سلبت إرادتي، ونال مني العجز روحيا وعاطفيا وفكريا، وأصبح الانتصار شبه مستحيل، وأصبحت سنوات العمر عبئا وسبية لقسوة الظروف، وأصبح الانهزام نهاية لعرض لم تسدل ستائره بعد.

فجأة أجد نفسي مضطرة لدفع فاتورة العمر كلّه، أضخم فاتورة في تاريخ البشرية، فاتورة معنوية مادية اجتماعية عاطفية، تُدفَع ثمنا لخطأ ارتكبه شاب مغرور رغبة منه في الانتقام وتشويه الجمال والحب في صورة حبيبته التي فضلت عليه من يختلف معها في الجنسية والدين والعادات والتقاليد، فكانت عقوبته موتا سريعا إثر حادثة دهس مرعبة، بعد أن أعماه حقده وجعله لا يرى السيارة المسرعة التي أنهت فكرة هربه قبل أن ترى النور، وكنت أنا من تركها في رحم دافئ تنتظر رؤية النور نفسه، وكان عمي عبدالله آخر من رآه جثة هامدة على بعد أمتار من منزلنا في كندا، وكان فعلا كما قالت أمي خير من يكتم الأسرار.

***

شهور تعادل مئات السنين بطولها، عزلة كاملة، ورفض مراجعة أي طبيب أو متابعة أي عمل أو نشاط، مرة أخرى أجد نفسي في أمس الحاجة لإعادة ترتيب حياتي، أتساءل: أي خلل يؤدي إلى هذه البعثرة في كل مرة؟! كم مرة يجب عليّ أن أسقط وأعود للنهوض من جديد؟! كم يجب أن أمتلك من القوة والاحتمال لأكمل؟!

هي الأنصاف التي عشتها منذ مغادرتي كندا، تعود وتظهر من جديد مضافا إليها أنصاف أخرى، نصف أب، نصف أخ، نصف حب، ونصف حقيقة.

كيف لي أن أكمل في بلد ليس بلدي، مع أب ليس أبي، مع حبيب ليس حبيبي، مع عمة ليست عمتي، مع مال ليس مالي؟!

لم أنتظر يوما أن تكون هذه هي الصفحة الأخيرة في كتاب قدري، أنتني قاسية مؤلمة، لا أستحق ظلمها الروحي الكبير، وأرى أن خياراتي ثلاثة لا رابع لها بثلاث وجهات، سوريا بلدي وبلد أهلي الحقيقي، كندا مسقط رأسي وعمر سعادتي، فرنسا بجانب أخي النصف، وهو الشخص الوحيد الحقيقي في رواية حياتي التي قد تطول.

***

لعل أفضل جانب في الموضوع أن القصة كتبت لي وحدي، وكل شهودها رحلوا قبل إصدارها، وهذا يعني أنه بإمكاني إضافة صفحات لتكون النهاية كما أريد. ألست أنا المرددة دائما: "أكره البداية، وأحب أن أتمم ما بعدها حتى تكون النهاية كما أريد!"؟

كان أول خروج لي من المنزل بعد شهور طويلة، اشتقت إلى الشمس والنور، اشتقت إلى الحياة، اشتقت إلى نفسي، واشتقت إليك يا أمي.

إلى أكثر مكان أحبه في الكويت الجميلة التي لم يعد يربطني بها سوى بعض الذكريات، كانت وجهتي، هو شارع الخليج الذي عشقته، وبحرها الذي لا يعرف الصخب، على ذات المقعد جلست، وأكملت له حكايتي، وأحسست بأمواجه تلفني حبا وحنانا ودعما. بقيت ساعتين بمئة وعشرين دقيقة أتبادل مع رحابة صدره صدق المشاعر وعمق الأسرار، وهو يتفنن في غسل صدري من كل الهموم والمواجع، جعلني أبتسم، وجعل تنهيدتي تخرج بفرح، عندما همس في أذني مستعيرا صوت أمي: "كوني مع من أحب روحك قبل أن يراك، كوني مع من أخلص لك وأحبك على ما أنت عليه وليس لما أنت عليه، كوني مع من يشبهك روحا، لا تطيلي انتظاره أكثر، فقد أحبك كما تستحقين، اتخذي القرار وستجدين

السعد كله بانتظارك".

في لحظة أحسست أن القدر يربّت على جراحاتي ويبتسم، والفرح يقدّم أوراق اعتماده سفيرا إلى قلبي، وروح أمي الجميلة وقفت معي، وعناية الله حفظت روحي وقلبي. عدت إلى المنزل لأعانق أبي بلهفة ابنة حقيقية، وكانت دموعه أعمق إثبات وأوضح دليل على شدة حبه لي.

اتخذت قراري، وبدأت بتنفيذ ما يجب تنفيذه. وصية أمي واضحة، فيصل هو سندي الحقيقي، وهو من سأكمل حياتي بجانبه مرددة: "سنشدّ عضدك بأخيك"، وفرنسا بلد إقامتي المستقبلية التي وقع عليها الاختيار، وقصتي الافتراضية وقع عليها القرار.

***

اليوم هو آخر يوم لكتابة السطور الأخيرة معك يا حبيبي، اليوم أنا امرأة قوية قادرة على المواجهة واتخاذ القرار الذي يناسبها، وبدأت بالتنفيذ.

لأني نسخة منك يا أمي، سأكون كاترين الثانية في كل تفاصيلها، ولأنه ليس هناك نموذج للإنسانية والحب يقتدى به أعظم منك، وسأخبرك كل يوم بما أنوي فعله منتظرة موافقتك أو عدمها بإشارات أنا وحدي من يلتقطها

ويفهمها.

***

في صندوق أسود مخملي، وضعت الميدالية التي تحمل اسمي وتاريخ الموعد الأول للقائنا الذي لم يكتب له النجاح، وبجانبها وضعت مفتاح باب لشقتين ضمتا إلى بعضهما لتصبحا طابقا كاملا كبيرا في بنايتي في السالمية، وتم تأثيثهما بما يليق بالأمراء، ومعه ورقة بيع وشراء باسم سعد عبد المحسن عبد الصادق، وعبارة تقول "من حق أولادك أن يعيشوا باستقرار وفرح"، وتذكرة سفر باسمه وجهتها فرنسا، وموعدها يوم الجمعة الموافق للعاشر من أغسطس الساعة الخامسة عصرا، وورقة بيضاء ناصعة كتبت عليها بعض الكلمات، مختصرها: "نعم، شكك في مكانه، وأنا سيصبح لي مكاني، حان وقت معرفتك بأمل التي انتظرت رؤيتها عشر سنوات ولم تيئس، وحان وقت وفائها بوعدها بأن تلقاك ولو في آخر يوم في عمرها، إن أحببت مشاركتي في المكان والأمل فأنت تعلم المكان ورقم الرحلة.

يوم الخميس الذي طالما أحبه سعد وطالما حضن ذكرياتنا الغالية، اتصلت به وأخذت منه موعدا في مكتبه وطلبت إليه أن نكون وحدنا، وهكذا كان الموعد في الساعة الثالثة بعد خروج معظم الموظفين.

جلست أمامه، وفي داخلي قوة وثبات لم أعهدهما يوما

في حياتي، أربكته بنظراتي الطويلة ذوات الألف معنى والألف كلمة والألف حب، لم نكن على استعجال عندما شربنا قهوة دافئة بفنجاني حب. وبعد أحاديث متقطعة فرضتها أحاسيس ولدت في ذات الجلسة، ولكن فترة حملها قاربت العشر سنوات، قال لي:

***

لو كان لي أمنية عند الله ووعدني بتحقيقها لي، لكنت في حياتي أمل.

***

ولو كان لي أن أختار أحب أسمائه الحسنى إلى قلبي، لاخترت اسم المجيب.

نهضت وفي يدي الصندوق، ورافقني إلى الباب المغلق، وقبل فتحه اقتربت منه، ونظرت إلى عينيه الجميلتين اللتين تنظران إليّ وكأنهما ترياني المرة الأولى، اقتربت منه حتى التصق جسدي بجسده، بيد تحمل الصندوق وأخرى تلتف من تحت يده إلى كتفه، وهمست في أذنه:

***

هذا الصندوق هدية لك، ولكن لي رجاء بعدم فتحه قبل يوم الغد الساعة السابعة صباحا، وأريد وعدا منك بذلك.

***

لك ما طلبت وأكثر.

قالها، وصوته أمواج حب تدغدغ رقبتي وتتغلغل في خصلات شعري، ويده أسفل ظهري تشدني إليه بقوة رجل ورقة عاشق، ولم أهدر فرصة تحقيق حلم عشته خيالا لمدة عشر سنوات، وبحب الكون طبعت قبلة على قميصه الأبيض بأحمر شفتيّ، وكان مكانها حسب الوعد فوق الصدر وتحت الكتف.

ابتعدت عنه مسافة سمحت لي بقراءة أفكاره وتوقعاته ودهشته وشكه، وأخرجت من حقيبتي منديلي المشبع بعطري، ووضعته بين أزرار قميصه، تاركة إياه في حالة من الذهول وغياب الوعي. استلم الصندوق، وودعني بنظراته اللاواعية وكيانه المذهول إلى أن غيبني باب المصعد الذي احتضن بدوره فرط سعادتي وانتصار إرادتي، واحتضن معهما امرأة ذات قرار.

***

في المساء قبل النوم وبعد تجهيز حقائب سفري، وقضاء ساعات مع أبي الذي عز عليه قراري، ولكنه مطمئن عليّ وأنا بجانب أخي الذي كان له الدور الأكبر في قبوله سفري، جلست أودع ذكريات غرفتي، ورائحة البخور تملأ

المكان، جدران الغرفة التي شاركتني أجمل قصة حب، وسريري الذي احتضن معي لذّات الحب الأول التي تجاوزت المئات ولم تتعب.

حاسوبي الشخصي كاتم الأسرار، سأحتفظ بك حتى آخر العمر، أيها الشاهد على تفاصيل حب لا يشبه حبا آخر، ولن يكرره عاشقان باللهفة نفسها. بلا إرادة مني وبحكم العادة، فتحت إيميله الذي لم أفتحه منذ زمن، فوجدت رسالة وحيدة تاريخها قبل أربعة شهور وتسعة أيام، فتحتها دون توقع لما يمكن أن تحتويه...

"اعتدنا إلقاء اللوم وكنا نظنه لعبة القدر، ولم نلم أنفسنا يوما على ضعف قراراتنا وتحديد رغباتنا في طريقة العيش، في الحب، وفي تفاصيل أخرى لا داعي لذكرها الآن، لا يوجد لحظة تعادل لحظة اتخاذ قرار مصيري يخلصنا من حالة تردد وضياع وندم، وهذا ما فعلته حتى لو أتى في وقت متأخر.

أملي:

أخبرك فقط لمجرد العلم وليس لأي هدف آخر، أنّي قد انفصلت عن زوجتي لقناعتنا واعترافنا أنه لا ضرورة لبقائنا معا، ولاسيما أن انفصالنا العاطفي تخطى أربعة عشر عاما، ولقناعتنا أن انفصالنا سيكون في صالح أبنائنا، وتم الانفصال بمنتهى الود والاحترام، وبرضا جميع الأطراف.

أشعر الآن براحة روحية لم أعشها يوما، وأعتقد أن زوجتي لديها الشعور نفسه، لعل السلام النفسي والروحي والفكري هو أقصى ما نحتاج إليه في مجتمعاتنا التي تهاجم الحرية الشخصية، وخصوصا ما يتعلق بجانب المشاعر والروح.

أموول

أحببتك حتى بلغ الحب منتهاه، وأخفيت عنك أني أبتسم كلما تذكرتك، لأنها عبارتك التي طالما أرسلتها إلّي، وكثيرا ما عشتها.

أنت حبي الوحيد، الأول والأخير، الأكبر والأعمق، حبي الممنوع والمتاح، الحقيقي والافتراضي، أنت دنياي ونجاحي وسعادتي، لهذه الأسباب سأنتظرك عمرا كاملا ولن أشكو الملل؛ فمن دون وجودك أنا لا أمتلك شيئا ولا أريد شيئا، ولهذا أنا مضطر أن أعيش على أمل.

أحبك يا أحلى عذاباتي.

سعد".

***

شيء ما جعلني أبتسم. إنه صانع بسمتي، مصدر راحتي، وقود قلبي وحلم حياتي. أحبه، أحبه حتى الإغماء، أحبه

حتى انتهاء الحب، أحبه حتى يجمعني به ربي الكريم، أحبه حتى نجعل القدر يبتسم كلما تذكرنا.

بعد إنهاء كل الإجراءات وفي المطار نفسه، وبعد مرور عشر سنوات، يختم لي الموظف جوازي، ويسألني: "إلى أين أنت مسافرة؟"، فكان جوابي "فرنسا"، واعتقدت أنها كلمتي الأخيرة في الكويت.

ذات نظرات الناس إليّ عندما وطئت قدماي أرض المطار في المرة الأولى، ولكن هذه المرة بشكل لا يصدق وبتعمد واضح، ابتسمت عندما تذكرت أمي وكيف أمسكت بيدي لتحميني كطفلة في المكان نفسه ومنذ عشر سنوات، وأحسست بروحها تحلق في سمائي، وصوتها يقول لي: "دعوت لك بالسعادة، والله يتقبل دعاء الصادقين، انظري خلفك يا شريان قلبي ونبض روحي".

لم ولن أتردد في تنفيذ كلامها في كل مكان وكل زمان، نهضت من مكاني واستدرت لأرى ماذا يجري، ويا لقلب أمي!

أعداد من الناس مجتمعة وكأنها الأعداد نفسها التي قابلتها لحظة وصولي منذ عشر سنوات، أعداد كبيرة من الناس في انتظار أحبتهم أو ضيوفهم. عيونهم شاخصة فرحة مترقبة، يتقدمهم أبي ومعه رجل أنيق وسيم بقميص أبيض تعلوه قبلة واضحة رسمتها شفتا عاشقة، ولم يشأ إخفاءها

بل تعمد إظهارها ليري العالم أنه في حالة حب حقيقية معلنة، ومنديل ناصع بين أزراره يدل أنه لم يستخدم لمسح القبلة وربما لم تحل أزراره منذ أمس، وبجانبه حقيبة سفر كبيرة، ويتقاسم مع أبي لوحة رأيتها مرسومة بألوان الحياة والحب كتب عليها بالخط العريض، هذه قصة حياتي.

قصة "حب أونلاين"

يتبع في الجزء الثاني

مكتبة ضاد
t.me/twinkling4

حب
أونلاين

أتساءل كيف لساعتين بمئة وعشرين حدثا من الزمن أن تستحضرا تفاصيل قصة تبلغ من العمر عشر سنوات على التقويم الافتراضي، وكيف لبحر هادئ هائج راقص أن يستوعب أحداث قصة فيها من الحب، والعتب، والصبر، والشغف ما يدفع أمواجه في كل مرة لممارسة كل التقلبات المزاجية التي تشبه تقلبات مزاج امرأة شارفت على الأربعين من عمرها، ولم تشارف على بداية، وكيف لامرأة قاربت الأربعين حبا، ولم تغرق في بحر الخطيئة ألفا وستين كتابا؟!

- كاتبة سورية مقيمة في الكويت.
- بكالوريوس أدب انجليزي.
- ماجستير إدارة أعمال- المملكة المتحدة.
- مدربة دولية في التنمية البشرية حاصلة على البورد الأمريكي.
- باحثة في علم النفس الإيجابي.
- حققت العالمية في عدة مجالات.

enaamdayoub2020@gmail.com

EnaamDayoub2020

t.me/twinkling4

توزيع

الدار العربية للعلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc.

www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت في مكتبة نيل وفرات.كوم

www.nwf.com

ISBN: 978-614-01-3287-0

9 786140 132870